دوستويفسكي

مُذكّرات قبْو

ترجمة: أحمد الويزي

إن كاتب هذه «المذكرات» وكذا «المذكرات» نفسها، هي بطبيعة الحال من صنع الخيال. ومع ذلك، وبالنظر إلى الظروف والأحوال التي بني عليها مجتمعنا، فإنه ليس بالمستبعد على أشباه كاتب هذه المذكرات الوجود وحسب، وإنما ينبغي أن يكونوا قد وُجدوا بالفعل. لقد أردتُ أن أعرض أمام الجمهور، بقَدْرٍ من القوة الذي يفوق قليلاً القدْرَ المألوف، طبيعة بشرية متميزة تنتمي إلى حقبة زمنية لا تزال راهنة، وواحداً من ممثلي الجيل الذي أذِن بالغياب. في الشذرة التي تحمل عنوان: **في قبوي**، تقدّم الشخصية نفسها بنفسها، مثلما تقدّم طريقة تفكيرها، وتسعى إلى توضيح الدواعي التي ساهمت في تكوينها، وتلك التي كان ينبغي أن تكون قد ساهمتُ في ذلك، ضمن نطاق محيطنا. أما الشذرة الموالية فستقدّم بالمعنى الحقيقي هذه المرة، «مذكرات» تلك الشخصية بصدد بعض الأحداث الخاصة، التي طبعت حياتها.

فيدور دوستويفسكي

في قبوي

١

أنا رجل مريض... أنا رجل شرّير. أنا بالأحرى رجل مُنفّر. أظنّ أنّ بي شيئاً ما في الكبد. على كل حال، مرضي أنا لا أفهم فيه أي شيء، وأجهل على وجه الدقة، ما يؤلمني. وحتى إن ظللتُ أحترم الطب والأطباء، فإني لا أعالج نفسي، بل لم يسبق لي بالمرة أن عالجتها. أضيفوا إلى ذلك أني رجل متطيّر إلى أقصى حدّ، مثلما ليس مسموحاً لمثلي بأن يكون؛ الحاصل، أني متطيّر بقدر كافٍ لاحترام الطب. (إذ أنا متعلم بما يكفي حتى لا أتطير، ومع ذلك). أبداً! إنما بدافع الشرّ، أنا لا أتعالج. وهذا، أراهن على أنكم أيها السادة، لا تفهمونه. أما أنا، فواضح عندي! بالطبع، قد لا أفلح في أن أفسّر لكم، والحالة هذه، مَن ذا الذي أقضّ مضجعه، حين أخضع بهذه الكيفية لنزعتي الشريرة، فلا أتعالج؛ إنما أنا أدرك تمام الإدراك بأن الأطباء لن يزعجهم، أن أعرض نفسي عليهم للعلاج، أو لا أعرضها عليهم؛ إذ أعلم أكثر من أي أحد بأني لا أضرّ بفعلتي هذه، إلا نفسي أنا بالذات، وليس أحداً آخر غيري. ومع ذلك، إن كنت لا أعالج نفسي، فإنما بدافع الشرّ أنا أفعل ذلك. إن كبدي يؤلمني. ذلك أفضل، ألا فليزدد الألم أكثر فأكثر!

منذ زمن بعيد، ما يقرب من عشرين سنة بالتحديد، وأنا أعيش على هذا النحو. عمري الآن أربعون سنة. في ما مضى، كنتُ موظفاً. أما الآن فما عدتُ كذلك. كنتُ موظفاً شريراً. فظاً

وغليظاً كنت، وكان ذلك يُمتعني. لم أكن – كما قد تتصورون – أرتشي. لذلك، كان لا بد لي من أن أتحصّل بالضبط، على ما يعوّضني عن خدماتي، حتى وإن كان ذلك بتلك الطريقة. (هذه بحق مزحة سخيفة، إنما لن أشطّب عليها. لقد استهدفت، وأنا أثبتها، أن أحدث بها وخزاً لاذعاً؛ أما الآن، وبعدما صرتُ أدرك بأني ما عدتُ أبحث سوى عن التباهي بطريقة منحطة ومثيرة للسخرية، فإني لن أشطب – عمداً! – على أي شيء). لقد كنتُ في بعض الأحيان، حين يتقدم إلى مكتبي بعض الراغبين في قضاء مآربهم، ملتمسين مني أن أقدّم لهم معلومة من المعلومات، أستقبل هؤلاء وأنا أصك على أسناني. وحين أصل إلى إذلالهم، وجعلهم يشعرون بالمهانة، أحسّ بنشوة ما بعدها نشوة. وكنتُ أصل إلى تحقيق ذلك، كل يوم تقريباً. لقد كان هؤلاء على العموم، من قبيل الخجولين والخانعين الذين يُسلّمون بكل شيء، لكني ما زلت أذكر على الخصوص، أن ثمة من بين كافة المتغطرسين الذين لاقيتهم في حياتي كلها، ضابطاً عسكرياً لم أطقه بشكل كلي. ظل يرفض الرضوخ لي، ويُحدث بسيفه قرقعة مقيتة. وما كان مني إلا أن فتحت عليه النار لمدة ثمانية عشر شهراً متتالية، بسبب ذلك السيف السخيف. وفي النهاية، انتصرت عليه، فكتم قرقعة سيفه، ثم انخسف. إلا أن ذلك قد حصل على كل حال، في فترة شبابي. لكن، أتعلمون أيها السادة، ما الذي ظل يشكل الجوهر الأساسي لنزعة الشرّ عندي؟ وإذن، فإن متعة الحكاية كلها، وقمّة الفظاعة هي أني ظللتُ في كل لحظة من اللحظات، حتى ولو كنت أصبّ فيها على هؤلاء جام حقدي، أدرك في دخيلتي وبكيفية أدعَى للخزي، بأني لست بالكل شريراً، وبأن ما صدر ويصدر عني ليس

هو كذلك، بالشيء المهم أبداً، إذ لا أكون حتى بالمغتاظ؛ وإنما أكتفي بشكل غير مُجدٍ، بلعب دور الفزّاعة التي تأمل في ترويع طيور الدوري؛ فكنتُ أجد في ذلك متعة كاملة. كان يكفيني أن يُقدّم لي أحد ما، كلما أزبد فمي، وتطايرت منه الرغوة، دمية من الدمى الرخيصة، أو بعض الشاي المحلى بالسكر، لأستعيد في الحال هدوئي، بل لا أستعيد هدوئي وحده، وإنما قد تشدّ على خناقي بعض مشاعر الرقة، إلا أن هذا قد لا يمنعني فيما بعد، من قضم أناملي حنقاً وخجلاً، ومن معاناة الأرق المرير على مدى شهور. كذلك أنا، فماذا تريدون؟!

حين ادّعيتُ من قبل، بأني كنتُ موظفاً شريراً، كذبتُ. كذبتُ بدافع الشرّ. لم يكن حديثي عن أولئك الذين يلتمسون مني معلومة أو خدمة، ولا كلامي عن الضابط، سوى مزحة للتسلية وتزجية الوقت، وليس شيئاً آخر. أنا في الواقع، لم أستطع أن أصير شريراً قط. كنتُ في كل لحظة أشعر في قرارة نفسي بحشد، أجل، أشعر بحشد غفير من العناصر المناوئة للشر. كنتُ أدرك جيداً بأنها تحتشد في قراري على مدّ حياتي كلها، ولا تطالب سوى بالاندفاع إلى الخارج، لكني ظللتُ أرفض – أي نعم – أرفض رؤيتها تخرج! لقد سامتني العذابَ الأليم، إلى الحدّ الذي تسبب لي فيه ذلك بمشاعر المهانة والخزي؛ لأنتهي إلى حالة من السأم إزاء ذلك الوضع. إنما، هذا يكفي! ومع ذلك، ألا يتراءى لكم أيها السادة، بأني أقف أمامكم مثلما يقف مذنب يقرّ بجريرته، وبأن كل شيء يمضي وكأني ألتمس منكم الصفح عن شيء، لست أدري ما هو؟!... إني على يقين بأن هذا حقاً، هو ما يتبادر إلى ذهنكم... إنما الأمر عندي سيان، ظننتم ذلك في العمق، أم لم تظنوه...

لم أكن أعرف فقط، كيف أصير شريراً، وإنما ظللتُ لا أعرف كذلك، كيف أصير أي شيء يذكر على الإطلاق: لا شريراً، ولا طيباً، ولا دنيئاً، ولا شريفاً، ولا بطلاً، ولا حشرة. والآن، ها أنذا أنهي مسيرة حياتي في هذه الحفرة، ساخراً من ذاتي وأنا أواسيها بهذا اليقين، الذي بقدر ما هو متشائم، فإنه لا يجدي فتيلاً، والذي يفيد بأنّ الإنسان الذكي لن يقوَ أبداً على أن يكون شيئاً يُعتد به، ما دام أن الأغبياء هم الذين يستطيعون أن يصيروا شيئاً معيناً. أي، نعم! إن على إنسان القرن التاسع عشر الذكي أن يكون، كما أنه مجبر من منطلق أخلاقي، على أن يكون كائناً لا تسِمْه أي خصلة؛ أما الإنسان الذي يتميز بواحدة من تلك الخصال، ذلك الإنسان الفاعل والفعّال والنشيط، فإنه كائن محدودُ الآفاق. إن هذه لواحدة من القناعات التي ترسّخت لدي، على امتداد أربعين سنة. أنا عمري الآن أربعون سنة، والأربعون هي الحياة كاملة؛ إنها السنّ التي تتقدم الشيخوخة. أما أن يعيش المرء أكثر من أربعين سنة، فذلك شيء لا يليق به، شيء منحط ومنافي للأخلاق. ثم، من ذا الذي يتجاوز سن الأربعين؟ بالله عليكم، أجيبوني بكل صراحة؟ أنا سأجيبكم: الأغبياء والأنذال وحدهم مَن يعيش أكثر من أربعين سنة. وإنّي لمستعدّ للجهر بهذا في وجه الشيوخ، في وجه جميع هؤلاء الشيوخ الوقورين، وفي وجه كافة الشيوخ، في وجه هؤلاء الذين ابيضّ شعر رأسهم جميعهم، وتعطّر بالصمغ. من حقي الجهر بذلك طبعاً، لأني أنا سأعيش لأصل في الأقل، سنّ الستين. ولسوف أصمد إلى أن أبلغ السبعين! وإلى أن أدرك الثمانين!... لكن، بالله عليكم، اتركوني قليلاً، حتى أستردّ الأنفاس.

هل تعتقدون بكل يقين، أيها السادة، بأني أروم تسليتكم؟ في هذا كذلك، أنتم مخطئون. أنا لست ذلك النديم الفَكِه الذي تظنون، أو ربما يتراءى لكم؛ لكني إن كنت أزعجكم بهذه الثرثرة (وأشعر بأنها تزعجكم)، وإن خطر ببالكم أن تسألوني: من أكون، بالضبط؟ فإني سأجيبكم: أنا ناظر بمدرسة إعدادية. لقد كنتُ أعمل بهذه الوظيفة، لأحصل على قوت يومي (كي أحصل على ذلك فقط). وبعد تلك المرحلة، أي في السنة الفارطة، ترك لي أحد أقربائي البعيدين ستة آلاف روبل، على سبيل التركة، فبادرتُ للتو إلى الاستقالة من وظيفتي، ثم أقمتُ ببيتي: حفرتي. هذه الحفرة بالذات كنت من قبل أسكنها، لكني صرتُ اليوم، أقيم فيها بصفة نهائية. حجرتي رديئة وقذرة، كما أنها تقع في أطراف المدينة. أما خادمتي فامرأة ريفية. إنها امرأة ريفية عجوز، وفظة لكونها بليدة. وفوق هذا وذاك، فإن رائحتها الكريهة لا تُحتمل. وقد قيل لي بأنّ مناخ مدينة بيترسبورغ لم يعد يلائم الصحة، أي صحتي، وأن المعيشة فيها غالية جداً، خاصة إذا كانت للمرء موارد بئيسة، مثل مواردي أنا بالذات. هذا أدركه بكيفيةٍ أفضل ممّا يدركه جميع هؤلاء العقلاء، أصحاب الخبرة الثرّة، ممّن أشار عليّ بالنصيحة، وأدركه أكثر مما يدركه جميع هؤلاء الموافقين بالإيجاب على كل شيء. ومع كل ذلك، ها أنذا باقي في بيترسبورغ، ولن أخرج منها! ولن أخرج منها، لأن... أووف! إنما لا أهمية على الإطلاق لخروجي، أو لعدمه.

بالمناسبة، عن أي شيء يمكن لأمرئ شريف أن يتحدث، بمتعة كبيرة؟

الجواب: عن نفسه.

إذن، أنا كذلك سأتحدث عن نفسي.

٢

أريد الآن، أيها السادة، سواء شئتم ذلك أم لا، أن أحيطكم علماً بالسبب الذي جعلني لا أقوى حتى على أن أصير حشرة. لسوف أفصح لكم عن ذلك بنوع من الأبّهة والاحتفالية: شدّ ما رغبتُ لعدّة مرات، في أن أصير حشرة؛ لكن حتى هذا، لم أحظ بشرف تحقيقه! أؤكد لكم سادتي، بأنّ الإفراط في امتلاك الوعي ما هو إلا علة، علة مرضية حقيقية وتامة. إن مستوى وعي عادي قد يكفي الإنسان في تدبير شؤون حياته اليومية: أي وعي أقل من مستوى النصف، أو في حدود ثلاث أرباع الحصة المخصصة للإنسان المتحضر والمتطوّر، الذي ينتمي لقرننا هذا سيئ الحظ: التاسع عشر؛ ذلك الإنسان الذي ابتلي إلى جانب ذلك، بمأساة مزدوجة: الوعي الحادّ، والإقامة في بيترسبورغ، المدينة الأشد تجريداً، والأكثر تصنعاً من بقية مدن المعمور (إذ ثمة مدن مصطنعة بشكل فائق، وأخرى عفوية). فقد يكفي من الوعي – على سبيل المثال – كفاية تامة، ذلك المقدار الذي يحرّك أولئك الذين يُدعون بالاستثنائيين، أو النشيطين. قد تقولون في قرار أنفسكم، أيها السادة، وأنا مستعدّ للمراهنة على ذلك، بأني لا أكتب هذا إلا لإبهاركم، والتهكم على هؤلاء النشيطين، ولأن تبجّحي أشدّ سخافة ممّا كان يصدر عن سيف ذلك الضابط، الذي حدّثتكم عنه. لكن، من ذا الذي يتباهى بأمراضه الخاصة، أيها السادة، وفوق هذا وذاك يتبجح بها؟

إنما ماذا أقول، في العمق؟ الجميع يفعل ذلك، الجميع يتباهى بأمراضه، وأنا أكثر – مثلما أظن – من أي أحد آخر. لكن ما دامت اعتراضاتي عبثية، فلا بأس من أن نوقف النقاش في هذا. إلا أني مع ذلك، مقتنع اقتناعا راسخا بكون اتساع مدارك الوعي، وكل الوعي مهما كان، ما هو إلا علة مرضية. أنا صريح في هذا. إنما لنترك الآن، حتى هذا جانباً، وأجيبوني: لماذا ظل يحدث لي – وكأنما ذلك عن عمد – أني في اللحظة ذاتها، أجل، في اللحظة ذاتها التي أكون فيها أقدَر على استيعاب كافة التفاصيل الدقيقة للشيء «الجميل والسامي»[١]، مثلما كنا نقول قديماً في روسيا؛ لماذا يحدث لي في تلك اللحظة بالضبط، أني لا أفكر بذهني مطلقاً، وإنما أتصرف بسلوك أقل من... على كل، أتصرف باختصار مثلما يتصرف الجميع، لكني أتصرف مع علمي التام، وكأن ذلك عن عمد، بأنه ما كان ينبغي لي القيام بذلك بالمرة؟ وكنتُ بقدرٍ ما أعي فضيلة الخير، وكل ذلك «الجميل» و«السامي»، بقدر ما ظللتُ لصيق مستنقعي الدبق، وبقدر ما كنت قادراً على إغراق نفسي فيه، مرة واحدة وإلى الأبد. لكن السّمة الأساسية في ذلك، هي أن ما من شيء كان يبدو مفاجئاً، وإنما قد يقال بأنه تصرفٌ مناسب، وبأنه كان ينبغي أن يحدث. وكأنما كانت تلك حالتي العادية، وليس لا مجرد مرض ولا عيب، بالمطلق، بحيث أجدني أفقد في النهاية، كل رغبة في مقاومة ذلك. وقد أفضى بي ذلك، على سبيل الختم، إلى أن كدتُ أعتقد (بل اعتقدتُ ربما)، بأن هذه حقاً هي حالتي العادية والطبيعية. لكن، شدّ ما لزمني أن أتحمّل نفسي بشدة، في البدء، داخل دوامة ذلك الصراع!

[١] هذه العبارة التي يقترن فيها مفهوم «الجميل» بمفهوم «السامي»، تتصل بمؤلف للفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Kant) يحمل عنوان: ملاحظات بصدد الشعور بالجميل والسامي؛ وقد كانت عبارة رائجة رواج التقليعة الأدبية والفكرية، لدى النقاد الروس ما بين سنتي ١٨٣٠ و ١٨٥٠.

لم أكن أتصور أن جميع الآخرين يعيشون الوضع نفسه، لذلك تركتُ هذا سراً خاصاً بي، طيلة عمري كله. وظللت أشعر جراء ذلك بالخجل (بل ما زلت ربما أخجل بسببه، إلى يومنا هذا)، ليفضي بي الأمر إلى أن صرت أشعر ربما، ببعض اللذة السرية وغير العادية، وببعض اللذة المنحطة، خاصة حين أعود إلى مقر إقامتي، حفرتي، في ليلة من الليالي المقززة التي نعيشها في بيترسبورغ؛ كما أفضى بي ذلك إلى أن صرتُ أعي، بأني قد أكون اقترفت في يومي، فعلاً آخر أشد نفوراً، وبأن ما حدث – مرة أخرى – قد حدث؛ فأبيتُ ليلي وأنا أنقضم من الداخل في سرية تامة، وبكل ما أوتيتُ من أسنان أبيت أنقضم، وأتعذب، وألتهم نفسي بنفسي، إلى حدّ تغدو معه المرارة خزياً وخجلاً، ونوعاً من العذوبة اللعينة، لتستحيل بعد ذلك إلى متعة حقّة. أجل، أقول بالضبط: متعة. أنا صريح في ما أقول. من أجل هذه الغاية بالضبط، قررتُ أن أتكلم اليوم، وكلي رغبة في أن أعرف ما إذا كان الآخرون يشعرون هم كذلك، بهذا النوع من اللذة. لسوف أوضح لكم: تنشأ اللذة بالضبط، نتيجة إدراكي المفرط في الوضوح لحقارتي، ونتيجة شعوري بأني محاصر بجدار؛ كما تنشأ نتيجة الوعي المفرط في الوضوح حقاً، بأن الأمور تسير بشكل سيئ للغاية، إلا أن ما من مفرّ، للعدول عنها بكيفية مختلفة؛ وتنشأ عن الوعي بأن ما من مفرّ أمامي؛ وبأني لن أصير بالمطلق رجلاً آخر؛ وبأنه حتى لو فَضُل أمامي ما يكفي من الوقت والإيمان، لإعادة تشكيل سلوكي من جديد، فإني لن أفعل أي شيء؛ وحتى لو كنت أريد ذلك، فإني في هذا أيضاً لن أفعل أي شيء؛ لأن ما نكون قد أردنا أن نصيره في الحقيقة، لا وجود له ربما. ثم إن الأمر الرئيس، وخاتمة الخواتم كلها، هو أن

ذلك يحدث تبعاً لضوابط الوعي الأرحب العادية والجوهرية، كما يحدث تبعاً للخمول الناجم عن ذلك الوعي مباشرة؛ وترتيبا على ذلك إذن، لا ينعدم السبيل إلى التغير الذاتي وحسب، وإنما تنعدم بكل بساطة، إمكانية فعل ذلك. فقد يفضي الوعي الأرحب بالمرء مثلاً، إلى القول بأنه محقّ لكونه وغداً، وكأنما بمستطاع الوغد أن يواسي نفسه، لمجرد امتلاكه لما يكفي من درجات الوعي، التي تجعله يدرك بأنه حقاً وغد حقيقي! إنما، يكفي... لقد أسرفتُ في الكلام، ومع ذلك ماذا فسّرت لكم؟!.. تُرى هل بمستطاع هذا أن يفسر لكم ما أشعر به من لذة؟ ومع ذلك، سأمضي في التفسير قُدُماً، لأوضح لكم وجهة نظري! ينبغي أن أمضي قدماً، كي أفسّر ذلك! وإن ذلك للسبب الذي دعاني إلى الإمساك بالريشة، والانخراط في الكتابة.

أنا مثلاً، أتّصف بعزة نفس مخيفة. سريع التأثر وحقود مثل أحدب، ومثل إنسان قزم؛ ومع ذلك، ينبغي أن تصدّقوني إذا ما قلت لكم، بأني شعرت خلال لحظات مرّت علي، بأني لو تعرّضت في تلك الأثناء لصفعة، لاستطعتُ بحق أن أكون سعيداً بذلك. أنا جاد في ما أقول، أيها السادة: لقد كنت من دون شك، سأقوى على اكتشاف ولو شيء من قبيل اللذة الخاصة في تلك الصفعة، لذة اليأس بالطبع؛ إن أقوى اللذات لتأتينا في حالة اليأس تحديداً، خاصة إذا ما شعرنا – في عمق كبير – بأن المأزق الذي نكون قد وقعنا فيه، لا مهرب منه. وفي هذا – وأودّ أن أتحدث عن حالة الصفعة – أي انسحاق يعترينا، حين ندرك الحضيض الذي انحدرنا إليه! ومهما قيل، فإن الأهم هو على كل حال، هذا الأمر: أني الضحية الأولى لكل

هذا، وأني المُهان الأكبر، وأني المخطئ الذي لا ذنب له – مثلما يقال – تبعاً لقوانين الطبيعة وحدها. لأني أذنبت في البدء، بكوني أكثر ذكاء من هؤلاء المحيطين بي. (لقد شعرتُ دوماً في قرار نفسي، بأني أذكى من كافة هؤلاء المحيطين بي، وكنت أحسن من جراء ذلك أحياناً – إنما هل ستصدقوني؟ – ببعض الريبة. على كل، ظللتُ طوال حياتي أنظر إلى الناس بطَرْف موارب، وأتظاهر دائماً بالعجز عن رؤية أي شيء مهما كان، رؤية مباشرة). إني مذنب في الأخير، لكوني حتى وإن كنت أحظى بنوع من السموّ الروحي، فإني لم أشعر جراء ذلك سوى بألم أشد من وخز الوعي الناجم عن حالة إدراكي للاجدواه. لأني لن أعرف بكل يقين، ما الذي يمكن أن أفعله بسمو الروح: لن أعرف الصفح عمّن أهانني، لأن مُهيني قد يكون ربما ضربني، بمقتضى قانون من قوانين الطبيعة، خاصة وأن هذه لا تنتظر أن نصفح عنها؛ ولن أعرف النسيان كذلك، لأن الصفعة سواء بوجود قوانين الطبيعة أو بعدم وجود تلك القوانين، هي على كل حال أمر مهين. ثم إنني بعد ذلك، وعلى افتراض أني تنازلت عن سموي الروحي، وحتى لو كنت أريدُ أن لا يكون لي سمو روحي، كنت أرغب – عكس ذلك – في الانتقام ممّن أهانني، فإني كنت سأكون عاجزاً عن فعل ذلك، لأني من غير شك لن أقوى على اتخاذ القرار، حتى إن كنت قادراً على ذلك. لماذا لن أقوَ على اتخاذ القرار؟ أريد أن أقول لكم بشكل خاص، كلمتين في هذا الشأن.

٣

لنأخذ على سبيل المثال، الناس التي تعرف الانتقام لنفسها، وتدافع عنها بشكل عام، ولنتساءل: كيف يحدث لديها ذلك؟ لنسلّم بأن هؤلاء الناس تستبد بهم الرغبة في الانتقام: وهكذا ما من شيء آخر سيستحوذ عليهم لمدة طويلة، بقدر ما سيستبدّ بهم تحقيق تلك الرغبة. لا تنتظروا من أي إنسان ينحدر من هذه الطينة، سوى أن ينقض عليكم مباشرة، مثل ثور هائج نكّس قرنيه استعداداً للهجوم، ولن يحول بينه وبينكم سوى جدار. (وبمناسبة ذكر الجدار، فإن هذا النوع من البشر – وأعني النشيطين والعفويين الذين يتصرفون بتلقائية – ينبطح أمام الجدار، في خضوع صادق. ليس ذلك الجدار بالنسبة إلى هؤلاء عائقاً، مثلما هو بالنسبة لنا مثلاً، نحن أهل الفكر، بمعنى الخاملين وغير الفاعلين؛ إنه ليس تعلة لتبرير التراجع إلى الوراء، وهي التّعلة التي لا يؤمن بها من هم على العموم من طينتنا نحن بالذات، لكن هؤلاء يقبلون بها مع ذلك، في فرح. لا، إن هؤلاء لينبطحون من تلقائهم، في خضوع تام. إذ يحوي الجدار في نظرهم، شيئاً يبعث على الطمأنينة، وحلاً أخلاقياً محرراً ونهائياً، وقد أذهب إلى حدّ القول بأنه يحوي بالنسبة إليهم، شيئاً من قبيل ما هو روحاني... إنما لنترك الحديث عن الحائط، إلى موعد لاحق). وإذن، هذا الإنسان التلقائي والعفوي هو من أعدّه إنساناً حقيقياً وعادياً، كما شاءت له ذلك أمه الحنون: الطبيعة، حين جاءت به إلى الوجود، وأحلّته بلطف كبير منها، محله في هذا الكوكب. وإن هذا الإنسان بالذات، أنا أحقد عليه حدّ السخط، ويغيظني إلى أقصى حدّ. إنه غبي وأبله، ولن أناقشكم في شأن ذلك، إنما ما أدراكم

بأن الإنسان العادي لا ينبغي له أن يكون غبياً أو أبلهاً؟ بل قد يكون هذا أفضل بكثير، ربما. ثم إني لمقتنع بالأحرى بهذا... بهذا الشك، إن صح التعبير؛ إذ لو أخذنا نقيض الإنسان العادي، أي الإنسان الذي يتمتع بوعي واسع وثاقب، ولا ينحدر من صلب السيدة الطبيعة، وذلك شأن بديهي، وإنما ينحدر من غور إنبيق التقطير (في هذا أيضاً ما يشبه التفكير الصوفي، أيها السادة، لكنني كذلك ميّالٌ إلى هذا الشك)؛ وإذن، قد يحدث لهذا الإنسان المنحدر من الإنبيق، أن ينبطح بشكل كلي أمام نقيضه، فيشعر في دخيلة نفسه بكل الصدق وبسعة الوعي لديه، بأنه شبيه جرذ، وليس إنساناً أبداً. يشعر بأنه جرذ يملك وعياً واسعاً، إنْ صحّ القول، إنما يبقى في الأخير مجرّد جرذ؛ وبأنه والحالة هذه يقف أمام إنسان، وهكذا دواليك... ثم إن الأساسي هو أنه يعدّ نفسه، ومن تلقاء مشيئته، وكأنه جرذ؛ والحال أن ما من أحد طلب منه ذلك؛ وهذه نقطة جوهرية. لنفحص الآن هذا الجرذ، وهو ينخرط في الفعل والحركة. لنفترض على سبيل المثال، بأنه تعرّض هو الآخر للإهانة (وإنه ليهان تقريباً، بشكل دائم)، ويرغب هو الآخر كذلك في الانتقام لنفسه. ولربما تراكمت في نفسه كمية كبيرة من الغيظ، مثلما يتراكم ذلك في دخيلة **إنسان الطبيعة والحقيقة**[٢]. إن الرّغبة الدنيئة والذميمة التي تتوق إلى الرّد على الإهانة بإهانة أخرى مثلها، لتلتهم دواخله ربما، بطريقة أكثر قذارة ممّا قد يحدث لدى **إنسان الطبيعة والحقيقة،** لأن هذا الأخير بفعل سذاجته وبلاهته الفطرية، يعتبر ببساطة تامة أن رغبته في الانتقام، ليست سوى سلوك منصف وعادل؛ بينما الجرذ – لكونه ذا سعة

[٢] هذه عبارة وردت بالفرنسية في نص الرواية الأصلي، الذي كتب بالروسية، وفيها إشارة مكثفة بشكل كبير جداً، تحيل على كتاب جان جاك روسو: **الاعترافات،** الذي يقول فيه: «أريد أن أبين لجميع أمثالي وأشباهي، إنساناً في حقيقة طبيعته الكاملة».

في الوعي – ينفي على نفسه أن يكون ذلك عدلا، ويكابر أن يرى في الأمر سلوكاً منصفاً. وبذلك، ننتهي إلى بلوغ لب القضية، إلى الفعل بالذات، وأقصد الانتقام. إن جرذنا الشقي، إلى جانب دناءته الأصلية، يكون قد وفّر لنفسه الوقت اللازم، ليحيط نفسه بدائرة أخرى من الخزي والدناءة والمهانة، التي تمثلها الأسئلة والشكوك؛ فيضيف إلى مشكله الأصلي، مشاكل أخرى عديدة لا حل لها، إلى حدّ أنه ينتهي إلى أن يلفي نفسه، على الرغم من مشيئته، وقد طوقه مزيج فتاك من الوحل عطِنِ الرائحة، الذي يتكوّن من هواجسه وشكوكه، ومن البُصاق الذي يمطره به في النهاية، القوم التلقائيون والفاعلون العفويون، الذين يُحكمون عليه الدائرة بشكل ظافر، على هيأة قضاة ومضطهدين وأشخاص آخرين ممن يسخر منه، ملء الأشداق. بالطبع، لا يتبقى له سوي أن يخفض منكبيه الصغيرين في ذلة وخزي، وأن يذعن، ثم يندسّ كاسفاً وخاسفاً وخجولاً بين أركان جُحره، وهو يتظاهر بابتسامة محتقرة، لا يثق فيها هو نفسه. وهناك، في قعر قبوه النتن والبئيس، ينغمس جرذنا المُهان والمهزوم والمغمغم، على الفور، في لجّة من الغيظ البارد والمشبع بالغل السرمدي، على الخصوص. وحتى حين تمضي على ذلك أربعون سنة، فإنه سيجترّ ما حدث له إلى آخر تفصيلة مُذلّة نجمتْ عن إهانته؛ مضيفاً إلى ذلك في كل مرة، تفاصيل أخرى أشدّ إذلالاً وخزياً، يستمدّها من غله السرمدي، وهو يُحدّث نفسه بغيظ مشبع بالشر، ويسخر منها من منطلق هواه الخاص. ولسوف يشعر إزاء ذلك الهوى الخاص، بالخجل من نفسه، إلا أنه سيتذكر كل ذلك، وسيقلّبه من جميع النواحي، وسيختلق لنفسه قصصاً وحكايات أبعد ما تكون عن

الاحتمال، تحت ذريعة أن ذلك كان من شأنه أيضاً أن يقع، ولن يغفر لنفسه أي شيء أبداً. ولسوف يشرع ربما في الانتقام من نفسه، لكن انتقامه سيكون بهزات متقطعة وغير منتظمة، وبترهات سخيفة، كمن يطعن غريمه في الظهر بطريقة متخفية، دون الإيمان لا بحقه الخاص في الانتقام، ولا بنجاح ذلك الانتقام، مدركاً بشكل مسبق بأن كافة محاولاته ستتسبّب له في آلام تفوق مائة مرة، تلك التي يهدف إلى تحقيقها في دُخيْلاء غريمه، وعارفاً كذلك بأن هذا الأخير لن تسبب له تلك المحاولات الانتقامية ربما، سوى في وخز بسيط أشبه ما يكون بلسعة البعوض. ولسوف يتذكر جرذنا كل شيء مرة أخرى أيضاً، وهو على فراش الموت، مضيفاً إلى رصيد الغيظ المكتوم، ما تراكم في قرار نفسه من فوائد إضافية؛ وعندها... لكن، في هذا الشعور بالضبط الذي يشبه الثقة، وفي هذا الإحساس الذي يشبه الرجاء، وفي هذا الحسّ غير التام بالإحباط، وكلها مشاعر مترعة بشكل شنيع ببرودة صقيعية قاتلة؛ وفي خضم هذا الأسى الذي يدفعك بكل الوضوح اللازم، إلى الانقبار الطوعي والواعي لمدة أربعين سنة داخل قبوك الخاص، غارقاً في وضعية من التعاسة والشقاء، التي لا مهرب منها؛ في هذا الوعي الحاد، الذي هو مع ذلك – حتى وإنْ ظل جزئياً – وعيّ مرتاب بالمأزق الذي يوجد فيه صاحبه، وإن في هذا السمّ الناجم عن الرغبات غير المشبعة، وهو السم الذي يكون قد اخترق في النهاية، مسام بشرتك؛ إنّ في هذه الحمى أخيراً، حمى الترددات والقرارات المأخوذة على أنها نهائية، ومن الندم العائد عليك بعد لحظات؛ إن في كل ذلك، ليكمن جوهر تلك اللذة الغريبة التي تحدثتُ عنها من قبل. إنها رهيفة، وأحياناً سريعة التبخر، إذ هي

تنفلت في بعض الأوقات، انفلاتاً تاماً من رقابة الوعي، حتى إنه ليكفي أن يكون الناس محدودي الإدراك بعض الشيء، أو تكون أعصابهم قوية فقط، كي لا يفهموا بالمرة. «ربما هناك بعض من لا يفهم أي شيء من ذلك. ستضيفون في نوع من السخرية والتهكم... من لم يتلق أي صفعة بالكل». وتلك لعمري، طريقة مؤدبة منكم في الكلام، لكي تلمّحوا لي بأن هذه التجربة بالذات، قد وقعت ربما لي أنا، وبأني أتحدث عنها إذن، من منطلق معرفة مسبقة بالمعطيات والأسباب. أراهن على أن هذا هو ما تردّدونه في دخيلة أنفسكم. إنما اطمئنوا، أيها السادة. أنا لم أتلق في يوم ما، أي صفعة بالكل. وسيان عندي ما قد تظنونه في هذا الشأن. هيا، هذا يكفي. لن أضيف ولو كلمة واحدة بخصوص هذا الموضوع، الذي يبدو أنه يشغلكم بكيفية كبيرة.

أواصل بهدوء ورباطة جأش، الحديث عن الناس ذوي الأعصاب الصلبة، الذين لا يدركون هذا الصفاء المتصل ببعض الملذات، التي تحدّثنا عنها. على الرغم من أنه سيكون بمقدور هؤلاء السادة، في مناسبات معينة مثلاً، أن يخوروا ملء أفواههم مثل ثيران، وهو الأمر الذي يشرّفهم كل التشريف؛ فإن ذلك لن يمنعهم – مثلما سبق لي أن قلت – من الخضوع، مستسلمين في الحال أمام المستحيل. فهل ستكون الاستحالة إذن، جداراً حجرياً؟ وأي جدار حجري؟! إنه إذن قوانينُ الطبيعة، والخلاصات التي تنتهي إليها العلوم الطبيعية،

والرياضيات. وبخصوص هذا، فإنه كلما قُدّم لك البرهان على أنك تنحدر من أصل القرد[٣] مثلاً، فلا تقطب جبينك في تعجّب واستنكار، وإنما عليك أن تقبل بذلك كما هو. وبخصوص هذا أيضاً، فإنه كلما بُرهن لك بأن جزء ضئيلاً – في العمق – من شحمك الخاص، ينبغي أن يكون بالنسبة إليك، أغلى من مليون ونيف من أشباهك وأمثالك من بني البشر، وبأن هذه الحجّة تلغي في المحصّلة النهائية، ما يُدعى بالفضائل والواجبات؛ فإن عليك القبول بكل هذه الهذيانات مثلما هي، والقبول كذلك بغيرها من الأحكام المسبقة الأخرى، إذ ما الذي تستطيعه إزاءها؟! فهي تُقدّم لك مثل حاصل عملية ضرب اثنين في اثنين، عملية رياضية! وإذا شككت في ذلك، فلتحاول الردّ إذن على ذلك، لترَ بنفسك.

«لكن عذراً – سيصيحُ البعض في وجهك – ليس بمقدور المرء في المحصلة الأخيرة، أن يثور على ذلك: إن الأمر عملية أشبه بحاصل ضرب اثنين في اثنين! ثم إن الطبيعة لا تلتمس منك أن تدلي بأي رأي، كيفما كان. وسواء أكنت متفقاً مع قوانينها أم لا تتفق، فإن الأمر عندها سيان. أنت مضطر إلى الموافقة على ذلك مثلما هو، ومن ثمة يترتب على ذلك كل شيء. وإذن، الجدار هو الجدار... إلخ... إلخ». لكن يا إلهي، ماذا سأفعل أنا بقوانين الطبيعة والحساب، إذا لم تكن تلك القوانين وتلك العمليات الحسابية – لسبب أو لآخر – تروق لي؟ بالتأكيد، أنا لن أثقب ذلك الجدار بضربة من رأسي، إن لم يكن لدي في الحقيقة ما يكفي من القوة، إلا

[٣] ظهر كتاب: «**أصل الأنواع**» لداروين مترجماً إلى اللغة الروسية سنة ١٨٦٤، فأثار بظهوره زوبعة من النقاش الشيّق على صفحات الجرائد والمجلات. وإن النبرة المبتذلة التي استعملها دوستويفسكي في هذا السياق، انعكاسٌ لمعارضته النزعة المادية في تفسير أصل الوجود.

أن كونه فقط جداراً من حجر، وكوني ضعيفاً جداً، ليسا بالسبب الكافي الذي من شأنه الدفع بي إلى الرضوخ والخضوع.

وكأن بإمكان هذا الجدار الحجري حقاً، أن يُدخل عليّ السكينة والهدوء، وكأنما هو ينغلق حقاً على ما لستُ أدري من عبارات التخفيف، بحكم هذه العلة الوحيدة التي هي أن حاصل ضرب اثنين في اثنين هو أربعة! يا لهذا العبث الأعبث! إنما أن يفهم المرء كل شيء، وأن يعي كل شيء، ويحيط علماً بكافة المستحيلات، وبجميع الجدران الحجرية؛ وأن لا يخضع لأي شيء، ولا لأي استحالة، ولا لأي حائط حجري، إن كان ينفر من الخضوع لذلك؛ وأن يبلغ بواسطة الترتيبات المنطقية الأشدّ صرامة، إلى الخلاصات الأدعى إلى النفور والتقزُّز، بشأن هذا الموضوع الذي يملك قوته الراهنة على الدوام: الجدار الحجري؛ فإن ذلك بمثابة وضعه في قفص الاتهام، حتى وإن لم يكن بالبداهة متهماً لمرة أخرى بأي شيء، وهو ما يقوده – دون النبس بكلمة واحدة، وبالصرّ على الأسنان بدافع العجز – إلى التسمّر في تلذُّذ، ضمن وضعية الجمود الخامل، وإلى التفكير في أنّ ما من شخص ثمة يمكنه أن يُفرّغ عليه، ما يشعر به من سخط؛ وبأن موضوع الاتهام ما عاد قائماً، وبأنه لن يجد مرة أخرى أبداً أي قزم أمامه، وبأنه وُضع هنا إزاء حيلة من حيل الشعبذة، وإزاء مقلب، وعملية غشٍّ بسيطة وحقيقية، وأن ما من أحد يعلم كيف، وما من أحد يعلم من المسؤول، وأن ذلك يتسبب بالنسبة إليه دائماً – رغم الألغاز والمقالب – في الألم، وأنه بقدر ما يفهم أقلّ ممّا ينبغي، بقدر ما يتسبب لك ذلك في الألم!

٤

«ها! ها! ها! بعد ذلك، قد تجدون حتى في وجع الأسنان الشديد لذة!»، ستضيفون وأنتم تقهقهون.

– وماذا في ذلك؟! سأرد عليكم أنا. إن شدة ألم الأسنان لا تخلو من لذة. لقد كنتُ أشكو لمدة شهر كامل، من ألم فظيع في الأسنان؛ لذا، أنا أعرف عن أي لذة أتحدث. بالطبع، هذا الوجع بالذات لا يبقى طي الكتمان، وإنما يكشف المرء عنه بالأنين؛ إلا أن هذا الأنين لا يخلو من بعض الادِّعاء، إذ يبقى مفعماً بالمكر. ومن ثمة، فإن هذا المكر بالذات، هو ما يعطي لذلك الألم نكهته الخاصة. إن الالتذاذ ليكمن في ذلك الأنين الذي يُعبّر عنه كل من يتألم؛ إذ لو لم يشعر المرء بلذة، لما عبّر عن ألمه بالأنين. هذا المثال التوضيحي جيد للغاية، أيها السادة، لذلك سأمضي قُدُماً في مناقشته، والتوسّع فيه. إن ذلك الأنين ليعبّر في المقام الأول، عن اللاجدوى التامة – والمذلة بشكل كبير لوعينا – من الألم الذي نشعر به؛ مثلما يعبّر عن شرعية الطبيعة كلها، التي لا نأبه نحن بالطبع لها، غير أننا نعاني مع ذلك، من الألم الذي تسلطه علينا، فنكون نحن بالذات من يتألم، وليس الطبيعة! يقولون إننا واعون بأننا لم نعثر لنا على عدو، إلا أننا مع ذلك نتألم؛ وبأن فيالق فاجينهايم[٤] (Wagenheim) الطبية والمتكونة من كافة الأجناس، لا تستطيع أن تقدّم لنا شيئاً من شأنه أن يخلصنا من الآلام، وبأننا صرنا بشكل

[٤] كان هناك في روسيا تلك الحقبة، العديدُ من أطباء الأسنان الذين يتسمّون بهذه التسمية، ويشهرون أنفسهم وصفتهم بها في الجرائد، حتى صار اسم «فاجينهايم» يحيل رأساً على فيلق أطباء الأسنان ذلك الوقت.

كلي عبيداً لأسناننا وأضراسنا؛ وبأن أحدهم لو شاء، لتوقفت الأسنان والأضراس عن الإيلام، وإن لم يشأ، يكون بمقدورها أن تتسبب في المزيد من الألم، الذي من شأنه أن يمتد إلى ثلاثة أشهر؛ وبأننا في المقام الأخير، إذا ما أصررنا على عدم المسايرة والخضوع، وذهبنا إلى حدّ الاحتجاج، لن يفضل أمامنا على سبيل العزاء الشخصي، سوى جلد الذات، أو تسديد بعض اللكمات المؤلمة جداً للجدار، أما عدا ذلك فما من شيء آخر يفضل أمامنا، لنقوم به. وحينئذٍ فقط، تنشأ عن تلك الشتائم الدامية، وعن ذلك الاستهزاء الساخر الذي يُجهَل مصدره، لذةً يكون بمستطاعها أن تبلغ في بعض الأحايين، الحد الأقصى من الإمتاع. أرجوكم أيها السادة، أن تصيخوا السمع ذات يوم، لأنين إنسان القرن التاسع عشر المتحضر، حين يصيبه وجع شديد الإيلام في الأسنان؛ إذ حين يشرع هكذا في الأنين خلال اليوم الثاني، أو لنقل اليوم الثالث من إصابته، بكيفية تكون مختلفة عن اليوم الأول من المرض، أي حين لا يئنّ بسبب اشتداد الألم فقط؛ فإنكم ستلاحظون بأنه سيتألم، لا مثلما قد يتألم فلاح من فصيلة الموجيك، وإنما كما يفعل الإنسان الذي مسّته رياح التطور والحضارة الأوروبية، أي مثل «إنسان انتزع من الأرض، واجتثّ من جذوره الوطنية»[٥]، كما يُقال عندنا الآن. يصير أنينه منفّراً ومقززاً وعفناً، ويدوم لأيام وليالي متواصلة. إن هذا الإنسان ليدرك مع ذلك، بأن ما من فائدة تُرجى من هذا الأنين، كما أنه يعلم أكثر من أي أحد آخر، بأنه لا يساهم سوى في تحطيم قدراته، وفي استثارة الحنق في نفسه، واستثارة حنق كافة أولئك الذين يحيطون به

[٥] صيغة تعبيرية نقدية كلاسيكية، كان يستعملها الكتّاب الروس والسلافيون، في تعارضهم مع الكتاب الغربيين.

أيضاً؛ وإنه ليعلم كذلك بأن الجمهور نفسه، الذي يسعى ما في وسعه كي يتألم أمامه، بمزيد من الإصرار واللجاجة، وبأن عائلته هي الأخرى لم تعُد تتحمّل ما يندّ عنه إلا بتقزّز واشمئزاز، وأن الجميع لم يعُد يصدقه بالكل، ويدرك جيداً بأنه كان بوسعه أن يتأوه بكيفية أخرى، وبطريقة بسيطة وخالية من التدحرج وتقطيب الوجه بكيفية مشينة، وأنه إنما يُغالي في تصنع ذلك الأنين، بدافع الشرّ والمكر وحدهما. والحال، أن اللذة لا تكمن خبيئة بالضبط، أيها السادة، إلا في هذه المشاعر الواعية والمُهانة بالذات. أي إن لسان حال صاحبنا يقول: «إني لأزعجكم، وأمرّق قلوبكم، وأحرم كل مَن بالبيت من النوم. وإذن، فلتحرموا بالضبط، من النوم! ولتشعروا في كل لحظة وثانية، بأني أتوجع من شدة ألم الأسنان! أعرف أنني لم أعد الآن، ذلك البطل الذي أردتُ أن أكونه، وإنما صرتُ أمامكم مجرد سيد بئيس، **مجرد وغد منحط الهامة والنفس**. إنما ماذا في ذلك؟ فليكن ما يكون! أنا سعيد لكونكم جعلتموني أظهر للعيان على تلك الكيفية. فهل يقزّزكم سماع أنّاتي الصغيرة الوسخة؟ إذن، فلتتقززوا ما شاء لكم! انتبهوا، سأشنف أسماعكم الآن، بواحدة من تلك الأنغام التي ستتقززون لها أكثر... ». أما زلتم لم تفهموا بعد، أيها السادة؟ لا، إنني أرى بأنه ينبغي لكم من دون شك، أن تثقفوا أذهانكم لزمن طويل، حتى تبلغوا حدّ الإمساك بكافة منعطفات تلك اللذة، بالذات. أتضحكون؟ ذلك أمر جيد. بطبيعة الحال، أنا أمزح مزاحاً رديئاً ومقرفاً، أيها السادة، أمزح مزاحاً متقلباً ومشوشاً، تنقصه الثقة. وماذا؟ ولعل السبب هو أني لا أحترم نفسي بنفسي. لكن، كيف سيكون بمستطاع إنسان واع، أن يقدّر نفسه، ويحترمها؟!

٥

أسألكم: هل من الممكن حقاً، أن يواصل المرء احترام نفسه، وإن بقدر ضئيل، حين يكون قد عثر على اللذة، في وضعية انحطاطه وانحداره؟ ليس الشعور الزائف بالندامة هو ما يُملي عليّ ما أقول بهذا الشأن. أضف إلى ذلك، أني كنت أشعر دائماً بالفظاعة، حيال مثل العبارة الآتية: «عفوك، أبَتي. لن أعود من جديد إلى ما فعلته، بالكل»؛ ليس هذا لأني كنت أعجز عن قول ذلك، وإنما لأني ظللتُ على العكس من ذلك ربما، قادراً إلى حدّ كبير على قول ذلك، وفي جميع الظروف والمناسبات أيضاً! وكنت في مثل هذه المناسبات بالذات، أترك نفسي عن سابق إصرار، ليتمّ ضبطها من طرف الآخرين، وهي متلبسة بجريرة أكون أنا بريئاً منها براءة الجنين، الذي خرج لتوه إلى الدنيا؛ أتركها لتضبط، وكأنما ذلك قد حصل معي بالصدفة، وحسب. حينذاك، يتحقق كل الخبث الشديد! وعادة ما كنت أتأثر على إثره، وأتحسّر نادماً على ما فعلت، وأسكب من الدمع سيلاً مدراراً، فتنطلي الخدعة عليّ أنا بالذات، فلا أبدو عندها بالتظاهر أبداً. لقد كان قلبي هو الذي يدفعني إلى أن أصير عنيداً... وفي هذه الحالة، ليس من حق المرء أبداً، أن يؤاخذ قوانين الطبيعة، تلك القوانين بالذات التي طالما جارت عليّ باستمرار، في حياتي كلها. ليس من الجميل أن يتذكر المرء تلك الذكريات، لكنها مع ذلك كانت لحظات مقززة. وبعد ذلك بوقت وجيز، كنت وقد تلبّسَني حنق شديد، أدرك بأن كل ذلك – وأقصد كل مشاعر الحسرة والتأثر والأيمان المغلظة، التي تعد بالانضباط – لم يكن سوى مجرد كذب، أجل، مجرد كذب منغص، ولعبة مسرحية. لسوف تسألونني من

غير شك، عن السبب الذي ظل يدفعني إلى التنكر الزائف، وإلى تعذيب نفسي بنفسي، بتلك الكيفية؟ والجواب هو: أني ظللتُ بحق، أشعر بالملل الشديد لبقائي مكتوف اليدين؛ لهذا ظللتُ أندفع بجسارة وقحة، إلى اللف والدوران والخداع. هذا أمر مؤكد! سلطوا الضوء على ذواتكم قليلاً، أيها السادة، لتفهموا أنفسكم بكيفية أفضل. وحينذاك، ستدركون بأن هذه هي الكيفية التي تجري بها الأمور. لقد كنت أختلق بعض المغامرات اختلاقاً، وأبتدع حياة وهمية أخرى، لأعيش على كل، كيفما اتّفِق. ولكَمْ من مرة حدث لي مثلاً، أن اغتظت بلا سبب معقول، وغضبت هكذا عمداً! وكنتُ في بعض الأحيان، أدرك أنا نفسي، بأن غيظي مجاني، وأني إنما غضبتُ من تلقائي، إلا أن المرء حين يكون على تلك الحال، سرعان ما يبلغ حداً أقصى من الهيجان، يدفعه – وأقسم بشرفي – إلى أن يجد نفسه في النهاية، نكداً بما فيه الكفاية. لقد كنتُ طوال حياتي مدفوعاً إلى خوض تمثيليات من ذلك القبيل، حدّ أني انتهيتُ إلى فقدان السيطرة على نفسي. ثم أردتُ إلى جانب ذلك، ولمرتين اثنتين، أن أجبر نفسي على تجريب مغامرات الحب. أؤكد لكم والله، أيها السادة، بأني تكبدتُ الكثير من الألم. إننا لا نصدق في أعماقنا كوننا تألمنا، ما دامت تلك الأعماق تعج ببعض السخرية، ومع ذلك نتألم بصدق، مثلما ينبغي؛ وقد سكنتني الغيرة، فكنت أغضب، وأفقد صوابي... وكان ذلك كله، أيها السادة، بدافع الضجر، ولا شيء سوى الضجر: ظل الخمول يثقُل على كاهلي، ويسحقني. إن الثمرة المباشرة والشرعية والمحدقة بالوعي هي الفراغ والخمول، وهي شبك اليدين عن عمد وقصد. وقد سبق لي من قبل، أن أومأت إلى هذا. ولا بأس من تكرار ذلك:

إذا كان جميع العفويين والنشيطين من الناس فاعلين، فلأنهم بالتحديد بلداء وأغبياء، ويتصفون بتفكير محدود. وكيف يُفسّر هذا؟ بهذه الكيفية: إنهم – بتفكيرهم المحدود – يأخذون بالعلل المباشرة والثانوية، معتبرينها عللاً رئيسة وأولية؛ ومن ثمة، يُقنعون أنفسهم بأنهم عثروا على الركيزة الثابتة والراسخة التي يقوم عليها نشاطهم، وذلك بطريقة تكون أسهل وأسرع من طريقة غيرهم، فيطمئنون لهذا، ويهدأ بالهم؛ وذلك لعمري هو الجوهري بالنسبة لهم. ذلك أن المرء، كي ينخرط في الفعل، ينبغي له أولاً وقبل كل شيء، أن يطمئن غاية الاطمئنان، وأن لا يُبقي في قرار نفسه على أي ذرة من الشك، مهما قل شأنها. فكيف والحالة هذه، سيتسنى لي أنا أن أطمئن، ويهدأ لي بال، مثلاً؟ أين هي تلك العلل الأولية التي أستطيع أن أرتكز عليها؟ وأين ركيزتي التي قد أستند إليها؟ ثم من أين لي أن آخذ جميع ذلك؟ إنني أنشغل بالتفكير، ومن ثمة يترتب عن ذلك أن كل علة أولية، تستتبع بالنسبة لي مباشرة، علة أخرى أحق بالأولوية من سابقتها، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. ذلكُم هو على وجه التحديد، جوهرُ كل وعي وتفكير. وإننا لنقع مرة أخرى، في هذا إذن، على قوانين الطبيعة. وماذا تكون حصيلة ذلك إذن، في النهاية؟ هي الشيء نفسه دائماً. تذكروا: حدثتكم قبل قليل، عن الانتقام. (إلا أنكم لم تدركوا بالتأكيد، القصد من حديثي). قلت لكم: يسعى الإنسان إلى الانتقام، لأنه يرى أن ذلك من باب العدل والإنصاف. إذن، يكون صاحبنا قد عثر على علّة أولى، على ركيزة أساسية، وفي هذه الحالة تكون تلك الركيزة هي: العدالة. وعليه، يطمئن من كافة النواحي، وينتقم بالتالي بطمأنينة ونجاح، وهو مقتنع بأنه يقيم على فعل شريف

ومنصف. والحال، أنني أنا لا أرى في ذلك أي عدالة تذكر، ولست أرى فيه أي فضيلة من الفضائل، وهو الأمر الذي يستتبع عندي أني إذا ما شرعت في الانتقام، فإن ذلك لن يكون إلا بداع من دواعي الشر، وحسب. بالطبع، قد ينتصر الشرّ عندي على كل شيء، وقد يقضي على كافة شكوكي، ويصلح بالتالي كي أعدّه بنجاح مؤكد، علة أولية ما دام أنه ليس بالتحديد علة. لكن ما العمل، إذا لم أكن حتى شريراً؟ (إذ انطلاقاً من هذه النقطة بالتحديد، كنتُ قد شرعت منذ قليل، في التحدّث إليكم). إن فظاظتي – وبسبب هذه القوانين الطبيعية اللعينة مرة أخرى – لتتفسّخ بكيفية كيميائية. هوب! ثم ها قد تبخر موضوع الفظاظة، وتبخرت معه الدواعي والأسباب، واختفى المذنب؛ وتعتريني حالة شبيهة بمن يتألم من وجع أسنانه، حيث لا دَخْل لأحدٍ في ما يشعر به، وهو ما يعني أن ما من عزاء يكون لي دوماً، سوى الانضباط للمخرج نفسه: تسديد المزيد من اللكمات المؤلمة للجدار. إذن، بما أنّا لم نعثر على العلة الأولى، بفعل المهانة التي انتابنا، ننتهي بالكفّ والعدول عن ذلك. وماذا لو حاولت ترك نفسي منقادة وراء مشاعري، وأنا مغمض العينين، دونما تفكير أو انشغال بالبحث عن العلة الأولى، ممتنعاً ولو للحظة عن تشغيل فكري؟ وماذا لو شرعت في كره أو حبّ الكل – مهما كان الأمر – عوض البقاء مكتوف اليدين؟ إلا أنني قد أشرع في احتقار نفسي بعد الغد، وتلك هي آخر مهلة، لكوني قد انخدعت أنا بالذات، رغم معرفتي المسبقة بالأسباب والدواعي. والنتيجة التي تترتب عن ذلك هي: مجرد فقاعة صابون وخمول. آه، أيها السادة! إن كنتُ أعدّ نفسي ذكياً، فلأن ذلك راجع لكوني لم أقوَ طيلة حياتي وحسب، على أن أبداً ولا

على أن أنهي أي شيء. لنسلّم بأني ثرثار مسالم وغير مؤذ، ثرثار مرهِق مثلنا جميعا؛ لنسلّم بهذا. لكن، ماذا بمقدورنا أن نفعل لتفادي ذلك، إذا ما كانت المهمة الوحيدة والمباشرة لكل إنسان ذكي، هي أن يثرثر، بمعنى أن يجدف بذراعيه في الفراغ؟!

٦

أواه، لو أني كنت خاملاً، ولا أقوم بأي شيء على الإطلاق، بدافع الكسل! رباه، شدّ ما كنت وقتها، سأحترم نفسي! كنت سأحترمها تحديداً، لأني سأتمكن في الأقل، من أن أوصَف بالكسل؛ وسأكتسب في الأقل صفة إيجابية أظهر بها، وسأكون أنا أيضاً متأكداً منها. حينها، قد يسأل سائل: مَن يكون ذلك الشخص؟ فيكون الجواب: إنه شخص كسول؛ ورغم طبيعة هذا الجواب، سيكون سماعي له – بشيطنة – آمراً ممتعاً! لقد كنت سأكسب إذن، تعريفاً إيجابياً، ويمكن أن يُقال عني شيء ما من قبيل «إنه لكسول!».

لكن، مهلاً، أيها السادة! إن ذلك للقبٌ مُستَحَق، ومهمة تُسند، ومسار وظيفي مُميّز! لا تهزؤوا مني، رجاء، فالأمر لكذلك بحق. حينها، كنت سأصير عضواً كامل العضوية في أوّل نادٍ من أندية العالم، وسأنشغل طول الوقت فقط، باحترام نفسي من غير ارتباك ولا حيرة. لقد كنت أعرف رجلاً ظل كل فخره في الحياة، أنه ذواقة أنبِذَة وخمور. وكان يرى ذلك بإيجابية، وكأن في الأمر مزية، ولم يكن يشك فيه على الإطلاق. ثم مات مطمئناً قرير العين، وقد انتشى بالنصر. وكان على حق، بالطبع. أنا – في مثل حالتي – كنت سأختار مساراً

واضحاً: سأكون كسولاً وشرهاً بطريقة غير سوقية: إذ كنتُ سأبدو على سبيل المثال، متناغماً مع كل ما هو جميل وسام. إذن، ما قولكم في هذا؟ أنا شدّ ما حلمت بذلك. في سنّ الأربعين، أجدني مثقل الكاهل بشكل جاد، بفعل ذلك «الجميل والسامي»؛ لكن، إنما حدث هذا معي في نهاية الأربعين، بينما في الحالة الأخرى، آه! في الحالة الأخرى، كل شيء كان مختلفاً. كنت سأجدني – بشيطنة واضحة – مندمجاً في نشاط سيلائم طبعي، وأعني بذلك الآتي: سأصرف حياتي في الارتواء من معين كل جميل وسام. وسأنتهز جميع المناسبات لإفراغ كأسي في شرب نخب الجميل والسامي، حتى ولو لم أكن رقيقاً، ولم أسكب ولو دمعة واحدة من عيني، في البداية. وكنت في الحالة الأخرى، سأغير العالم أجمع إلى ما هو جميل وسام؛ وسأكتشفهما في القذارة الأدعى إلى التقزُّز الكريه، التي لا يتنازع اثنان في مقدار قذارتها. وكنت سأكون شديد البكاء، تنهمر من عيني الدموع في كل وقت وحين، مثل إسفنجة مبللة. ولنفترض بأن فناناً كان سينجز لوحة ما على طريقة غاي[٦] (Gay). حينها، سأسارع – لعشقي للفن الجميل والسامي – إلى شرب النخب في صحة ذلك الفنان. وحين يكتب كاتب ما مثل هذه العبارة: «كما يروق لكل واحد»[٧]، سأسارع للتو – ما دمت أحب الجميل والسامي بالطبع – إلى الشرب، في صحة «من سيروق لنا». وبالمثل كذلك، كنت سأفرض على الناس أن يبادلوني

---

[٦] يُحتمل أن يتعلق الأمر هنا بلوحة **العشاء الأخير** للفنان ن. غاي (N. Gay) (١٨٩٤ – ١٨٣١)، الفنان الروسي ذو الأصل الفرنسي؛ وهي اللوحة التي عُرضت في قاعة: صالون الخريف، سنة ١٨٦٣. إن الواقعية التي عولج بها موضوع اللوحة الديني، قد أثار سجالاً كبيراً على صفحات الجرائد بروسيا. وبعد عرض اللوحة المذكورة بسنوات، وبالضبط في عام ١٨٧٣، كتب دوستويفسكي يقول في مذكراته التي تحمل عنوان: **يوميات كاتب**: «ما ينجم عن مشاهدتنا للوحة... ن. غاي... هو المظهر المخادع والأفكار المسبقة والمتحيزة. والحال أن المظهر المخادع هو الكذب، وليس هناك من مشترك بينه وبين الواقعية»، الأعمال الأدبية الكاملة، الجزء ١١ والصفحة ٧٩، بالروسية.

[٧] عنوان مقالة لتشيتشريدرين (Chtchrédrine) ظهرت في مجلة المعاصر سنة ١٨٦٩، العدد ٧، انظر الأعمال الكاملة، الجزء ٦ من الصفحة ٣٩٣ إلى الصفحة ٤٢٩، بالروسية.

الاحترام، وقد ألاحق كل من لا يحترمني. ولسوف أعيش في سكينة وهدوء، وأموت بكامل الاحتفالية والأبهة؛ آهٍ! إن ذلك لرائع! إنّ روعته لحَقيقية! وعندئذ، سأعفي على بطني، وأتركه يتكور، ويسمن! مثلما سأعفي على ذقني، وأدعه يكبر، ويبرز! وسأعِدّ أنفي إعداداً حقيقياً، كي يترفّع إلى ذلك الحدّ الذي قد يراني فيه كل من يتقاطع معي في الشارع، فيقول في الحال: «هذا – والله – الشخص حقيقي! إنه لشخص من الصنف الإيجابي والحقيقي!». لكُم أن تقولوا ما شئتم، أيها السادة، إنما ما أعذب أن يسمع المرء، في عصرنا الجحود والمنكِر هذا، مثل تلك العبارات التي قد يتفوّه بها الناس، في زهوٍ وخيلاء!

٧

لكن كل هذا ليس سوى مجرد أحلام وردية. أوه! أخبروني، بربكم، من هو أول من أعلن، من هو أول من نادى بفكرة أن الإنسان لا يرتكب الأفعال الشنيعة، إلا لكونه يجهل مصالحه الحقيقية؟ لكنا، بمجرد ما نبصّره، ونفتح عينيه على مصالحه الحقيقية والعادية، حتى يكفّ في الحال عن اقتراف شناعته، ويصير على الفور إنساناً خيّراً ونبيلاً؛ إذ ما دام أنه وعى، واستوعب حدود مصلحته الحقيقية، فإنه سيجد أن مصلحته تكمن بالتحديد، في فعل الخير؛ وإننا لنعلم والحالة هذه، أن ما من أحد سيسير ضدّ مصلحته الخاصة، مع سابق معرفته للأسباب والبواعث[٨]؛ ومن ثمة، فإنّ هذا الإنسان سينساق للضرورة المحضة، إلى فعل

---

[٨] الإشارة هنا إلى مساجلة جمعت الكاتب بمفكر روسى يُدعى تشيرنيتشيفسكى (Tahernychovski)، الذي يؤكد في مقال له بعنوان: «عن المبدأ الأنثربولوجى في الفلسفة»، (١٨٦٠): «وحدها أفعال الخير هي المنتصرة؛ ولا يوسم المرء بالعاقل إلا إذا كان خيّراً، في نطاق كونه طيباً»، **الأعمال الكاملة**، ١٩٥٠، الجزء ٧ والصفحة ٢٩، بالروسية.

الخير؟! أواه، لهذا الطفل الغرّ! أواه، لهذا الصبي الخالص والبريء! إنما متى رأيتم، بربكم، على مرّ السنون والحقب التاريخية، إنساناً يترك نفسه تنقاد بشكل تام، لمصلحته الخاصة؟ ثم ما الذي سنفعله بهذه الملايين من الوقائع، التي تشهد بأن البشر، **عن سابق معرفة بالأسباب والبواعث**، أي رغم إدراكهم لمكمن مصلحتهم الحقيقية، فإنهم يبعدونها عنهم، لتصير من ضمن المستوى الثانوي لانشغالاتهم، كي يندفعوا في اتجاه مسار آخر مختلف، تملأه الأخطار والمصادفات، دون أن تُكرههم على ذلك لا الضرورة القصوى، ولا أي شخص آخر، وكأنما هم يريدون بالتحديد، مجرد الزوغان عن جادة الصواب المهيأة لهم سلفاً، كي يشقوا بعناد وإصرار منهم، طريقاً آخر مليئاً بالعبث والصعوبة، يبحثون عنه على وجه التقريب، في عتمة الظلام؟ إن هذا العناد وهذه الحرية إذن، هما اللذان يغريان هؤلاء، ويمارسان عليهم جاذبية أقوى ممّا تفعله مصلحتهم الخاصة... المصلحة الخاصة؟! وما المصلحة الخاصة، إذن؟ ثم، هل بمقدوركم أيها السادة، أن تحدّدوا لي بدقة متناهية، مكمَن المصلحة الإنسانية بالضبط؟ وماذا سيقع، لو حدث **في بعض الأحيان**، أن أُجْبِر الناس – وليس إن كانوا قادِرين من تلقائهم – على طلب الأذى والضرر، عوض المصلحة الخاصة؟ إذ لو كانت الأمور تحدث بهذه الكيفية، لو أنها كانت ممكنة بهذه البساطة، لانهارت الضوابط والأسس الأخلاقية، أو لربما تبخرت. إذن، ما قولكم في هذا؟ أتظنون أن بمقدور ذلك أن يحدث؟ أتضحكون؟ إذن، فلتضحكوا كما تشاءون، أيها السادة، إنما أجيبوني: هل بالمُستطاع إحصاء مصالح الإنسان بدقة لا تشوبها شائبة؟ أليس ثمة من مصلحة أخرى، لم يقع تصنيفها قط، في أي جرد أو

لائحة؟ وبتعبير أدق: أليس هناك من مصلحة إنسانية لا تستطيع الدخول في مصنف من مصنفات الأخلاق المعروفة والمتداولة؟ ذلك أنكم بنيتم، مثلما أرى، مصنفاتكم الخاصة بالمصلحة الإنسانية، وفق معدلات تتماشى مع المعطيات الإحصائية، وقواعد العلوم الاقتصادية. إذ إن ما تسمونه «مصالح»، ليس سوى الرخاء، والغنى، والحرية، والسكينة، وإلى آخره، وإلى آخره؛ بحيث إن كل من قد ينزاح عن قائمتكم – بصراحة ومعرفة مسبقة بالأسباب والبواعث – سيكون بالنسبة إليكم، وبالنسبة إليّ أنا كذلك – وهذا بديهي – إما ضالاً أو أحمق؛ أليس كذلك؟ لكن مع هذا، ثمة شيء يثير استغرابي، سأصوغه بهذه الطريقة: كيف يحدث أن جميع أولئك الإحصائيين، وجميع أولئك الحكماء، وجميع أولئك الأصدقاء المُعِزين للنوع البشري، يُسقطون دائماً وأبداً مصلحة ما، في الوقت الذي يجرِّدون فيه المصالح الإنسانية؟ إنهم لا يُدخلونها في اعتباراتهم الحسابية؛ والحال أن كافة العمليات الحسابية ترتبط بتلك المصلحة بالذات. فقد يكفي وضعها في الاعتبار، وإدراجها ضمن قائمة. لكن الكارثة، كل الكارثة، تكمن في هذا: أن هذه المصلحة المُرْبِكة والمُشوِّشة لا تندرج في أي مصنف، ولم تُسجّل في أي قائمة من القوائم. خذوا مني هذه، مثلاً: لدي صديق... ليس صديقي أنا وحدي، أيها السادة، وإنما هو صديقكم أيضاً! ومن ذا الذي لا يعدّه صديقاً له، إذن؟! لسوف يعرض أمامكم هذا السيد، في جمل طنانة وواضحة، حين يتهيأ للقيام بشيء من الأشياء، كيف ينبغي له التصرف وفق قوانين العقل والحقيقة، بل ليس هذا وحسب، وإنما سيحدّثكم بعاطفة جياشة، وبحرارة زائدة عن اللزوم، عن المنافع الإنسانية والمصالح

العادية والطبيعية للإنسان؛ ولسوف يسخر من بلادة الأغبياء، الذين يتصفون بقِصَر النظر، ولا يفهمون شيئاً يُذكر، لا بشأن مصالحهم الخاصة، ولا بشأن قيمتها الأخلاقية الحقيقية؛ لكن ما أن تمضي على كلامه خمس عشرة دقيقة بالتمام والكمال، حتى تقفوا على التناقض الواضح والبيّن مع ما سبق أن قاله، دون أي سبب ظاهر، ولا أي علة طارئة ومستجدة، وإنما بدافع نوازعه الداخلية فقط، التي تعدّ أقوى من كافة الاعتبارات المحترمة للمصلحة؛ بمعنى أنه سيذهب – ببساطة – عكس ما انتهى إليه قبل قليل: عكس قوانين العقل، ومصلحته الخاصة، وباختصار: عكس كل شيء... وينبغي لي أن أنبهكم بأن صديقي هذا هو شخصية جماعية مشتركة، ومن ثمة سيكون من الصعب للغاية أن نتهم شخصية فردية واحدة وحسب. ها إننا قد بلغنا الغاية المقصودة، أيها السادة! ألا يوجد ثمة شيء ما يثمنه كل إنسان، بكيفية أكبر ممّا يثمّن مصالحه الغالية، أو (حتى لا نخالف المنطق هذه المرة) أليس ثمة مصلحة أشد نفعاً من بقية المصالح الأخرى (تلك التي لم يتم احتسابها بالضبط، وقد سبق لنا أن تحدثنا عنها)، والتي باسمها قد يكون الإنسان – إن لزم الأمر – على استعداد للوقوع في التناقض مع جميع القوانين والشرائع؛ أي للوقوع في التناقض مع العقل والشرف والسكينة والرخاء، وبعبارة واحدة: يكون على استعداد لمناقضة كافة هذه الأشياء الحسنة والسامية والجميلة، شريطة أن يحقق تلك المصلحة وحسب، التي تحظى عنده بالأولوية، وهي المصلحة الأكبر قيمة من كافة المصالح الأخرى عنده، والتي يثمّنها غاية التثمين.

– طيب! على كل حال، الأمر يتعلق بمصلحة؛ ستقولون لي مقاطعين استرسالي. إنما مهلاً أيها السادة: لسوف نتواضح بشأن هذا، فيما بعد. ثم إنّ المهم في هذه المسألة، ليس هو اللعب بالألفاظ، وإنما معرفة أن المصلحة المتحدّث عنها، تتميز بهذه السمة الملفتة للنظر، وهي أنها تهدم جميع تصنيفاتنا، وتقلب بانتظام رأساً على عقب، جميع الأنساق التي يبنيها أصدقاء النوع الإنساني، في أفق تحقيق سعادة هذا النوع بالذات: بمعنى أنها تبدّد باختصار جميع الأشياء، وتقوّضها تقويضاً حقيقياً. لكن قبل أن أضفي على هذه المصلحة صفة تسمُها، أودّ تعريض نفسي لمخاطرة؛ إني لأتجرأ بجسارة إذن، وأعلن بأن جميع تلك الأنساق والنُظم الجميلة، وكافة تلك النظريات التي تسعى إلى أن تشرح للإنسانية جمعاء، مَكْمن مصلحتها الحقيقية والطبيعية والعادية، بغية أن تصير على الفور فاضلة ونبيلة، حين تتجه بالضرورة صوب اكتساب تلك المصالح؛ إنّ كل ذلك ما هو عندي، إلا مجرد معادلات منطقية. أي، نعم: معادلات منطقية صرفة! لأن دعم هذه النظرية التي تدعو وحدها، إلى تهذيب النوع البشري، بالاستناد إلى نظام مصالحه الخاصة، هو ما يعادل تقريباً، في وجهة نظري... الإقرار مع بوكل (Buckle)، بأن الحضارة تهذب الإنسان، وتجعله من ثمة أقل تعطشاً للدماء، وأقل اندفاعاً لخوض الحروب[٩]. إن المعادلات المنطقية تحديداً، هي التي قادت بوكل إلى هذه النتيجة بالضبط. إلا أن الإنسان كثيراً ما يتعلق بمحبة الأنساق المنطقية والاستدلالات التجريدية، حتى إنه ليكون مستعداً لقلب الحقائق عن عمد، وإغماض عينيه وسدّ أذنيه عن

[٩] هذه الفكرة قد توسع في عرضها ومناقشتها المؤرخ الإنجليزي بوكل (Buckle) (١٨٢١ – ١٨٦٢). في كتابه: تاريخ **الحضارة في إنجلترا**، الذي ترجم إلى اللغة الروسية، ونشر ما بين عامي ١٨٦٤ و١٨٦٦، فلقي لدى الإنتليجنسيا الروسية المتقدمة، صدى بعيدًا.

سابق إصرار، بغية تبرير منطقه وحسب. وإذا كنت قد اخترت هذا المثال، فلأنه واضح للعيان بكيفية خاصة. لكن، التفتوا – رجاء – من حولكم، وانظروا! سترون ولا شك ودياناً من الدماء، لا تزال تجري في حبور عظيم، وكأنما هي وديان من الشمبانيا! هكذا هو قرننا التاسع عشر اليوم، قرن بوكل بامتياز! انظروا إلى النابليونَيْن: الأكبر السابق، ونابليون أيامنا الراهنة. وانظروا كذلك إلى ما يجري في أميركا الشمالية، أي في تلك الولايات المتحدة اتحاداً أبدياً! ثم انظروا أخيرا إلى شليزفيغ هلشتاين[10] (Schlewig-Holstein) المثير للسخرية!

... وإذن، ما الذي هذّبته الحضارة؟ إن المدنية لا تنمّي فينا فقط، غير تفاوت الأحاسيس وتعارضها... ولا شيء آخر. وقد ينتهي هذا التفاوت والتعارض في الأحاسيس ذات يوم، إلى الدفع بالإنسان نحو لَعْق الدماء، فيجد فيها لذة لا تضاهيها لذة، بل حتى هذا حدث من قبل. ألاحَظتم بأن أرهف سفّاكي الدماء، ما كانوا دوماً وعلى وجه التقريب، إلا سادة متحضرين ومهذبين إلى أقصى حدّ يصعب من دونهم، أن يبلغه جميع أشباه أتيلا (Attila) وستينكا رازين (Stinka Razine)، ممن تعرفون؟! وإن كان هؤلاء لا يظهرون لعيانكم، بالشكل البيّن الذي يظهر لها آتيلا وستينكا رازين، فلأنهم صاروا بالضبط عملة رائجة، بحيث إنكم بقدر ما تصادفونهم بكثرة، بقدر ما إن عيونكم قد تعوّدت عليهم. وأقل ما يمكن قوله هو أن المدنية، إن لم تكن قد جعلت الإنسان أشد سفكاً للدماء، فإنها جعلت في الأقل تعطشه للدم، يبدو أكثر مكراً ومخاتلة وجُبناً ممّا كان عليه الحال، في السابق. إذ إن

---

[10] الإشارة هنا إلى حرب انفصال منطقة واقعة تحت حكم أحد الدوقات، بين بروسيا والنمسا سنة ١٨٦٣ – ١٨٦٤.

الإنسان في القديم، لما كان يسفك الدماء بكيفية واضحة وعلنية، كان يرى في ذلك فعلا عادلا ومنصفاً، فكانت روحه لذلك تطمئن، وتهدأ؛ أما اليوم، فقد صرنا بسفكنا المتواصل للدماء، ونظرتنا إليه بتقزز، نتعاطى ذلك أكثر من السابق. فما هو الوضع الأفظع؟ لكُمْ أن تفصلوا في الأمر. قيل إن كِليوبترا (واسمحوا لي أن أستمدّ هذا المثال من التاريخ الروماني)، كانت تستلذ بغرز إبر من الذهب في نهود إيمائها وعبيدها، وكان استلذاذها يتزايد، كلما سمعت صراخ هؤلاء، ورأت تقلّص عضلات صدورهم ووجوههم. ستقولون لي بأن ذلك قد وقع في حقبة تعدّ نسبياً بربرية؛ وبأننا نعيش حقبة بربرية كذلك، لأننا لا نزال إلى اليوم أيضاً (ودائماً بنسبية واضحة في الحديث)، نغرز الإبر؛ وبأن الإنسان لا يزال – رغم أنه يدرك الأمور في بعض الأحيان، إدراكاً أوضح ممّا ظل سائداً في الحقبة البربرية – بعيداً عن التعوّد على كيفية التصرف، وفق ما تُمليه عليه العلوم وضوابط العقل السليم. ورغم هذا، فإنكم واثقون من أنه سيصل إلى التعوّد على ذلك، حينما سيكون قد فقد تماماً بعض العادات السيئة القديمة، حين سيكون العلم والعقل السديد قد قوّما الطبيعة الإنسانية بكيفية جذرية، ووضعاها على السكة القويمة. إنكم لواثقون من أن الإنسان، في هذه اللحظة بالذات، سيكف عن خداع نفسه بنفسه عمداً، وسيصل رغما عنه إلى رفض الانفصال الحاصل بين إرادته ومصالحه الطبيعية العادية، بل أكثر من ذلك: إنكم لتقولون بأن العلم لحظتها، سيُعلّم الإنسان (رغم أن هذا في نظري ضرب من الترف)، بأنه لا يملك حقاً، لا إرادة ولا نزوة، إلى جانب أنه لم يكن يملك في يوم من الأيام، أي شيء من ذلك على الإطلاق، وبأنه ليس

شيئاً آخر، سوى نوع من سدّادَة الأرْغن أو ملمس صغير للبيانو، وبأن ثمة – فضلاً عن ذلك – قوانين الطبيعة؛ بحيث إن كافة ما يفعله ليس بفعل إرادته، وإنما يحدث ذلك من تلقاء ذاته، طبقاً لتلك القوانين الطبيعية. ونتيجة ذلك، يكفي أن تُكتَشَف تلك القوانين الطبيعية، لكي يكفّ الإنسان عن الاستجابة – تبعاً لذلك – بأفعاله، فتغدو الحياة سهلة بشكل رائع. في هذه اللحظة بالذات، ستكون الأفعال الإنسانية كلها بالطبع، قد صنّفت وفق تلك القوانين الطبيعية، تصنيفاً رياضياً يجعلها تبدو تقريباً مثل جداول لوغاريتمية، إلى حدود رقم ١٠٨,٠٠٠، وستسجّل في تقويم نبوئي؛ أو لنقل بصيغة أفضل، بأنه سيكون في المقدور إصدار منشور محدّد القصد، من صنف معاجمنا الموسوعية الراهنة، سيعين فيه كل شيء برمز من الرموز، وفيه ستُحتسب جميع الأمور بعناية فائقة.

في هذه اللحظة بالذات (وأنتم دائماً، من يتكلم)، سنشهد قيام علاقات اقتصادية جديدة، معدّة بعناية فائقة هي أيضاً، ومحسوبة بدقة رياضية كبيرة، بحيث سيشاهد المرء اختفاء كافة المشكلات الممكنة في رمشة عين، لهذا السبب البسيط الذي يكمن إجمالاً، في أن تلك المشاكل ستكون قد استوفت حقها من جميع الإجابات الممكنة. في هذه اللحظة بالذات، سيظهر للعيان قصر البلور[١١] وقد شيّد. في هذه اللحظة بالذات... سنرى الطائر الأزرق أو طائر الكاغان[١٢] قادماً، يصفق بجناحيه. بالتأكيد، ما من أحد يمكنه أن يضمن بأي شكل من

[١١] الإشارة هنا إلى رواية تشيرنيتشيفسكي التي تحمل عنوان: **ما العمل؟** التي يصف فيها المؤلف عمارة جميلة جداً مبنية من «الحديد والبلور»، ويرسم فيها ملامح الحياة الاشتراكية في المستقبل (الحلم الرابع لفيرا بافلوفنا).

[١٢] طائر النار كما في التقليد التتري.

الأشكال (وأنا هذه المرة، من يتكلم)، بأن الحياة **حينئذٍ**، لن تكون قاتلة بسأمها (إذ ما الذي سيتبقى للمرء أن يفعله، حين يكون كل شيء قد حُدّد سلفاً، تحديداً محسوباً؟!)، وإنما كل شيء فيها سيبقى قابلاً لحساب العقل. بالتأكيد، لكَم يمنعنا السأم من الإقدام على الخلق والابتكار! إذ الضجر هو الذي يحمل المرء على غرز الإبر الذهبية في أجساد الآخرين، وكافة الأمور الأخرى إنما الضجر هو الذي يحملنا على ارتكابها. إلا أن هذا ليس هو أفدح الأشياء. ذلك أن السيئ في الأمر (وهنا، ما زلت أنا من يتكلم)، هو أننا سنفرح في تلك اللحظة بالذات، لكوننا عثرنا على هذه اللعبة: الوخز بالإبر! إذ إن الإنسان غبي، وغبي بشكل مدهش. أو إنه ليس بالأحرى غبياً بالكل، إلا أنه عاق عقوقاً يستحيل معه أن نجد من هو أشد عقوقاً منه. أنا على سبيل المثال، لن أجد ما يدهش، إن ظهر هكذا ودون سابق إشعار، وسط مملكة ذلك العقل المتسيّد، سيد نبيل له ملامح تخلو من الأناقة الفاقعة، أو بملامح – والتعبير هنا أصح – ناكصة وساخرة، وقد وضع يديه علي كاشحيه، وفتح فمه يقول لنا: «هيه، ما قولكم أيها السادة! في أن نجعل العقل يحل عنا، ويتيه مرة واحدة وإلى الأبد، قَصْد تحقيق غاية واحدة وهي: البعث بكافة جداولكم اللوغاريتيمة إلى الشيطان، واستئناف الحياة وفق رغبتنا الخرقاء؟!». ولن يكون هذا مع ذلك بالشيء المهم، إلا أن المثير للنكد هو أن من المؤكد، أن هذا السيد سيجد له بالضرورة، بعض المريدين: لقد فُطِر الإنسان على هذا الطبع. ومردّ ذلك باعث أخرق، لا يسترعي أي انتباه يُذكر، وهو أن الإنسان بالضبط، وكيفما كان، ظل ولا يزال يعمل وفق هواه ورغبته، وليس وفق ما يمليه عليه العقل والمصلحة؛ ذلك أن

رغبتنا قد تتناقض مع مصلحتنا؛ وقد **ينبغي علينا إيجابياً** في بعض الأحيان، أن نترك رغبتنا تتناقض مع مصلحتنا (وهذه فكرة من أفكاري أنا). إن في رغبتنا الحرة والخاصة، وفي نزواتنا الحرة، وحتى شديدة الهياج البالغ حدّ الجنون، إن في ذلك بالضبط تكمن تلك المصلحة شديدة الفائدة والمنفعة، التي لم يقع احتسابها، ولم تخضع لأي تصنيف، والتي تتحطم بسببها الأنساق والنظريات باستمرار. فمن أين استمدّ جميع حكمائنا فكرة كون الإنسان قد ظل في حاجة إلى إرادة طبيعية وفاضلة؟ إنّ ما يحتاج إليه الإنسان لا يعدو أن يكون شيئاً واحداً: إرادة **مستقلة**، مهما كلّف ذلك الاستقلال من ثمن، ومهما نجمت عنه من عواقب ونتائج. طيب، ولا يعلم غير الشيطان بأن الإرادة؛ هي ...

٨

– ها! ها! ها! لكن الإرادة – في الواقع – لا وجود لها! ستقولون، مُقاطعين مقهقهين. فقد توصّل العلم في اللحظة الراهنة، إلى الكشف عن الإنسان وتشريحه، إلى أن صرنا نعرف الآن، بأن الإرادة أو ما يُسمّى بحرية الاختيار، ليس شيئاً آخر غير...

– لحظة من فضلكم، أيها السادة! لقد نويتُ أنا نفسي البدءَ بهذه الكيفية. وأعترف أنكم أرعبتموني. نويت أن أهتف بالتحديد، قائلاً بأن هذه الإرادة لا يعلم في الواقع، غير الشيطان وحده لأي شيء تخضع، وبأنها... ثم تذكرتُ العِلمَ مجدداً، و... وخضعتُ للصمت بعدها. وفي هذه اللحظة بالذات، تدخّلتم. إنما لو استطعنا في يوم من الأيام حقاً، أن نكشف بشكل

جدي ونهائي، عن الصيغة التي تتخذها جميع نزواتنا وإراداتنا، وأقصد بذلك جميع ما تخضع إليه، وكافة القوانين التي تتحكم في ولادتها، وكيف تتكاثر بالضبط، وكيف تنتشر، وإلى أي شيء تسعى، سواء في هذه الحالة أو تلك، إلى آخره، إلى آخره... بمعنى أننا لو استطعنا الكشف عن صيغة رياضية حقيقية لكل ذلك؛ لكنّا حينئذٍ... محتملٌ حينها أن يكفّ الإنسانُ فوراً عن التفكير، أو من المؤكّد أنه سيكفُّ حتى عن التفكير. وإذن، أي لذّة سيجدها الإنسان حين يرغب، طبقاً لجدول حسابيّ مضبوط سلفاً؟ وليس هذا كل شيء: إذ قد يتحول في الحال، من وضع الإنسان الذي كان عليه، إلى مجرّد سدادة أرغن، أو شيء من هذا القبيل؛ إذ ماذا عساه أن يكون، دون رغبة؟! دون رغبة ولا إرادة؟! ماذا عساه أن يكون دون ذلك، سوى سدادة أرغن؟! فما قولكم إذن، في هذا؟ أتُخضِع الحظوظَ التي من الممكن أن يحدث بها هذا، لعملية حساب؟

– همْ... احسموا في القضية: إن رغباتنا في أغلب الأحيان هي رغبات خاطئة، لأننا نخطئ التقدير بشأن ما قد ينفعنا منها، وما قد يصلح. فإن كنا نرغب أحياناً في القيام ببعض الحماقات الخالصة، فإنما لأننا نرى – بغباء – أنها الطريق الأيسر لتحقيق مصلحة نافعة، ومحسوبة العواقب سلفاً. طيب، حين نكون قد شرحنا كل شيء، ووزعنا على الأوراق كل شيء، توزيعاً يرتهن للحساب الرياضي (وهو الأمر الممكن جداً، لأنه قد يكون من السخيف وغير المعقول، أن يصدق المرء مسبقاً بأن بعض القوانين الطبيعية ستبقى مجهولة من طرف الإنسان)؛ حينها، سيكون ما نسمّيه رغبات، قد توقف بحكم القوة عن الوجود، لأن الرغبة

إن خضعت في يوم ما للعقل خضوعاً كلياً، فإننا سنفكر طبعاً بالعقل، لكنّا سنكون قد توقفنا عن الرغبة، لهذا السبب الذي هو عدم قدرتنا إجمالاً، على الحفاظ على عقلنا مثلاً، ونحن نرغب في الوقت نفسه، في القيام بسخافات؛ إننا لا نستطيع السير هكذا – وبمعرفة مسبقة بالبواعث والأسباب – عكس رجاحة العقل، ونحن نريد في الآن نفسه، الأذى والسوء لأنفسنا... وبما أنه سيكون بمستطاع كافة الرغبات والبراهين العقلية حقيقة، أن تخضع لحساب مسبق، لأنه سيحل علينا يوم بالضبط، ستُكتشف فيه القوانينُ المتحكمة في ما يُسمى – ولست أمزح في هذا الشأن – بحرية الاختيار؛ فإن شيئاً من قبيل جدول الحساب سيوضع رهن إشارتنا ربما، وسنأخذ فعلاً في الرغبة طبقاً لمقتضيات ذلك الجدول. فإن حُدِّد لي بطريقة رياضية مثلاً، وبُرهِن لي يوماً، بأني كلما سَخِرتُ من أحدهم، بمدّ أصبعي الوسطى في اتجاهه، فلأنه ما كان بوسعي تحديداً أن أفعل غير ذلك، وما كان بمقدوري أن أمدّ في اتجاهه بالضرورة، أصبعاً آخر غير الوسطى؛ فما الذي سيتبقى لدي إذن، حينها، من رصيد الحرية، لا سيما إن كنت متعلماً، وحاصلاً على شهادة كبرى؟! في هذه الحالة، سيكون بمستطاعي إحصاء حياتي، لثلاثين سنة مسبقة؛ وباختصار: إن تحققتْ تلك الأمور على ذلك النحو، فلن يتبق لنا ما سنفعله نحن الآخرين، لن يكون علينا سوى القبول بالأمر الواقع مهما كان، والإذعان له. على العموم، إن ما ينبغي القيام به دون تعب ولا كلل، هو أن نكرّر على مسامعنا بأننا في تلك اللحظة بالذات، وفي خضم تلك الظروف، لا تطلب منا الطبيعة أن نبدي رأياً، وإنما ينبغي القبول بالشيء الذي حبتنا به الطبيعة كما هو، لا كما قد يتصوره خيالنا؛ وبأننا إن

كنا نصبو حقاً، إلى الوصول نحو جدول أو تقويم، وإلى... أجل إلى الإنبيق نفسه، إذن، فما العمل حينها؟ ينبغي أن نقبل بالإنبيق مثلما هو أيضاً، وإلا سيُقبَل به دون أن تُطالب بإبداء الرأي بشأن ذلك...

– هكذا، إذن! إنما تكمن **العقدة** هنا، بالضبط. اعذروني إن كنتُ قد تفلسفت، أيها السادة؛ إنما لا تنسوا: هي أربعون سنة من حياتي قضينها في القبو! لذا، اتركوني أخفِّف عن أهوائي قليلاً. إن العقل مثلما ترون يا سادة، شيء جميل ورائع، وهذه حقيقة لا تقبل التفنيد. إنما ليس العقل دائماً وأبداً سوى العقل، ولا يُرضي غير ملكة الإنسان العاقلة وحسب، في حين أنّ الرغبة هي مظهر الحياة في مجموع تجلياتها، وأعني بذلك مجموع حياة المرء، بما في ذلك عقلانيته وما يستبدّ به من أهواء. ومهما بدت حياتنا – ضمن هذا المظهر بالذات – سخيفة وساقطة أحياناً، فإنها على كلٍّ حياةٌ، وليست مجرد خلاصة لعملية الجذع التربيعي. خذوا مثلاً، أنا لا أرغب في الحياة بالطبع، إلا من أجل إرضاء جميع ملكاتي الحية، وليس من أجل إرضاء ملكة التفكير العقلاني لدي فحسب، أي ما نسبته عشرين في المائة من مجموع ملكاتي الحية. إذ ما الذي يحيط بمعرفته العقل؟ إنه لا يقدر على المعرفة، إلا إذا ما توفر له الوقت الكافي لكي يتعلم (وثمة أشياء لن يدركها العقل بالمرة، وهذا ليس عزاء وسلواناً، وإنما لمَ لا يُقال؟!)؛ في حين أن الطبيعة الإنسانية تتصرف في مجموعها، وفق كل ما تملكه من وعي أو لاوعي، ومهما أخطأت أو سقطت في الهفوات، فإنها مع ذلك تحيا. أشكّ أيها السادة، في أنكم لا تنظرون إليّ إلا نظرة إشفاق؛ إذ إنكم تردّدون على مسمعي بأن الإنسان المتنوّر والمثقف –

أي مثلما سيكون عليه باختصار، حالُ الإنسان في المستقبل – لن يرغب عن سابق معرفة بالدواعي والأسباب، في شيء يتنافى مع مصلحته الخاصة، وبأن المسألة محسومة رياضياً. أنا أشاطركم الرأي تماماً: إنها محسومة رياضياً. إنما أعود فأكرّر على مسامعكم للمرة المائة، بأن ثمة حالة واحدة، وأقول واحدة، يستطيع فيها الإنسان عن عمد وسابق معرفة واعية، أن يرغب في شيء مؤذٍ وسخيف وحتى شديد السخافة. أي حالة؟ إنها حالة امتلاك **حق الرغبة** في شيء شديد السخافة، وفي أن لا يعوق نفسه أو يعرقل سعيه ذاك، بالاضطرار إلى أن لا يختار غير الأشياء الذكية. ذلك أنّ هذه البلاهة القصوى، وهذه النزوة الشخصية هما ربما أيها السادة، ما بوسع الأرض حقاً أن تمنحنا، على أساس أنهما من الأمور الأشدّ منفعة لنا، نحن الآخرين، خاصة في بعض الحالات. ولربما كانت تلك المنفعة بشكل خاص، أكبر من سائر المنافع الأخرى، حتى وإن تسبّبت لنا بشكل لا يقبل الجدال في الضلال، والوقوع في التناقض مع الخلاصات والنتائج السليمة جداً، التي قد ينتهي إليها عقلنا؛ لأن تلك المنفعة تصون أهم وأغلى ما نملكه، وأعني شخصيتنا وفرادتنا. هناك مثلاً من يؤكّد بأن تلك المنفعة هي بحق، أغلى ما لدى الإنسان؛ وإن شاء بطبيعة الحال، استطاعت الرغبة أن تتلاءم عنده مع العقل، لا سيما إن لم يغالِ في الانسياق معها، ولم يماشها إلا باعتدال؛ وهذا السلوك نافعٌ، وخليقٌ في الوقت نفسه بالمدح والتقريظ، حتى في حالات معينة، لكن الرغبة في أغلب الأحيان، وحتى في كثير من الحالات، تأبى أن تبقى في وضعية الخلاف النهائي مع العقل، و... و... وهل تعلمون أن هذا مهم أيضاً، وخليق في حالات معينة بالمدح والتقريظ

الكبيرين؟ لنسلِّم بأن الإنسان يا سادة، ليس سوى مجرد غبي (وهذا الأمر لا يمكننا حقيقة، أن نزعمه في أي حال من الأحوال، في الأقل لهذا السبب الوحيد الذي هو أن الإنسان إن كان غبياً، فمَن ذا الذي سيكون حينها ذكياً، ويحلّ محله؟!). إلا أنه ليس غبياً، إنما هو بشكل فظيع كائن عاق! عاقٌّ بكيفية ملفتة للانتباه. وإني لأعتقد كذلك بأنّ أفضل تعريف يمكننا أن نعرّف به الإنسان هو: أنه كائن عاقٌّ بساقيْن. إلا أن ذلك ليس هو كل شيء، وليس بعدُ كل عيبه الرئيس. إنّ الأفظع هو سوء سيرته الثابت والدائم، منذ عهد الطوفان الأكبر، وإلى عهد شلوسفيغ هوليستيواز (schleswig-holsteinoise) من تاريخ المصير الإنساني. وإن قلنا سوء سيرته الثابت والدائم، فإن ذلك يستتبع بالضرورة قلة حكمته؛ إذ نعرف منذ زمن طويل بأنّ هذا الأمر، لا يكون سوى ناجم عن الأمر الآخر. حاولوا إذن، أن تلقوا نظرة على تاريخ الإنسانية! وحينذاك، ماذا ترون؟ هل ترون بعض الرفعة؟ ليكن الأمر كذلك! تمثال الجبار روديس وحده، مثلاً، شيء عظيم! لذلك، ليس من المجاني أن يتبنّى بعض الناس، بحسب السيد أنايفسكي[١٣] (Anaievski)، فكرة كون ذلك التمثال من صنع البشر، في حين يدافع بعضهم الآخر على أنه صنيع الطبيعة ذاتها. وهل ترون بعض التنوع؟ ليكن كذلك! إنما يكفي أن نمعن النظر في لباس الأبهة الرسمي وحده، سواء العسكري منه أو المدني – لأن المدنيين يتزينون أيضاً بأبهة، من خلال لباس الوظيفة الرسمي، وهو ما يثير الحنق – وذلك عبر سائر القرون والحقب، ولدى كافة الشعوب، لكي لا يبقى أي مؤرخ

[١٣] السيد أنايفسكي (Anaievski) (١٧٨٨-١٨٨٦)، كاتب روسي رديء، ظل موضوعاً للهزء والسخرية البذيئة، من قبل الصحافيين، ما بين سنتي ١٨٥٠و ١٨٧٠.

صامداً، إزاء ذلك التنوع الوفير. وماذا ترون كذلك؟ بعض الرتابة؟ ليكن كذلك! إننا لا نمارس أكثر من الاقتتال في ما بيننا، نقتتل اليوم، ومن قبل اقتتلنا، وبعده كذلك... لذا، أقرّوا لي بأن حتى في هذا الاقتتال، ثمة القليل من الرتابة! بمستطاعنا أن نقول بكلمة مختصرة، كل شيء عن التاريخ العالمي، أن نقول كل ما قد يتبادر للذهن، من قبيل الخيال المفرط. إنما الشيء الوحيد الذي لا يسعنا قوله عن ذلك التاريخ، هو أنه لم يكن قط تاريخ حكمة وعقل. لا شك أنكم قد تتلعثمون في البدء، حين تودّون الحديث عن هذا التاريخ بتلك الصفة. وها ما قد يحدث لكم من انزعاج، في كل وقت: في كل لحظة من لحظات الحياة، إلا ونلتقي بأناس عقلاء وذوي سير حسنة، بأناس حكماء، وبأصدقاء النوع الإنساني، الذين يضعون نصب أعينهم تحديداً، السير ما أمكنهم ذلك في الحياة، باستقامة وحكمة، وبعبارة أخرى: إنارة الطريق لأقربائهم وذويهم، كي يبرهنوا لهم بأننا نستطيع حقيقة، أن نعيش بحكمة وعقل فوق هذه الأرض. ثم ما الذي يحدث بعد ذلك؟ هذا الأمر معروف جداً: عديدون هم أولئك الذين يخونون هم بالذات أفكارهم – إن عاجلاً أو آجلاً – في آخر حياتهم، بالتورط في فضائح ماجنة للغاية. أما الآن، فاتركوني أسألكم عمّا يمكن أن ننتظره من الإنسان، هذا الكائن الذي فُطِر على مثل هذه الصفات العجيبة والغريبة جداً؟ أغدقوا عليه من جميع خيرات الأرض ما شئتم، وأغرقوه في لجّة السعادة ما وسعكم، حتى لا يظهر منه على السطح سوى بعض الفقاعات الطافية فوق الماء، وكأن لا شيء هناك غير الماء؛ ولبوا حاجاته المادية بوفرة ما بعدها وفرة، إلى أن يشبع فلا يعود بحاجة إلى أي شيء آخر غير النوم، والتهام

الحلوى، وتدبير الأمور التي تكفل للتاريخ العالمي استمراريته... وإذن، حتى مع هذا، حتى مع تحقق كل هذا، فإنه سيجد بدافع عقوقه وحسب، وبدافع مكره، سيجد الوسيلة الكفيلة ليحتال عليكم، ويُذيقكم من خسَته ونذالته. وسيبلغ به الأمر حدّ المجازفة بكعكاته، والأمل في أخطر المصائب والويلات عمداً، واشتهاء السقوط في العبث الأشد تناقضاً مع مصالحه الاقتصادية، لا لشيء آخر سوى مزج الكثير من الحكمة الإيجابية بعنصر من خياله الغرائبي الضارّ. إن رغباته الغرائبية هذه بالضبط، وحماقته الأشد ابتذالاً، هي ما سوف يطمح إلى الحفاظ عليه كحقّ خاص، ولغاية واحدة هي: التأكيد لنفسه (كما لو كان ذلك أمراً شديد الضرورة!)، بأن البشر ما زال بشراً، وليس مراقن في لوحة مفتاح البيانو، تعزف عليها – وبأناملها الخاصة – قوانين الطبيعة بالذات، لكنها تهدّد باستطالة العزف، إلى أن تحين اللحظة التي لن يستطيع المرء معها الرغبة في شيء آخر، خارج دائرة التقويم الرياضي. وليس هذا كل شيء: لنفترض بأنه ليس حقاً حتى مرقن في لوحة مفتاح البيانو، وبأننا برهنا على ذلك بواسطة العلوم الطبيعية والرياضيات؛ في هذه الحالة أيضاً، سيرفض الإنسان الإذعان للعقل، وسيتعاطى عن عمد، وبدافع عقوقه الخالص، لبعض الأعمال المناقضة للحكمة، ولا شيء آخر: كي تكون له في الواقع، الكلمة الأخيرة. وإن انعدمت لديه الحيلة والوسيلة، سيخلق الخراب والسديم، وسيبتدع آلاف الآلام. ولكن ستؤول الكلمة الأخيرة إليه! وسيصب لعنته على العالم، وبما أن اللعنة خاصية مركوزة في طباع الإنسان (وهذا هو الامتياز الذي يسِمُه بشكل رئيس، ويميزه عن الحيوانات)، فإنه سيحقق بلعنته وحدها أهدافه،

بمعنى إقناع نفسه بأنه بحق إنسان، وليس مرقناً في لوحة مفتاح البيانو. وإن كنتم مقتنعين بأن هذا نفسه – وأقصد السديم، والخراب، واللعنة – بمقدورنا أن نتوقعه بشكل تام، تبعاً لجدول حسابيّ، إلى حدّ أن هذا الجدول وحده، بفضل إمكانية الحساب المُعدّة سلفاً، سيوقف كل شيء، وسوف ينتصر العقل على كل ما عداه؛ فإن الإنسان سيصبح في هذه الحالة، مجنوناً عن عمد، حتى يتنصّل بشكل كلي من ملكته العقلية، لكن ليبقى على كلّ، متمسكاً بكلمته الأخيرة! أنا أؤمن بذلك، وهو من الأمور التي أضمنها، لأن الشغل الشاغل للإنسانية جمعاء، يكمن تحديداً مثلما يبدو لي، في أن كل إنسان يريد بشكل دائم، أن يبرهن لنفسه بأنه إنسان، وليس سدادة في آلة الأرغن! وفي أنه يبرهن لنفسه بأنه كذلك بالفعل، حتى وإن جازف بصحته وجلده، وحتى إن جازف بالعودة إلى عهد المغارات والكهوف. فكيف بعد هذا، لا يترك المرء نفسه تنساق وراء رغباتها ونزواتها، وأن لا يُهنئ نفسه على أنه لم يبلغ بعد ذلك الحدّ، الذي يحوْل دون أهوائه، وأن الإرادة لا تزال متوقفة على شيء ما، لا يعلم به غير الشيطان...

قد تصيحون في وجهي (مع افتراض أنكم لا تزالون توْلونني بشرف صراخكم)، قائلين بأن ما من أحد انتزع مني إرادتي؛ وبأنّ كل ما نحاول القيام به ليس سوى محاولة لترتيب الذات، كي تتوافق إرادتي من تلقاء نفسها، ومن تلقاء حريتها في الاختيار، مع مصالحي الطبيعية والعادية، ومع قوانين الطبيعة، ومع الحساب الرياضي.

– آه، يا سادة! ما الذي عساه أن يتبقى لي من إرادة خاصة، إذا ما بلغنا حدّ الخضوع إلى القوائم والحساب الرياضي، وإذا ما عاد مرجعنا الوحيد في التحديد والضبط، هو عملية ضرب اثنين في اثنين. إنّ حاصل ضرب اثنين في اثنين – سواء شئتُ أنا أم أبيتُ – هو دائماً أربعة. فهل هذا هو حرية التصرف الإرادي والاختيار؟

٩

بالطبع، أنا أمزح أيها السادة، وأدرك أن مزاحي بالذات، ليس من النوع الرفيع؛ إنما ليس من حق المرء على كل، أن يقلب جميع الأشياء إلى مزحة. ولربما مزحتُ وأنا أصك الأسنان! إن ثمة أيها السادة، بعض الأسئلة التي تؤرقني. لذا، اسمحوا لي بطرحها: تريدون مثلاً الدفع بإنسان ما إلى الإقلاع عن بعض العادات السيئة القديمة، وأنتم تطمعون في إصلاح إرادته، طبقاً لمقتضيات العلم ورجاحة العقل السديد، لكن، ما الذي يقول لكم بأن ذلك ليس ممكناً وحسب، وإنما هو ضروري؟ ما الذي يسمح لكم بأن تستنتجوا بأن إرادة الإنسان، هي في حاجة ماسة إلى الإصلاح والتقويم؟ وبعبارة واحدة: من أين أتاكم ذلك اليقين الراسخ، الذي يقول بأنّ من المفيد دوماً، أن لا يتناقض الإنسان مع المصالح الحقيقية، والفوائد العادية التي تضمنها الحجج العقلية، ويكفلها الحساب الرياضي؛ وبأن هذا القانون صالحٌ لكافة الإنسانية؟ إذ الأمر إلى حدّ الآن، لا يعدو أن يكون مجرّد افتراض، أنتم من افترضه. وإن ثبت أنه قانون منطقي، فهو لن يكون بالكل قانوناً للإنسانية. أتحسبون أني مجنون، يا سادة؟ اسمحوا لي بتقديم بعض التحفّظ. طيب، أنا متفق على أن الإنسان هو بخاصة، حيوان بنّاءٌ

حُكم عليه بأن يمشي بشكل واع نحو هدفه، وبأن يمارس فن الهندسة، وبأن يشق على الدوام طريقا تفضي به تحديدا، إلى وجهة ما. ولربما لهذه الغاية بالضبط، ظلت تسكنه الرغبة في الانحراف قليلاً عن مساره، لا لشيء آخر سوى لأنه محكوم سلفاً بشق ذلك المسار؛ ولأن إنسان الفعل التلقائي والعفوي كذلك، مثلما أعتقد، حتى وإن كان عامة غبياً، فقد يتبادر أحياناً إلى ذهنه على كل حال، بأن طريقه – مع الممارسة الدائمة – تفضي دون شك إلى وجهة ما، وبأن المهم ليس أن يعرف إلى أين تفضي تلك الطريق، وإنما أن تستمر فقط مُشْرَعة على الأفق المفتوح، وبأن الفتى العاقل ينبغي أن يتجنب كل إهمال يمسّ مهنة الهندسة المنذور لها، وكل ما قد يدفع به إلى الاستسلام للكسل المميت، الذي هو أصل كافة الرذائل والموبقات، مثلما نعرف. إن الإنسان، وهذه مسألة لا تقبل النقاش، يحب رؤية نفسه وهو يبني، ويشق الطرق. إنما لماذا يريد هذا الإنسان كذلك، يا سادة، أن يرى نفسه بولهٍ شديد، وهو يحرّض على الهدم، والتخريب، وإشاعة الفوضى الكاسحة؟ أتمنى أن تجيبوني قليلاً! وبهذه المناسبة، أودّ أنا نفسي أن أدْلي بكلمة خاصة أو اثنتين، في هذا الإطار: ألا ينجم هذا الحب الشديد للهدم والتخريب (الذي يستبدّ أحياناً بالإنسان، هكذا ودون مبرر، وهو أمر لا يقبل النقاش أيضاً)، بسبب كونه يخشى غريزياً، بلوغ هدفه المحقق، وبناء الصرح الذي انخرط في تشييده، بناء تاماً؟ إذ ما الذي أدراكم؟ لربما كان لا يحب ذلك الصرح إلا باعتباره هدفاً منشوداً عن بُعد وحسب، وليس بالكل عن قرب؟! ولعله لا يستلذ إلا بطعم بنائه، وليس بلذة السكن فيه، والعيش وسط أرجائه؛ ومن ثمة، يودّ أن يضعه رهن تصرف **الحيوانات الأليفة** من قبيل

النمل، والأنعام، وإلى آخره، وإلى آخره. وإن النمل – بحق – ليتميز بذائقة أخرى. فهو يملك صرحاً مدهشاً من النوع نفسه، الذي يستلذ الإنسان ببنائه، هو قرية النمل، إنما هذه لا تتبدل أبداً، ولا تتغير على مرّ الحقب والعصور.

بقرية النمل بدأت النملات المحترمة جداً، أول ما بدأت في إطار تاريخ جنسها، ومن المحتمل جداً أنها ستنتهي بتلك القرية، وذلك ما يُضفي على جهدها الدؤوب، وعلى حسّها الإيجابي في البناء والتشييد، شرفاً عظيماً. إنما الإنسان كائن متقلب وكريه، يشبه ربما لاعب الشطرنج، الذي لا يحب سوى مسار اللعبة المفضي إلى الهدف، ولا يحب الهدف في ذاته. ومن يدري؟ (إذ ما من أحد يضمن ذلك)، ربما كان الهدف الأوحد الذي تسعى الإنسانية إلى تحقيقه في هذه الحياة، هو متابعة ذلك المسار، أي مواصلة الإنسان للحياة بالذات، وليس تحقيقه لهدف آخر من هذه الحياة، هدف قد يكون بالتأكيد، حاصل ضرب اثنين في اثنين؛ إذ لو أن ذلك كان كذلك، لما عادت الحياة حياة أبداً، وإنما بداية الموت. ومهما يكن، فقد ظل الإنسان دائماً، يخشى بشكل من الأشكال هذه المعادلة، التي هي «اثنين في اثنين تساوي أربعة»، مثلما أخشاها أنا اليوم. ولنفترض أنّ الإنسان لم يقم بشيء، عدا البحث عن حاصل تلك العملية، وبأنه قطع المحيطات، وضحّى بنفسه وحياته في عملية البحث تلك، إلا أن وصوله إلى المبتغى الذي ظل يبتغيه، وعثوره على ما كان يبحث عنه حقاً، بات أمراً يخشاه. والسبب في ذلك هو أنه يحسن في قرار نفسه، بأنه ما أن يتوصّل إلى ذلك، حتى لا يتبقى له من شيء يضطلع بالبحث عنه. إن عمال البناء في الأقل، حين ينتهون من العمل، يتقاضون

أجرهم، ويذهبون إلى الخمارة، وبعدها يجدون أنفسهم في قسم الشرطة، وهكذا يلفون ما يشغلهم لمدة أسبوع، لكن الإنسان، إلى أين تريدونه أن يذهب؟ إن أقل ما يمكن أن يُقال هو أنه، في كل مرة يبلغ فيها هدفاً من أهدافه، إلا ونلاحظ عليه شيئاً من الضجر والقلق والضيق. إنه ليَستعذب الاندفاع نحو الهدف، لكن لا يحلو له كثيراً، أن يكون قد حقق هدفه، وانتهى به المطاف إلى بلوغ ذلك؛ وهذا – بداهة – من الأمور المثيرة للضحك بشكل كبير. إن الإنسان باختصار شديد، قد خُلِق بكيفية مثيرة للضحك؛ وإن كل هذا هو ما يسمح باللعب باللغة، لكن عملية «اثنين في اثنين تساوي أربعة»، هي على كل حال مسألة غير محتملة بالكل. إن «اثنين في اثنين تساوي أربعة»، هي في نظري أنا على كل حال، مسألة كلها وقاحة! إن «اثنين في اثنين تساوي أربعة» ليست سوى إنسان فظّ لا قيمة له، يعترض طريقكم، وقد وضع يديه فوق كشحه بتحدّ سافر، ويبصق في وجهكم. أنا متفق معكم في أن «اثنين في اثنين تساوي أربعة» شيء ممتاز، لكن ما دمنا نكيل المدح لهذه المسألة، ونقبل بها كثيراً، فإننا قد نجد أن «اثنين في اثنين تساوي خمسة»، شيء لا بأس به.

ولماذا أنتم مقتنعون اقتناعاً راسخاً لا يتزعزع، وبكيفية احتفالية منقطعة النظير، بأن الإنسان لا يمكنه أن ينتفع إلا ممّا هو عادي وإيجابي؟ وبتعبير مختصر: أنه لا يمكن أن ينتفع إلا من الرخاء والدِّعة؟ فلربما أحب العذاب والألم كذلك. إذ كثيراً ما يتشبث الإنسان أحياناً بعذاباته، ويتعلق بها بكيفية مثيرة للرعب، ويجعلها معشوقة حقيقية، وشأناً لا يقبل النقاش. من غير المجدي هنا، النبش في التاريخ المشترك للإنسانية؛ وإنما يكفي أن تسألوا أنتم

أنفسكم، إن كنتم فقط من بني البشر، وعشتم ولو لردح قليل من الزمن. أما بالنسبة إلى رأيي الشخصي في الموضوع، فيبدو لي أن ثمة شيئاً ما غير لائق، في تمسك المرء فقط بمحبّة الرخاء والدّعة. وسواء أكانت العاقبة خيراً أم شراً، فثمة مرات كثيرة يكون فيها هدم شيء ما، مدعاة حقيقية لاستلذاذ الإنسان، واستمتاعه. وإنني لا أدافع هنا إجمالاً لا عن الرخاء والدعة، ولا عن العذاب والألم. إنما أنا أدافع عن... نزوتي، كي تبقى مضمونة لي، حين أكون بحاجة إليها. إن العذاب على سبيل المثال، ليس له الحق في أن يُشخّص، ولا في أن يذكر ضمن التمثيليات الهزلية، وهو أمر أدركه غاية الإدراك. وفي قصر البلور، ليس من الممكن له حتى أن يقع عليه التفكير: إذ ليس العذاب سوي ريْب ونفي؛ ومن ثمة، ماذا عسى قصر الكريستال أن يكون، إن أمكن للمرء أن يرتاب بين أرجائه؟ ومع ذلك، فإني متأكد من أنّ الإنسان لن يتنازل أبداً، عن العذاب والألم الحقيقيين، بمعنى الهدم والتخريب وإشاعة الفوضى والسديم... إذ ما العذاب والألم... سوى المحرك الوحيد للوعي[١٤]! ورغم أني كنت قد أشعرتكم في البدء، بأنّ الوعي قد ظل في نظري، المأساة الكبرى للإنسان، فإني أدرك تمام الإدراك مع ذلك، بأن الإنسان يستمسك بالوعي، ولا يتنازل عنه بالكل، مقابل أي طمأنينة أو سكينة. إن الوعي مثلاً، شيء أسمى بكثير من معادلة «اثنين في اثنين». إذ بعد التمكّن من ضبط حاصل «اثنين في اثنين»، لن يكون هناك بالمطلق شيء آخر، يمكن للإنسان أن يضيفه، أو هناك بالمرة، ما يمكن اكتشافه. كل ما يستطيع للمرء عمله حينئذ، هو سدّ حواسه الخمس،

[١٤] لطالما أعيد توسيع وتناول هذه الفكرة من طرف تشيخوف، خاصة في قصته القصيرة الموسومة بعنوان: **أضواء**، ١٨٨٨.

والغرق في التأمل. في حين أننا ونحن واعون، سوف نصل إلى النتيجة نفسها، بالتأكيد، بمعنى أنه لن يفضل أمامنا شيء لنقوم به، لكن سنستطيع في الأقل آنذاك حينها، أن نستسلم لحصص صغيرة من حصص جلد الذات، وهذا على كل حال أمر منعش ومنشط. بالطبع، إن تلك لعبة عتيقة للغاية، إلا أنها أفضل من لا شيء.

١٠

إنكم تؤمنون بقصر من البلور الذي لا يتهدّم بالكل، بمعنى أن المرء لا يقوى – وهو فيه – على السخرية، ولا على مدّ لسانه ولو خلسة، كي يستهزئ. ولهذا السبب ربما، أنا خائف من أن يكون القصر من مادة البلور، وأن لا يتهدم بالكل، وأن لا يستطيع المرء وهو بداخله، حتى أن يُخرج اللسان خلسة، كي يسخر.

إنما لاحظوا: ماذا لو كان الصرحُ خمّ دجاج، عوض قصر من البلور، فأتورط أنا بالتسلل إليه، بحكم أن السماء قد أخذت تمطر فجأة، وذلك حتى لا أعرّض نفسي للبلل، بينما إقراري لذلك الخم بالامتنان، بحكم أنه وقاني من البلل، لن يبلغ حدّ اعتباره قصراً. إنكم لتضحكون، وتذهبون إلى حدّ القول بأن الخمّ أو القصر، ما هما في هذه الحالة، سوى الشيء وعينه. أجل، سأجيبكم. ذلك صحيح جداً، إن كان الإنسان يعيش فحسب، كي أن لا يترك نفسه عرضة للبلل!

لكن، ماذا بوسعي أن أفعل، إن كنتُ قد ملأت رأسي بفكر أننا لا نحيا من أجل تلك الغاية فقط، وأنه إذا ما كان المرء مجبراً على العيش لتحقيق تلك الغاية، فالأجدر به ثم الأجدر أن يعيش في قصر؟! إن هذه لرغبتي، وهي مشيئتي، ولن تنتزعوها من بالي بالمرة، إلا حين تفلحون في استبدال رغباتي. هيا! استبدلوها إذن! وأغروني بشيء آخر، وقدّموا لي نموذجاً مثالياً آخر بديلاً عن ذلك! إنما حتى يتحقق هذا، سأواصل أنا عدم اعتبار خم الدجاج قصراً. ولنعتبر حتى بأن قصر البلور ليس سوى خرافة، وبأن قوانين الطبيعة لا تمنحنا حق تصوّر تلك الخرافة في الذهن، وبأني ما اختلقته إلا على سبيل الغباء والحمق، تبعاً لعادات متقادمة وغير عقلانية، ورثتها أنا عن جيلي. في هذه الحالة، ما الذي تريدون لهذا أن يفعل من أجلي، إن كانت قوانين الطبيعة تحظره علينا؟! أليس ذلك الشيء نفسه، ما دام أنه موجود في رغباتي، أو بتعبير أوضح: ما دام موجوداً بوجود رغباتي؟ أراهن على أنكم تضحكون من جديد. ألا فلتضحكوا إذن، من فضلكم! إني أقبل بجميع أنواع السخرية والضحك، وليس من أجل هذه الغاية سأقول بأني شبعان، حين يكون بطني خاوياً. على كل حال، أنا أعرف بأني لن أكتفي بحل وسط، ولا بالعودة المتكررة بشكل دائم إلى الصفر، لسبب واحد ووحيد هو أنه حل يتطابق مع قوانين الطبيعة، وموجود **بالفعل في الواقع**. لن أعدّ عمارة يسكنها الفقراء بأجرٍ زهيد، منذ ألف سنة ونيف، ولن أعتبر حلول طبيب أسنان بين ساكنتها، بلافتة تعزز حضوره المهيب، على أنه تتويج لرغبتي. دمّروا رغباتي إذن، وامسحوا مُثلي العليا، وقدّموا لي شيئاً أفضل، أتبعكم حينها. وأفترض أنكم أجبتموني بكوني السبب في العديد من المشاكل

المجانية، وهي حالة سأردّ عليكم فيها بالشيء نفسه. نحن نتحدث بجدية بيننا؛ لكن إن لم تشرِّفوني بانتباهكم، فلن أنحني، أو أذعن. إن لي لقبواً!

لكن ما دمتُ أحيا، وما دمت أرغب، فلتتيبّسْ يداي إن حمَلَت إلى ذلك الصرح، لبنة إضافية واحدة حتى وإن كانت صغيرة! انسوا بأني أنا من تنازل بالذات، من تلقاء نفسه عن قصر البلور، لسبب واحد هو أني لن أقوى على مدّ لساني فيه، ساخراً ولا مستهزئاً. ولئن قلتُ ذلك، فليس لأني أستلذ بمدّ اللسان. إن الشيء الوحيد الذي يستثير قلقي ربما، هو أن المرء لا يعثر في كافة المباني التي شيّدتموها إلى حدّ الآن، على القصور التي يمكن له فيها أن يُخرج اللسان. بالعكس، أنا مستعد لترك هذا اللسان يقطع، مع عرفاني الكبير بهذا الجميل، إن أمكنني أن أشعر أنا نفسي، بأن لا رغبة قد بقيت عندي، في إخراجه. ثم ما الذي سأصنع به، إن كنت لا أستطيع أن أبني ذلك القصر، وتوجّب عليّ الاكتفاء بالسكن في شقق؟ لماذا تتحرك مثل هذه الرغبات في دخيلتي؟ أمن الممكن أن أصبح عرضة لمثل تلك الرغبات فقط، كي أنتهي إلى الخلاصة التي تؤكد على أن جَيَشان تلك الدواخل، إنما هو ناشئ لغاية تضليلي وخداعي، فحسب؟ أمن الممكن أن يكون ذلك هو الهدف الوحيد؟ لا أظنه كذلك.

إنكم لتعرفون، علاوة على ذلك، بأني مقتنع بأنّ علينا، نحن الكائنات البشرية التي تسكن الأقبية، أن نلجم أفواهنا. إن إنسان القبو بالطبع، لقادر على المكوث أربعين سنة، وهو صامت في قبوه، إلا أنه ما أن يخرج من جحره إلى الضوء، حتى ينكب على الكلام، ثم الكلام، ثم الكلام...

١١

غايةً الغايات أيها السادة، أن يتفرّغ المرء لنفسه، وأن لا يزاول أي عمل من الأعمال بالكل. الأفضل له أن يتفرّغ للخمول والتعطل، بوعي كامل منه. ألا فليعِش القبو، إذن!

إنما إن كنت قد أشرتُ من قبل، إلى أني أغبط الإنسان العادي حدّ السخط عليه، فإني حين أراه مغلولاً إلى شروط عيشه الصعبة، التي ينغمس فيها من قنّة رأسه إلى أخمص قدميه، سرعان ما تنطفئ في داخلي الرغبة (ولو أني لا أكفّ عن حسده)، التي تظل تدفعني إلى أن أحلم بيوم أحل فيه محله. لا، لا، إن قبوي على كل حال، لذو مزايا وأفضال. يمكن للمرء هنا، في الأقل، أن... ها إني أسقط هنا أيضاً، في مطبّ الكذب من جديد. أكذب لأني أعرف أنا بالذات، بالوضوح المماثل لوضوح مسألة ضرب «اثنين في اثنين»، بأن القبو ليس أفضل ما هنالك على كل حال، وإنما ثمة شيء آخر مختلف عنه كل الاختلاف، شيء أتحرّق شوقاً لاكتشافه، إلا أني لا أصل إلى ذلك بالمطلق! ألا فليذهب القبو إلى الجحيم!

لكن، هذا ما قد يكون أفضل: أن أكون في الأقل أنا بالذات، مؤمناً بشيء من الأشياء التي سبق لي أن كتبتها. ذلك أني لا أكاد – وأقسم لكم بالله، أيها السادة – أؤمن بأي شيء ممّا خربشته، من ذي قبل! أي إني أؤمن، ولا أؤمن في الوقت نفسه بذلك، لكنني لا أعرف من أين يصدر عني كل ذلك، مثلما أشعر – وأشك – في أني أكذب.

– وإذن، لماذا كتبت – والحالة هذه – كل ذلك؟ ستقولون لي.

– لكم وددتُ لو أنكم مكثتم أربعين سنة في قعر قبوكم، لا تقومون بأي شيء يُذكر، وبعدها آتي لزيارتكم، وأرى الحالة التي بلغتموها. فهل من الحق أن نترك الناس وحيدين، لا شغل يشغلهم، لمدة أربعين سنة؟

– ومع ذلك، أنت لا تخجل! ولا ترى في هذا أي دناءة؟! ستقولون لي ربما، وأنتم تحرّكون رؤوسكم، ناظرين إليّ من فوق. إنك لتتعطش للحياة، لكنك تحل المسائل والمعادلات الحيوية بسهولة، من طريق التشويش عليها بمنطق خاطئ ومشوّش. ولكم هو متعب ووقح هجومك! ولكم تشعر في الوقت نفسه، بالخوف! إنك لتنطق بالحماقات، غير أنك لا تكفّ عن الارتعاش والارتجاف والاعتذار. تثبت لنا بأنك لا تشعر بالخوف من أي شيء، لكنك ما تنفك تبحث في الوقت نفسه، عن عفونا وسماحتنا. إنك تفتخر بوعيك، غير أنك لا تفعل شيئاً آخر غير التردّد والارتباك، لأن قلبك – على الرغم من أن عقلكم يشتغل بوعي – يظل مظلماً، بسبب ما يسكنه من فجور وفسوق؛ ومن ثمة، فإن المرء كلما كان قلبه غير طاهر، إلا ويتأبى عليه بشكل كلي، أن يمتلك وعياً شاملاً ودقيقاً! ولشدّ ما أنت أهل لجاجة وإصرار! ولشدّ ما تبحث عن الاستفزاز! وما أكثر ما استعملته من حركات بهلوانية! إنما ليس كل ذلك غير كذب في كذب! إنه لافتراء زائف.

بالطبع، أنا من اختلق هذه الأقاويل، التي نسبتها إليكم. هذا أيضاً من صميم ما يساهم القبو في إنتاجه. لقد ظللت لأربعين سنة خلت، أسترق السمع لمثل ذلك الكلام، من وراء دفة

الباب. أنا بالضبط من اختلق ذلك. وعليه، ليس من المدهش أن أنتهي إلى حفظها عن ظهر قلب، واتخاذ صيغة أدبية لها...

لكن، في النهاية، أيمكن أن تكونوا غافلين وساذجين بما فيه الكفاية، لتتصوروا بأني سأنشر كل ذلك، وأقدّمه لكم فوق هذا وذاك، لتقرؤوه؟! وهناك شيء إضافي آخر: لماذا أسميكم «سادة»؟ ولماذا أتوجه إليكم بالحديث، وكأني أتوجه بذلك إلى قرّاء حقيقيين؟ إن الاعترافات التي تندرج ضمن الجنس الأدبي، الذي أنوي الانخراط في كتابته، ليست من نوع الاعترافات التي تخضع للطبع، وتقدّم إلى الآخرين، قصد قراءتها. على كل، لست أملك أنا من الشجاعة ورباطة الجأش ما يكفي، كي أقوم بمثل ذلك. وأعتبر بأنه ليس من باب الضروري والمؤكد، أن أملك تلك الشجاعة والقدرة، كي أفعل ذلك. لكن، انتبهوا: لقد خطر ببالي خاطر، ووددتُ لو أني أحقّقه. ها هو ذا ذلك الخاطر المقصود:

في ذكريات كلٍّ منا أشياء، لا يَكشف عنها لكل الناس بالمرة، وإنما يبوح بها لأصدقائه وحسب. وهناك أشياء أخرى، قد لا يكشف عنها حتى لأصفى أصفيائه وخلانه، وإنما يظلّ محتفظاً بها لنفسه، وفي بئر عميقة الغور فوق كل ذلك. وهناك في الأخير أشياء أخرى، يخشى المرء أن يكشف عنها، حتى لنفسه هو بالذات. ومن هذه الذكريات بالضبط، ثمة احتياطي وفير لدي كل إنسان شريف وصالح، بل كلما كان الإنسان شريفاً وصالحاً أيضاً، كلما كان له من تلك الذكريات حظ ونصيب. أنا لم أقرّر على كل حال، أن أستدعي من مخزون ذاكرتي بعض تلك المغامرات القديمة، التي ظللت إلى حدّ الآن – وليس بغير ما شعور بالقلق – لا

أبوح بها إلى أي أحد، إلا منذ فترة وجيزة جداً. والآن، وبعد أن استعدتها، وبعد أن قررت حتى وضعها رهينة الورق، فإني أدفع نفسي لتجتاز امتحاناً صعباً، يدعوني إلى التساؤل: أيمكن للمرء أن يكون صريحاً بشكل تام، وإن كان مع نفسه في الأقل، ولا يخشى من مواجهة الحقيقة؟ وبهذه المناسبة، أودّ أن ألفت انتباهكم إلى أن كل سيرة ذاتية تتوخى أن تكون وفية لصاحبها، هي بحسب ما أكد عليه الشاعر الألماني هاينه (Heine)، شيء مستحيل تقريباً؛ وأننا نملك كل الحظوظ لكي نكذب على أنفسنا، ونفتري عنها بعض الأقاصيص والحكايات في اعترافاته، وقام بذلك بشكل متعمّد، ومن باب الرغبة في التباهي والظهور. أنا مقتنع بأن هاينه على حق؛ وأدرك تمام الإدراك بأننا نستطيع اختلاق بعض الحكايات الوهمية عن بضعة جرائم فظيعة، ننسبها إلى أنفسنا؛ كما أدرك كذلك طبيعة ذلك الشعور، الذي قد يثيره فينا حب التباهي والظهور. إلا أن هاينه تحدّث عن ذلك الإنسان، الذي يقوم بتقديم اعترافاته للناس، بشكل علني. في حين أني أنا لا أكتب إلا لنفسي، وأصرّح مرة واحدة والي الأبد، بأني حتى وإن كنت أكتب، مثل من يخاطب قراء حقيقيين، فما ذلك مني سوى لرغبة في تسهيل الأسلوب وحسب، لأن الكتابة بتلك الكيفية هي بالنسبة إلي، كتابة سهلة للغاية. وليس ذلك سوى شكل من أشكال الكتابة، شكل أجوف خالص، ولن يكون لي بالكل قراء. وقد سبق لي أن صرحتُ بهذا.

لا أريد أن يزعجني شيء، وأنا أدبّج هذه الذكريات. لا أنوي الوقوع في مطب التنظيم والتنسيق المزعجين. كل ما سيصعد من قرار الذاكرة، سأكتفى بكتابته مثلما هو.

سيكون بمقدوركم هنا مثلاً، أن تقفوا للتدقيق معي في التفاصيل، فتتدخلوا بالقول: إن كنت لا تراهن حقاً، على أن يكون لك قراء، فلماذا تسجّل على نفسك – وعلى ظهر الورق كذلك! – مثل هذه الملاحظات، التي تفيد بأنك لا تكترث لا للتنظيم ولا للتنسيق، وبأنك ستدوّن كل ما قد يخطر ببالك... إلخ؟ فلماذا كل هذا الشرح والتوضيح؟ ولماذا كل ذلك الاعتذار؟

حينها، ساردّ عليكم بالقول:

– إنما الأمور كذلك، إذن!

وإلى جانب هذا، نحن هنا إزاء حالة نفسية تامة... إذ قد تكون حالة جبن مني ربما؛ أو قد تكون حالة تعمّد تدفعني إلى تخيّل الجمهور، حتى أنضبط بشكل كافي، حين أنكب على الكتابة؛ أو قد تكون ثمة بواعث جمة، تعدّ بالآلاف.

لكن ها هو ذا شيء آخر كذلك: ما الداعي في الأصل إلى أن تحدوني الرغبة في الكتابة؟ أفلا نستطيع – إن لم يكن ذلك من أجل جمهور القراء – أن نتذكر كل ذلك ذهنياً، دون أن نحوّله إلى الورق؟

الأمر صحيح. إنما ستتخذ الأشياء حين تدوّن على الأوراق، طابعاً احتفالياً مشهوداً. إن في ذلك لشيئاً من الجلالة والمهابة، وسأضع نفسي بفعله في محاكمة عسيرة، ولسوف يظفر أسلوبي في النهاية بالتحسّن. ثم قد ينجم عن الكتابة ربما، إلى جانب هذا، ما من شأنه حقيقة أن يخفّف عني. في هذه الآونة الأخيرة مثلاً، ثمة من بين كافة الذكريات القديمة التي أخزّنها،

ذكرى ظلت تلاحقني بشكل واضح، وتثقل عليّ بكلكَلها الخانق. لقد حضرتني بجميع تفاصيلها منذ أيام قليلة، وظلت بعد ذلك تطاردني، وكأنما هي لحن موسيقي يتموّج بلا هوادة، داخل جمجمة رأسي. ومع ذلك، ينبغي التخلص منها. إن الذكريات الشبيهة بهذه، هي عندي بالمئات؛ إلا أن واحدة منها فقط في اللحظة الراهنة، هي التي تستبد بذاكرتي، وتضغط عليّ أيما ضغط. أنا لا أعرف لذلك سبباً، لكنني أعتقد بأني إذا ما تخلصت منها، بوضعها رهينة الورق، فقد تتركني أنعم حينها، بالطمأنينة والسلام. فلماذا لا أحاول، إذن؟

ثم إني لأشعر في الأخير بالضجر، وأنا أنفق كل وقتي في الخمول والفراغ. لذلك، فقد تشبه الكتابة حقا عن تلك الذكرى، بعض العمل. يقال إن العمل يجعل المرء شريفاً وخيّراً، وإن هذه لفرصة سانحة أمامي في الأقل، لكي أحاول فيها أن أكون كذلك.

تتساقط اليوم ثلوج ذائبة صفراء وكئيبة. الشيء نفسه وقع بالأمس، ونفسه حصل في الأيام السابقة. أظنّ أن هذه الثلوج الذائبة، هي التي ذكرتني بتلك الحادثة الطريفة، التي تأبى الآن أن تحل عني، وتتركني بسلام. ألا فلتكن قصتي بعنوان: عن الثلج الذائب[١٥].

لاحظ نقّاد العقد الخامس من القرن التاسع عشر، بأن الثلج الذائب ظلّ يظهر عند الكتّاب المنتمين إلى المدرسة «الطبيعية»، وكأنه سمة مميزة للطبيعة في بيترسبورغ.

[١٥] لاحظ نقّاد العقد الخامس من القرن التاسع عشر، بأن الثلج الذائب ظلّ يظهر عند الكتّاب المنتمين إلى المدرسة «الطبيعية»، وكأنه سمة مميزة للطبيعة في بيترسبورغ.

عن الثلج الذائب

حينما أنقذتْ حمياي المتّقِدة ونصائحي المؤثرة،

روحَك من براثين الموت،

وكنتِ بزخم من الألم الحاد،

تلعنين من غير أسى،

سلطانَ الرذيلة الذي أهلك في نفسك الأيام الخوالي؛

حينها قصصتِ عليّ،

وأنت تُنزلين علي نفسك بلائمة الذكرى وعقاب التذكّر،

كلَّ حكاية الأيام التي سبقت التحامنا؛

وأنتِ تدفنين وجهك بين راحتيك

وقد امتلأتِ بالخجل

وبالفظاعة امتلأ قلبك،

وسيطرتْ عليكِ زوبعةٌ من الدمع الخالص والمحرّر للأعماق ...

من قصيدة للشاعر: نيكولاي نيكراسوف[١٦]

١

لم أكن أبلغ من العمر حينذاك، سوى أربع وعشرين سنة. وحتى قبل بلوغ تلك السنّ، ظلّت حياتي قاتمة، ومضطربة، ومسكونة بعزلة فظيعة. لم أعاشر أحداً، وذهبت حدّ اجتناب الحديث أيضاً مع الناس، دافناً نفسي أكثر فأكثر في ركني الركين. وقد بلغ بي الأمرُ في مكتب القنصلية، حيث كنت أعمل، حدّ إجبار نفسي على عدم رفع عيني، ولا النظر إلى أي كان، فأدركتُ أن زملائي في العمل لم يكونوا يعتبرونني شخصاً شاذاً وطريفاً فقط، وإنما باتوا ينظرون إليّ نظرة مفعمة بنوع من التقزّز، وأظنّني صرتُ مدعاة لذلك أيضاً. ولشدّ ما كنت أتساءل في بعض الأحيان: لماذا أنا الشخص الوحيد الذي يخال بأن الناس تنظر إليه بتقزّز؟ إذ كان لأحد زملائي في المكتب وجهٌ قبيحُ المنظر، ومشبعٌ فوق ذلك بحفر الجذري، وهو ما يعني أنه كان برأس قاطعِ طريقٍ حقيقي. وقد بدا لي بأني لن أتجرأ أبداً، بمثل ذلك الوجه الدميم، حتى على رفع رأسي، والنظر مباشرة في اتجاه الناس. وهناك زميل آخر في المكتب، ظل لا يملك غير بذلة قذرة بشكل كبير، إلى درجة أنه أينما حل أو ارتحل، إلا وأشاع من حوله رائحة كريهة للغاية. ورغم هذا وذاك، لم يكن يظهر على أي من هذين الزميلين، ما يفيد أنهما كانا يشعران بالحرج أو بالخجل، إما لدمامة الوجه وقبحه، أو لعطانة البذلة وقذارتها. لم

---

[١٦] يرجع تاريخ هذه القصيدة إلى سنة ١٨٤٦، وهي مهداة إلى «المرأة التي وقعت في الخطيئة»؛ وقد تم تقديرها بشكل كبير من قبل مجموعة بييلينسكي (Biélinski)، مثلما نالت حظوة كبيرة كذلك من لدنّ الموالين لبيتراتشيفسكى (Petrachevski) ثم في ما بعد لدى أعضاء الحزب الديموقراطي في ستينيات القرن التاسع عشر.

يكن لا هذا ولا ذاك يتخيل نفسه أبداً، بأن من الممكن للناس أن يشعروا بالتقزّز، حين ينظرون إليه. وحتى لو حصل ذلك، فإنهما لن يكترثا له بتاتاً، وإنما سيعتبران الأمر سيان لديهما، اللهم إلا حين يتكرّم عليهما رؤساء العمل، فيلقون بنظرة في اتجاههما. أما أنا الآن، فيتراءى لي بأني كنت غالباً ما أنظر إلى نفسي، مدفوعاً بخيلاء وزهو لا حدود لهما، ومتطلباً الشيء الكثير من نفسي، نظرة مشبعة بعدم الرضا، والغضب الشديد الذي يبلغ في بعض الأحيان حدّ النفور، فأصل تبعاً لذلك إلى إسقاط نظرتي الخاصة، على أي كان من الناس حولي. كنتُ مثلاً أكره وجهي، وأرى أنه دميم، فأصل إلى درجة عالية من الشك، لا أرتاب فيها بأنه يعكس شيئاً غير قليل من الخسة والدناءة؛ أضف إلى ذلك أني كنت في كل مرة أحل فيها بالمكتب، عادة ما أبذل جهداً جباراً لأبدو بهيئة تنمّ ما أمكن عن الأريحية والاستقلال، مخافة أن يظنّ بي الناس أحطّ الظنون، فأحاول أن أسبغ على وجهي مسحة من الرّفعة والكرامة والتميّز. كنت أردّد في نفسي: «ليس عليّ لجناحٌ، إن كان وجهي غير وسيم ولا جميل. إنما عليه أن يشي بسِمَة متميزة ومعبّرة، وبها ينمّ خاصة عن الذكاء **بشكل مدهش**». لكني كنتُ – ويا للحسرة! – اعرف بالتأكيد أن وجهي لن يعكس جميع تلك الملامح والسّمات المتقنة، بالكل. إلا أنّ الأفظع والأسوأ من كل ذلك، هو أني كنت أجده بالتأكيد، وجهاً غبياً. ومع ذلك، كان يكفيني فقط، أن يشي بلمعة ذكية وحسب، لكي أستغني عمّا عداها من السمات والملامح الأخرى، حتى إني قبلتُ أن يعبّر عن الدناءة والخسّة، إنما شريطة أن يعثر فيه الناس على ملمح من الذكاء.

بالطبع، كنتُ أكره جميع زملائي في المكتب، من أولهم إلى آخرهم، وكنت أنظر إليهم من فوق باحتقار، لكن يبدو لي أني كنت في الآن نفسه أخشاهم. وقد حدث لي أحياناً، أن أحللتهم المكانة العالية. وكان هذا يبدو إذن، بأنه يحدث دوماً على حين غرة، ودون سابق إنذار. أنظر إليهم تارة من علٍ، وأضعهم أخرى في مقام أعلى مني. لا يمكن للإنسان المتحضر والنزيه أن يكون مغروراً بنفسه، ما لم يتشدد معها بشكل كبير، وما لم يكن قادراً في لحظات أخرى، على احتقارها إلى درجة المقت الشديد. لكني، ظللتُ أنكس عيني تقريباً أمام كل من أصادفه منهم، سواء أكنتُ أحله المحل الأدنى أم الأعلى. وإلى جانب هذا أيضاً، كنت أذهب إلى حدّ التعاطي لبعض التجارب، كي أعرف إن كنتُ سأقوى على تحمّل نظرة هذا أو ذاك، في الأقل. وكنت أنا دائماً من ينكس عينيه في البداية، مكرهاً على فعل ذلك. وقد ظل هذا يؤلمني، ويجتثني. كما كان يستبدّ بي كذلك، خوفٌ مرضيّ من أن أصير أضحوكة، وهذا هو السبب الذي جعلني، بخصوص جميع ما يمُت إلى المظاهر الخارجية بصلة، عبداً أسيراً **للروتين**؛ لقد كنت أمشي منضبطاً بمحبة للمسالك **المتواطأ عليها**، لكني أرتعد في الوقت نفسه، إلى أن يتروّع قلبي، مخافة أن أكتشف في نفسي، أدنى نزوع يميل بي نحو الانحراف عن الجادّة المستقيمة. لكن كيف بمقدوري أن أقاوم؟ كنت متحضراً بكيفية مرضية، مثلما ينبغي لإنسان ينتمي إلى زماننا أن يكون. وكان أفق زملائي محدوداً، وبذلك ظلوا يشبهون بعضهم بعضاً، وكأنهم قطيع أغنام. ولربما كنت الوحيد في مكتب القنصلية، الذي يحسب نفسه دائماً على أنه جبان وعبد، بحكم تحضري بالضبط. على أني لستُ أعدّ نفسي مثل الجبان والعبد خطأ، وإنما

أنا في الحقيقة كذلك. إني لأقرّ بذلك دون أدنى حرج. كل إنسان شريف ونزيه في أيامنا هذه – وينبغي له أن يكون كذلك – هو جبان وعبد. تلك حاله الطبيعية والعادية، في هذه الأيام. أنا مقتنع بعمق، بهذا الأمر. كذلك رُكِّب هذا الإنسان في زماننا، وكذلك خُلِق. ليس في أيامنا وحسب، وإنما ينبغي على الإنسان الشريف والنزيه، تبعاً لما لستُ أدريه من ظروف طارئة، أن يكون جباناً وعبداً في كل زمن. إنه للقانون الطبيعي المُلزم لكافة الشرفاء على وجه الأرض. وحتى حين يفلح أي من هؤلاء ذات يوم، في التبجح والادِّعاء، فإنه سرعان ما سيقلع عن تبجّحه وادعائه: إنه سينسحب على كل، مرة أخرى. ذلك هو المخرج الوحيد والأبدي. وحدهم الحمير واللُّقْطاء من يتبجح، وإلى حدّ معين كذلك. ولا فائدة من الفكاك منهم، ولا داعي إلى خصِّهم بالاهتمام، لأنهم لا يساوون – بدقة – أي شيء.

وثمة شيء آخر ظلّ يعذبني، هو هذا بالضبط: أن ما من أحد كان يشبهني، وما شبهتُ أنا أحداً. «إنني واحدٌ متفرد، لكنهم **كلٌّ متشابه**»، هكذا ظللتُ أردّد في نفسي، وأنا منكب على التفكير والتأمل.

إن هذا ليَكشِف بوضوح، بأني ما كنتُ غير فتى شاب.

وفي بعض الأحيان، تنقلب الحال رأساً على عقب. إذ كان بمقدور ذهابي إلى المكتب أن يُشعرني في لحظة ما بالضيق والكراهية، إلى درجة أني صرتُ أعود إلى البيت في كثير من المرّات، وأنا مريض. لكن بعد ذلك، تسيطر عليّ مباشرة، ودونما داعٍ حقيقي يستدعي ذلك، مرحلةٌ – وكل شيء يأتي عندي على مراحل! – تتسم باللامبالاة والريبة، فأجدني منشغلاً

فجأة بالسخرية من نفسي، ومن نزعتي المتسامحة، ومن ميولاتي النافرة والمتقزّزة، لأنهمك في اتهام نفسي كذلك، بالسقوط في مطب الرومانسية. فتارة لا أرغب حتى في إرسال الكلام إلى هؤلاء الزملاء، وتارة أخرى أكون مندفعاً نحوهم، حدّ انشغال بالي بالبحث عن كيفية ما لإرضائهم، فأصير بغتة صديقاً لهم، بعدما كنت من قبل غير مرتاح للتحدث إليهم. وهكذا يختفي كرهي وتأففي، على حين غرة. ومن أدراني؟ ربما لم أكن أشعر قط، بذلك الإحساس. أكان إحساساً زائفاً لم ينجم إلا عن قراءاتي فقط؟! إلى حدّ الآن، ما زلتُ لم أحسم بعد، في هذه المسألة. وذات مرة، صرنا حتى أصدقاء حقيقيين، فذهبت لرؤيتهم، وكنا نفضل لعبة الامتياز[١٧]، وشرب الفودكا، ومناقشة جدول الترقيات المهنية... لكن اسمحوا لي أن أفتح هنا قوساً، لأستطرد بعض الشيء.

لم يُوجد بيننا بشكل عام، نحن أبناء روسيا، أمثال هؤلاء الرومانسيين البُلداء، سواء على النمط الألماني أو الفرنسي بخاصة، الذين يحلِّقون في عنان السماء، ولا يؤثر فيهم أي شيء يُذكر، حتى وإن انشقّت الأرض تحت أقدامهم، أو هلكت فرنسا عن آخرها وراء المتاريس؛ بحيث يبقون هم أنفسهم دائماً، لا يتبدلون بالمرة، ويرفضون التغيير ولو على سبيل المجاملة، بل يواصلون الصدح بأغانيهم المحلِّقة في ملكوت السماء السابعة، إلى آخر يوم من حياتهم، لأنهم بالضبط أغبياء. بينما لا يوجد عندنا، نحن، على أرض روسيا أي بليد من هؤلاء البلداء؛ وهذا أمرٌ معروف. وإن هذا بالذات لَمِن الأمور التي تميّزنا نحن بالضبط، عن بقية

[١٧] لعبة من ألعاب الورق شبيهة بالبريدج، ومشتقّة مثله من الويست «Whist».

البلدان الأخرى. وينجم عنه أننا نفتقر إلى الطبيعة البشرية الغبية، في حالتها الخالصة. إن كُتّابنا ونقّادنا «الإيجابيين» المنتمين إلى المرحلة السابقة، هم من اختلق كل تلك الحكايات التي تدور حول رومانسيينا، حين تعقبوا أتباع كوستانجوغلو[١٨] (Kostanjoglo) وحفدة إيفانوفيتش[١٩] (Pioter Ivanovitch)، اللذين اعتُبروا بكيفية بليدة، بأنهم مثلنا الأعلى في روسيا؛ وهؤلاء النقاد الإيجابيون هم من قال بأن هؤلاء الأتباع والحفدة يشبهون أغبياء ألمانيا وفرنسا. إن الخصائص التي تميز رومانسيينا هي على النقيض تماماً من هؤلاء الأوروبيين الأغبياء، ولا يمكن لأي مزاج أوروبي أن يجاري مزاج رومانسيينا الخاص. (واسمحوا لي على كل حال، باستعمال لفظة «رومانسي»، التي حتى وإن كانت لفظة صغيرة الدلالة، ومتقادمة جداً، فهي لفظة محترمة، ومُستَحَقة، ومعروفة من لدنّ الجميع). إن رومانسيينا ليتميزون بخاصية كونهم **يفهمون كل شيء، ويرون كل شيء، وغالباً ما يدركون الأمور بكيفية أوضح ممّا تراه عقولنا شديدة الإيجابية**؛ ولا يخضعون لشيء ولا لأي شخص، لكنهم لا يستهينون في الآن نفسه بشيء، ولا ينفرون من أي شيء؛ فهم يتصدّون للعقبات باللفّ والدوران حول محيطها، ويستسلمون أمام الكلّ، ودائماً ما يتصرفون مع الجميع بلطف وكياسة؛ ولا يصرفون أبداً تفكيرهم عن تحقيق الهدف العملي المرسوم والنافع (مثل امتلاك شقة جميلة، وتحقيق معاشٍ جميل، والحصول على وسام جميل كذلك)؛ ويكونون حريصين على تحقيق ذلك الهدف، اعتماداً على كل ما يُلهِب حماسهم، واستناداً إلى مجموع الدواوين التي

---

[١٨] شخصية من شخصيات الجزء الثاني من رواية: الأرواح الميتة لغوغول.

[١٩] خادم مربٍّ عجوز، يظهر بطلًا في مؤلف: **قصة عادية**، للكاتب غونتشاروف.

تتضمن الشعر الغنائي؛ إلا أنهم يحافظون في الوقت نفسه، على الشيء «الجميل والسامي» لذاته، وحتى آخر نفس، مخافة أن يتعرّض لأي تشوّه أو تحطم، مثلما يحافظون بالمناسبة نفسها على ذواتهم مُصانة وسط القطن، وكأنما هي قطعة حلي، من أجل ذلك «الجميل» و«السامي» وحدهما، وحسب. إنّ رومانسيَّنا نحن إنسان واسع الصدر، وهو في الوقت نفسه قاطع طريق من المرتبة الأولى، وأؤكد لكم بأنه الأشطر من بين كافة شطّارنا... كل هذا بالطبع، مشروط بأن يكون رومانسيّنا ذكياً. لكن، ما الذي أحكيه أنا؟ إنما الرومانسي دائماً ذكي! بينما كل ما أردتُ إثارته فقط، بخصوص هذه الملاحظة القائلة بأنه رغم توفرنا على بعض الأغبياء، مثل ما حصل في البلدان الخارجية، فإن هذا واقع لا يُعتدّ به، وأن ذلك ما كان بمستطاعه الوقوع لرومانسيينا إلا لكونهم – مع التقدم في السن، والابتعاد عن حيوية الشباب – قد مُسِخوا على هيئة الألمان؛ ومن ثمة فإنهم استوطنوا، كي يحافظوا بسهولة على نمطهم الحياتي الرخيص، في مكان ما خارج روسيا، خاصة في فايمار وقلب الغابة السوداء. أنا على سبيل المثال، أكره من صميم القلب عملي الإداري في المكتب. وإن كنت لم أتخلَّ عنه، فإنما للحاجة وحسب، لأني أحتلّ ذلك المكتب في أوقات معلومة، وأتقاضى عن ذلك في المقابل، بعض المال. والنتيجة هي على كل – ولاحظوا هذا – أني لا أستغني عن وجودي في المكتب. إن رومانسيَّنا قد يصير مجنوناً (وهو ما لا يحدث إلا في النادر)، إن هو لم يضع نُصْب عينيه أفقاً آخر للاستفادة، عوض ترك ما بيديه؛ كما أنه لا يتعرّض للطرد والإبعاد إلى الخارج أبداً، اللهم إلا إذا كان ذلك الخارج هو مستشفى المجانين، مثل ما وقع لذلك «الملك

الإسباني»[٢٠]؛ ولكن فقط، حينما يبلغ به الجنون مبلغاً عظيماً. ذلك أن فصيلة الضعاف والنّحاف والفتيان المخنثين الشقر، هي التي يصيبها الحمق عندنا. أما الأغلبية الساحقة من الرومانسيين، فإنها تنتهي إلى تحقيق هدفها، والحصول على مراتب عليا. فما أروع ذلك التوفيق المدهش لديهم، بين العواطف والكفاءات المتناقضة! وما أعظم تلك القابلية التي تجعلهم قادرين في لحظة واحدة، على شمّ الأشياء الأكثر تنافراً وتناقضا!

في تلك الفترة المنصرمة من عمري، كان ذلك مدعاة لأفراحي ومسرّاتي. وكنت أتمسّك دائماً بالفكرة نفسها، ولا أغيرها. ولهذا السبب نزخر نحن بغنى كبير، من حيث الرجال ذوو «الطبائع السخية»، الذين حتى وإن بلغوا الدرجة الأخيرة من الانحطاط والسقوط، فإنهم لا يتنازلون بالكل عن مثلهم العليا في الحياة؛ إذ هم لصوص وقطاع طرق حقيقيون، لكنهم يواصلون مع ذلك احترام أمثلتهم العليا الأصيلة، بينما الدمع ينسكب من أعينهم، وهم باقون من صميم قلوبهم، أوفياء بشكل مدهش! أجل أيها السادة، لا يوجد في بلاد أخرى سوى عندنا، من فصيلة الأنذال، من هو أشدّ احترافية من الجميع، ويمكنه أن يكون بشكل مطلق – وبمعنى أسمى حتى – شريفاً إلى أعمق غور في القلب، دون الكفّ مع ذلك أبداً، عن كونه نذلاً حقيقياً. وأعود مرة أخرى للقول: يلاحظ الناس بشكل دائم، خروج بعض النصابين من كنف رومانسيينا، وهم من طينة هؤلاء المتميزين أحياناً، ببراعة وحذق عاليين (وأستعمل هنا لفظة «نصاب»، استعمالا مشفوعاً بالمحبة)، ويبيِّنون عن قدرة هائلة للتعامل

[٢٠] انظر: **يوميات مجنون** لغوغول، حيث يظنّ بوبريتشتشين نفسه وكأنه ملك إسبانيا.

مع الوقائع، ومعرفة إيجابية جداً، إلى درجة أنّ كل من يفوقهم مرتبة، وإلى درجة أنّ حتى الجمهور كذلك، لا يستطيع سوى الإطراء عليهم بعبارات الإعجاب والتقدير، وهو مندهش لهم، والمفاجأة قد صعقته.

أجل، إن تنوّع طبيعة هؤلاء من الأمور المدهشة حقاً! والله وحده هو الذي يعلم بما يمكن أن تصير عليه تلك الطبيعة من مسوخ، وما قد يتولد عنها، وما تبشّر به من مستقبل. إنه النسيج غير الرديء، أليس كذلك؟ وإن كنت أقول هذا، فليس بدافع وطنية مثيرة للسخرية، ولا بدافع انتماء شوفيني إلى الوطن. وإني بشأن هذا الموضوع، لمتأكد من أنكم تعتقدون أني أسخر مرة أخرى. أو من يدري؟ ربما العكس هو الذي سيحصل، أي إنكم قد تعتقدون بأني أتحدث إليكم بجدية، وأن ما أقوله ترجمة حقيقية لما أفكر فيه. على كل حال أيها السادة، كلا الرأيين يشرّفني منكم، ويجعلني أشعر بالسرور والسعادة بشكل خاص. أما بالنسبة إلى استطرادي، فألتمس منكم الصفح.

بالطبع، لم أتحمّل منذ مدة طويلة، علاقات الصداقة مع زملائي، إذ سرعان ما استغنيتُ عنهم، وكنت لا أوجه لهم التحية، بسبب قلة تجربتي في الحياة، التي كانت نتيجة غفلتي الشبابية، وكأنما كنت أريد أن أهدم كل الجسور التي تربطني بهم. ومع ذلك، فإن هذا لم يحصل لي سوى مرة واحدة. فقد كنت وحيداً على الدوام، وكانت تلك هي القاعدة العامة في حياتي.

كنت أعكف أساساً على القراءة في بيتي، أغلب الأوقات. ومن خلال تركيز أحاسيسي على المؤثرات الخارجية، توخيتُ خنق جميع ما ظل يتّقد بداخلي، دون توقف. والحال، أن المؤثرات الخارجية الأولى التي كانت رهن إشارتي وقتها، هي القراءة. بالطبع، ساعدتني القراءة كثيراً، وحرّكت دخيلتي، وأمدّتني بالمسرّات والآلام؛ لكنها كانت في لحظات أخرى، تزعجني حدّ الموت. فقد كنت لا أزال بحاجة إلى بعض الحركة والنشاط، الشيء الذي أغرقني حينئذ، ولن أقول في الفسوق، وإنما في بعض المجون القاتم، والقذر، والمقزّز. كان نزقي المرضي والمتواصل يجعل أهوائي الصغيرة عنيفة ومشتعلة. وكانت هذه تأتيني عبر نوبات هستيرية، ونوبات بكاء، ونوبات ارتعاش واختلاج. وباستثناء القراءة، ما كان لي من مهرب آخر أستطيع اللجوء إليه، أي إن ما من شيء كان ثمة في محيطي العام، بمقدوره أن يفرض عليّ الاحترام، أو يجعلني أنجذب إليه بإغراء. وإلى جانب الضجر الذي ظل يجتاحني، كانت تستولي عليّ مجموعة من التناقضات، فأندفع حينها صوب المجون. وليس كل ما أنا بصدد الإقرار به لكم هاهنا، هو لغاية تبرير سلوكي... بالكل! إنما هذا غير صحيح! أنا أكذب! ذلك حقاً ما كنت أسعى إلى الوصول إليه: تبرير سلوكي. وإني لأسوق هذه الملاحظة، لأجلي أنا بالذات، يا سادة. أنا لا أريد أن أكذب. لقد أقسمت بعدم فعل ذلك.

كنت أمارس جنوني بالليل بشكل مختلس، وأنا منفردٌ بنفسي، وقد تشبّعت دواخلي بالخوف والعار والخزي، وهي تلك المشاعر التي لم تكن تبارحني أبداً حتى في أحطّ اللحظات، التي

تفضي بالذات إلى اللعنة. لقد ظلت روحي منذ تلك اللحظات، تحمل في دخيلتها قبوَها القاتم. وكنت أعيش خوفاً شديداً من أن يراني، أو أن يصادفني، أو أن يتعرّف عليّ أحد ما من معارفي الخاصين. وظلت الأماكن التي تردَّدتُ عليها عديدة وحقيرة جداً.

وفي ليلة من الليالي، وبينما أنا مارّ من أمام خمارة تقع في الطابق السفلي، رأيت من خلال نافذة مضاءة، بعض الرواد الذين كانوا يتعاركون بعصي البلياردو. وبعد ذلك، رأيتُ أحدهم يُطوّح به من النافذة. كان بمستطاع هذا المشهد في لحظة أخرى، أن يقزّزني بشكل كبير، إلا أني شعرت في تلك الليلة بالذات، وإزاء ذلك السيد المطوّح به ببعض الحسد، إلى حدّ أني دخلت الخمارة، وأنا أندفع رأساً صوب قاعة البلياردو، وأنا أردّد في نفسي: «مع بعض الحظ، سأثير بعض الشجار، وسيلقى بي من خلال النافذة».

لم أكن مخموراً، ولكن ماذا تريدون أن أفعل؟ إنّ الضجر الذي ينخر أعماق الإنسان، يفضي به أحياناً إلى بلوغ هذه الحالات بالذات من الهيستيريا. لكن، لم يقع شيء ممّا توقعته. فقد اكتشفت بأني لم أكن قادراً حتى على القفز من النافذة، وأحرى أن أتعارك، ويُقذف بي عبرها، فانصرفتُ دون عراك مع أي أحد..

وما أن خطوتُ باتجاه الباب الخطوة الأولى للانصراف، حتى ردّني ضابط عسكري إلى المكان، الذي كنتُ أقف جاثماً فيه. كنت منتصباً بجانب مائدة البلياردو، وقد تسببتُ من حيث لا أدري، في إغلاق الطريق أمام المارة. والحال أنّ ذلك الضابط كان في حاجة بالضبط، لكي أوسع له فسحة كي يمر. حينها، أمسكني من كتفي، وأبعدني عن المكان الذي كنت أجثم

فيه، دون أن ينبس بكلمة واحدة، يفسّر لي فيها أمره، أو يحذِّرني بها. بعد ذلك، مرّ إلى حيث أراد، وكأنه لم يلاحظ حتى بأني موجود. كان بمقدوري – لو لزم الأمر – أن أغفر له ما قد يكيله لي من لكمات، إنما أن أغفر له تلك الطريقة التي أبعدني بها عن الطريق، وهو يتجاهل وجودي بشكل كلي، فلن أستطيع أبداً!

رباه! كم كنت مستعداً تماماً، للظفر بمشاجرة عادلة أكثر، بمشاجرة مناسبة أكثر، وأدبية أكثر، لو صحّ هذا التعبير! فقد عوملتُ مثلما تُعامَل أي ذبابة. كان الضابط ضخماً وفارع الطول، وكنت أنا قصيراً ونحيفاً. ومع ذلك، لم تكن المشاجرة تتوقف سوى عليّ أنا: كان يكفيني أن أحتج، ليقذف بي بالتأكيد، من خلال النافذة. لكني غيرتُ رأيي، و... اخترتُ الانصراف، وأنا أتميّز من الغيظ، دون أن ألتمس ما من شأنه أن يُنصِف كرامتي.

خرجتُ من الخمارة مروّع الدواخل ومحيّر البال، وقفلتُ راجعاً إلى البيت مباشرة. وفي الغد، استأنفت تهتُّكي الماجن والحقير، بمزيد من الخشية والخجل والحزن، وقد أوشك الدمع أن ينسكب من عيني، لكني واصلت مجوني على كل حال، ولم أتوقف عنه. ومع ذلك، لا ينبغي أن تذهبوا حدّ الاعتقاد، بأني تراجعتُ أمام الضابط، بسبب الخوف: أنا لم أكن قط جباناً في قرار نفسي، حتى وإن كنت في الواقع، أهرب من المواجهة دائماً. إنما لا تضحكوا مني، إذ لهذا الوضع ما يفسّره. إن لي دائماً، وعليكم أن تتيقنوا من هذا، تفسيراً لكل أمر!

آه! لو كان ذلك الضابط من هؤلاء الذين يقبلون بالمبارزة! لكنه لم يكن مع الأسف من هؤلاء، بحيث إنه كان بالضبط واحداً من أولئك السادة (المُفتقَدين منذ زمن طويل،

للأسف!)، الذين يفضلون استعمال عصي البلياردو، أو يفضلون الانضباط للسّلم التراتبي، مثل الملازم الذي تخيله الكاتب غوغول[٢١]. إن هؤلاء لا يتقاتلون في مبارزة، ويعتبرون بأن من غير اللائق تماماً، النزول إلى مستوانا نحن معشر الفلاحين؛ وأن المبارزة تملك في ذاتها شيئاً من صميم المستحيل، شيئاً من الطيش، وشيئاً من النزق الفرنسي، دون أن يمنعهم ذلك من أن يكيلوا الإهانة للجميع، وخاصة حينما يكونون بقامات فارعة وضخمة.

لكني إن كنتُ ليلتها قد هربت، فليس بدافع الخوف، وإنما لكون اعتدادي بنفسي وزهوي كذلك، ليس لهما أي حدّ حقيقة. ليست قامة الضابط الضخمة والطويلة هي التي أخافتني، مثلما لم يخفني التعرّض للضرب، وأن يُلقى بي من النافذة كذلك؛ كما لم تكن الشجاعة هي التي تنقصني. لقد كنت خائفاً من أن أصير أضحوكة جميع الحاضرين، بدءاً من ذلك الشخص الذي يدير طاولة القمار، وانتهاء بآخر ناسخ كريه الرائحة، وذي الياقة الوسخة، والوجه المبرقع بالبثور، ممّن لن يفهمني، وسيتحلق حولي بكيفية مثيرة للضحك، وسيسمعني أحتج على ذلك الضابط الوقح، وأنا أستعمل لغة أدبية. ذلك أن نقطة الشرف، وأقول بالضبط **نقطة الشرف** وليس الشرف، لا يمكننا في روسيا سوى التحدّث عنها بلغة أدبية كذلك. أما أن نشير إليها بلغة الحديث اليومي، فأمر غير واردٍ. لقد كنت متيقناً تماماً (وها أنذا أشير، رغم نزعتي الرومانسية الكبيرة، إلى الحسن الواقعي!)، من أنهم سينفجرون جميعاً من فرط الضحك، ومن أن الضابط لن يكتفي بتوجيه ضربات لي وحسب، وإنما

[٢١] شخصية خيالية ابتدعها غوغول في نصّ بعنوان: **شارع نيفسكي**؛ إذ بعد أن عوقب، أراد أن يشتكي إلى رؤسائه.

سيُجبرني على اللف والدوران حول مائدة البلياردو، وهو ينزل على مؤخرتي بركلات متتالية، وأنه لن يرحمني بالقذف من النافذة، إلا في ما بعد. بالطبع، لا يمكن لهذه الحكاية المثيرة للرثاء، أن تتوقف معي عند هذا الحدّ. فقد كنت غالباً ما ألتقي بعد ذلك، بالضابط المعني في الشارع، وقد تعرفت عليه، وركزت عليه ملاحظتي، لكن الشيء الوحيد الذي ظللتُ أجهله، هو إن كان هو قد تعرّف عليّ أم لا. أنا لستُ أظن هذا. ذلك واضح من خلال بعض القرائن. ومع ذلك ظللتُ أتفحصه بكراهية. وقد استمر هذا لفترة طويلة... أي، نعم! استمر لعدة سنوات! ومع الزمن، لم تزدد كراهيتي له إلا اشتداداً واحتداداً. في البداية، كنت قد اكتفيتُ بمجرد تجميع بعض المعلومات عنه، بطريقة هادئة. وقد صعُب علي ذلك كثيراً، لأني لم أكن أعرف أحداً، لكن ذات يوم، وبينما أنا أقتفي أثر خطاه من بعيد في الشارع العام، حتى لأمكن لمن رآني على تلك الحال، أن يعتقد بأني مغلول إليه بسلسلة خفية في عنقي؛ إذا بأحدهم ينادي باسمه، فعرفت اسمه بتلك الكيفية. وفي مرة أخرى، كنت أسير خلفه، إلى أن بلغ مسكنه، فتمكّنت من أن أعرف من طريق بواب العمارة، وذلك بفضل بعض القطع النقدية القليلة، أين تقع شقته، وفي أي طابق من العمارة، وهل هو وحيد، أم يعيش مع شخص آخر... إلخ؛ أي إني عرفت باختصار، كل ما يمكن للمرء أن يعرفه من بواب. وذات صباح، وعلى الرغم من كوني لم أمارس من قبل أبداً الكتابة الأدبية، إذا برغبة تستبدّ بي في أن أتخذه بطلاً مسيخاً بصورة كاريكاتيرية، لقصة قصيرة. وهكذا انكببت فوراً على كتابة تلك القصة، وقد غمرتني السعادة. لم أكتفي برسم صورته بكيفية كاريكاتيرية وحسب، وإنما

ذهبت إلى حدّ الوشاية به بشكل موح قليلاً، من خلال تحوير اسمه بكيفية تجعل القارئ يتعرّف عليه للتو، لكنني عدلتُ عن ذلك في ما بعد، عقب تفكير طويل في المسألة، ثم أرسلت القصة إلى مجلة: «حوليات الوطن»[٢٢]. إلا أنّ الكتابة الفاضحة لم تكن في تلك الآونة بالضبط، تقليعة أدبية مطلوبة، وهو ما حال دون نشر قصّتي. وقد أغاظني ذلك كثيراً، وبلغ بي الغيظ أحياناً، إلى حدّ الشعور بالاختناق. لذلك، خلصتُ إلى ضرورة دعوة خصمي في النهاية إلى المبارزة. ودبجتُ من أجله على الفور، رسالة تحدٍّ تدعوه للمبارزة، جميلة وأخاذة، توسَّلت له فيها بأن يقدّم لي الاعتذار، ولُمحتُ له بصيغة شديدة اللهجة، بأني أدعوه في حال الامتناع عن ذلك، إلى المبارزة. وقد بلغ بي الاعتناء بتلك الرسالة مبلغاً عظيماً، إلى حدّ أنه لو لم يتّفق للضابط سوى النزر القليل، ممّا قد يمكنه من إدراك ما هو «الجميل» و«سام»، فإنه حتما سيرتمي على عنقي، ويدعوني كي أكون صديقه. وحينها، ستكون الحياة سعيدة، إن تعايشنا سوية! «سيتولى هو أمر حمايتي بهيئته الوقورة والمهيبة، وسأغدق عليه أنا من فضائل ثقافتي الواسعة، و... من أفكاري؛ ومن ثمة قد تنجُم عن ذلك أشياء، لا يعلم بها سوى الباري وحده!». تصوروا بأن عامين مضيا على إهانته لي، بينما لم تُعَدّ الرسالة التي كتبتها له أنا، سوى تعبير عن مفارقة زمنية مسيخة، رغم البراعة الكبيرة التي أَبَنْتُ عليها في تدبيج أسلوبها، لتعليل تلك المفارقة الزمنية، وإخفاء معالمها، لكنني أحمد الله (وما زلت إلى اليوم أيضاً أحمده

[٢٢] مجلة ليبرالية امتد صدورها من سنة ١٨٣٩ إلى سنة ١٨٨٤، كان القسم الأدبي منها ينشر الأعمال الأدبية لمجموعة من أشهر الأدباء الروسيين، بدءاً من ليرمونتوف. وقد ترأس تحرير مجموع صفحاتها النقدية، في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٨٣٩ و١٨٤٨، الناقد الروسي بيلينسكي. وبالنظر إلى ميولاتها الغربية والثورية، فقد منعت **حوليات الوطن** من الصدور، بأمر من الحكومة الروسية.

تعالى، والدمع يفيض هطالاً من عيني!)، لكوني لم أبعث له بتلك الرسالة. حينما أتصور ما كان بإمكانه أن يقع، لو أني أرسلتها، تسيطر على بدني كله قشعريرة كبيرة. وفجأة... انتقمت فجأة لنفسي، بطريقة أكثر بساطة وعبقرية ممّا نويتُ عمله! لقد خطرت ببالي بغتة، فكرة مشعّة بشكلٍ عال.

يحدثاً لي أحياناً، أن أخرج خلال أيام الأعياد، ما بين الساعة الثالثة والرابعة، للتنزه على جادة شارع نيفسكي المشمسة: أي إني لا أخرج أبداً للتنزه، وإنما لتعريض نفسي لمعاناة آلام غير معدودة، ومكابدة مذلات شديدة، وفورة قلق فظيع. ومع ذلك، ظللتُ أصرّ على الخروج، لأني كنت في حاجة ربما، إلى مثل تلك المشاعر. كنت أندسن مثل حيوان زاحف بين المارة – وما كان ذلك بالأمر الجميل أبداً – متنحياً عن الطريق في كل لحظة وحين، حتى يعبر الجنرالات، وضباط الحريسة، وبعض جنود الخيالة، أو بضعة سيدات؛ وكنت أشعر حينها إذن، المجرد التفكير في **بؤس** هندامي، ولمجرد التفكير في **بؤس** وفجاجة شبحي المندس بين الناس، بمغص شديد يمزق نياط القلب، وبحبّات العرق تنزّ من جهة الظهر، وتتجمع في تلك المنطقة كلها من جسدي. لقد كان عذاباً حقيقياً، وإهانة متواصلة لا تُحتمل، تثيرهما فكرة كوني لستُ وسط كل تلك الأبّهة والأناقة المارة في الشارع، سوى مجرد ذبابة، سوى مجرد ذبابة مقيتة وكريهة؛ صحيح أنها قد تكون أكثر ذكاء وثقافة ونبلاً من بقية الآخرين – وهذا غير مهم – إنما تبقى ذبابة مضطرّة إلى التنحي عن الطريق بشكل دائم، لكي يعبر هؤلاء الذين لا يُتقنون غير إذلالها وإهانتها. ترى، لماذا كنت أزج بنفسي وسط ذلك العذاب كله؟

ولماذا كنت أذهب إلى شارع نيفسكي؟ إني أجهل السبب، لكني مع ذلك، كنت أشعر فقط، بالانجذاب الكبير نحوه، ولا أستطيع سوى فعل ذلك.

لقد شرعتُ منذ تلك الفترة، في الإحساس بتلك النوبات المستلذّة التي سبق لي في الفصل الأول، أن حدّثتكم عنها. بعد مغامراتي مع الضابط، صارت الجاذبية أقوى: كنت في كثير من الأحيان، ألتقي به في شارع نيفسكي تحديداً، وهناك كنت أرصده، وأتأمل فيه. كان هو أيضاً يحل بشارع نيفسكي، وخاصة أيام الأعياد. وكان هو أيضاً يتنحى عن الطريق، ليعبر الجنرالات وأشراف القوم، ويندسن بين هؤلاء مثل حيوان زاحف؛ أمّا الأشخاص الذين ينتمون إلى فئتي، أو حتى الأشخاص الأرقى متى قليلاً، فإنه يسير غير عابئ بشيء نحوهم، وكأنما هو لا يرى أمامه غير الفراغ؛ فلا يتنحى لهم عن الطريق أبداً. وحين أراه مُقبلاً نحوي، وهو على تلك الحال، كان الغيظ الشديد يفترسني، و... أتنحّى له عن الطريق بغضب. كانت فكرة أني لن أستطيع في الشارع، حتى الوقوف على قدم المساواة معه، تعذبني وتؤرقني. وظللتُ أسأل نفسي دائماً، وأنا أصحو من النوم متوفّزاً في الساعة الثالثة صباحاً، وقد تشنجت أعصابي: «لماذا تتنحّى له أنت الأول؟ لماذا أنت، وليس هو؟ ليس هناك أي قانون مكتوب يُلزمك بفعل هذا، أليس كذلك؟ إن بإمكانكما العبور سوية على قدم المساواة، مثلما يحدث مع امرئين محترمين، حين يتقاطعان على جادة مشتركة: يتنحى لك هو قليلاً، وتتنحى له أنت قليلاً، فيمرّ كل منكما في احترام متبادل». لكن، ليس بهذه الطريقة ظل ذلك يحدث: لقد كنتُ أنا في كل الأحوال، هو من يتنحى له عن الطريق، بينما كان هو لا يأبه حتى لما أفعله.

وبينما كنت أقضي سواد الليل في هذه المحاسبة العسيرة للنفس، إذا بفكرة هائلة حقاً تخطر ببالي، على حين غرة: «وماذا لو أني لم أتنحّ له... إذا ما نحن تقاطعنا في الطريق؟ ماذا لو أني لم أتنحّ له عمداً، ودفعته – إن اقتضى الأمر – بمنكبي دفعاً؟ ترى، ما الذي سينجم عن ذلك؟». هذه الفكرة الجسورة انتهت بالاستحواذ عليّ بشكل تام، إلى حدّ أنها أفقدتني الإحساس بالراحة. لقد صرت أتوق بشكل مرعب ومتواصل، إلى أن يتحقق ذلك، فكثفت من خرجاتي إلى شارع نيفسكي متعمداً، حتى أتمثل الكيفية التي سأتصرف بها بشكل أفضل، حين يلزمني التصرف. لقد طار الفرح بعقلي. أو صرت كلما خرجت إلى شارع نيفسكي، بدا لي أن تصميمي على تحقيق الهدف، رصين وقابل للتحقق. «بالطبع، لا يتعلق الأمر بدفعه دفعاً عنيفاً؛ ردَّدتُ في نفسي، وقد هدأني الفرح. لكني سأتصرف معه بهذه الكيفية: بكل بساطة، لن أتنحى له عن الطريق، وسأندفع باتجاهه مباشرة، ولكن ليس بكيفية تكشف عن سوء نية مبيتة بإفراط، وإنما سأكتفي بأن يتماسّ كتفانا، مثلما تفترض الأعراف بالضبط، وهو ما يعني أننا سنفعل وكأنه سيصطدم بي، وكأني سأصطدم به». وأخيراً، قرّ قراري على تنفيذ ذلك المشروع. إلا أن التحضيرات تطلبت مني الكثير من الوقت. فقد لزمني قبل كل شيء، أن أعتني بهندامي عناية فائقة، وهو ما بات يعني إذن، أن أهتم ببذلتي. «فلو حدث صدفة مثلاً، أن نجمت عن اصطدامنا فضيحة علنية (ولا يعدم هنا الجمهور **الفائض عن الحاجة**، إذ تتنزه الكونتيسة بالشارع في مثل تلك الساعة، وكذلك يفعل الأمير د. وجميع أهل الأدب)، لزمني حينها أن أكون بلباس أنيق؛ لأن ذلك سيسبغ على المرء هيبة ووقاراً، ويضعه في أعين علية

القوم، على قدم المساواة مع غريمه المحتمل، بكيفية أو بأخرى». ولتحقيق هذه الغاية، طلبتُ مقدماً عن راتبي، واشتريتُ قفازين أسودين وقبعة مناسبة، من متجر تشوركين «Tchorkine». لقد بدا لي بأن القفازين الأسودين يُخلِّفان أثراً كبيراً من الجدية، ويناسباني بكيفية أفضل من القفازين الصفراوين، اللذين ملتُ نحوهما في البداية. لذلك، ردّدتُ في نفسي، بأن «الأصفر لون صارخ بكيفية مفرطة، وقد يكون كل من يختاره، قد أراد دون شك لفت الانتباه إليه، بشكل جدّ صاخب». لذا، عدلتُ عنه. وكنتُ إلى جانب القفازين، قد وضعت رهن تصرّفي منذ زمن طويل، قميصاً مزرَّراً بعقد عاجية؛ إلا أنّ المعطف هو الذي أخّرني كثيراً. كان المعطف الذي أملكه مقبولاً في حدّ ذاته، لأنه يقيني من لفحة البرد؛ لكنه كان مع ذلك مصنوعاً من القطن، وياقته من فراء الفئران؛ فظل يشبه في ذلك معطف الخدم تماماً. وعليه، لزمني تغيير ياقته مهما كلف الأمر، ووضع ياقة من فرو الكاستور الشبيهة نوعاً ما بما يرتديه الضباط، محل فرائه الأصلي. وهكذا مضيتُ أطوف بين الحوانيت، إلى أن انتهى بي المطاف أخيراً، وبعد بضعة محاولات، إلى تركيز اختياري على الكاستور الألماني الذي لا يكلف كثيراً. هذا الكاستور الذي سرعان ما يحوّل لونه، ويتخذ مظهراً بائساً، يبدو في البداية على كل حال، حين يُقيم المرء على شرائه، مناسباً للمقام المطلوب؛ ثم إني لا أحتاج إليه، إلا لمرة واحدة وحسب. سألت عن ثمنه، فتبيّن لي أنه باهظ التكلفة، رغم كل ذلك. وهكذا قرّ قراري بعد تفكير جادّ في المسألة، على بيع ياقتي المصنوعة من فرو الفئران. أما المبلغ الباقي لتغطية التكلفة، وهو مبلغ مهم بالنسبة إلى وضعي مع ذلك، فقد قرّرت اقتراضه من أنطون

أنطونيفيتش سيتوتشكين، رئيسي المباشر في مكتب القنصلية، وهو رجل لطيف ووديع، لكنه مع ذلك جدّي وإيجابي، لا يقرض المال لأحد، إلا أني عندما عُيّنتُ في مكتبه، كنت موضوع توصية خاصة من شخص أعلى منه رتبة، هو الذي عينني في منصبي، وأوصى بي خيراً. قبل التردّد على مكتب أنطون أنطونيفيتش، عانيت الأمرّين. بدا لي أن التماس المال من ذلك الرجل، أمر فظيع ومخز في الآن ذاته. وبفعل هذا، بتّ لليلتين أو ثلاث، غير قادر على أن يغمض لي جفن؛ زدْ على ذلك أني كنت وقتها، لا أنام إلا الوقت قليل. لقد غشيتني الحمى، وصار قلبي ينقبض حيناً، ثم ما يلبث أن يخفق برجفة شديدة القوة داخل صدري، ويخفق، يخفق!... في البداية، اندهش أنطون أنطونيفيتش للأمر، وقطب حاجبيه بعد ذلك، ثم أخذ يفكر، وبعدها ما لبث أن أقرضني المال، دون أن ينسى بالطبع، أن يجعلني أوقع على صك، تعهدت له فيه باستيفاء الدين من راتبي الخاص، بعد أسبوعين. وبتلك الكيفية، أصبحت جاهزاً. لقد حل فراء الكاستور الجميل محل فراء الفئران البشع، فشرعت في تحقيق خطتي، شيئاً فشيئاً. على أي حال، لم أقوَ على تنفيذ العملية منذ اللقاء الأول مع الضابط: إذ كان ينبغي عليّ التمهل قليلا، وانتهاز الفرصة المواتية بكيفية تكون متقنة، لكن عليّ أن أعترف بأني كدت بعد عدة محاولات، أن أصاب بالإحباط: إننا لم نفلح في الاصطدام بعضنا ببعض، وكفى! إذ شدّ ما تهيأت لذلك، واتخذت جميع الاحتياطات اللازمة، حتى ما عاد يفصلني عن تحقيق مرادي، غير نزرٍ قليل من الحظ والشجاعة. لكن، ما من شيء حصل. فقد تنحيت له في الأخير، كي يمرّ أمامي، دون أن يكترث لي حتى. وبلغ بي الأمر، حين كنا نتقاطع في الشارع،

حدّ التوسّل إلى الرب، كي يمنحني العزيمة القوية والضرورية، كي أنفذ الخطة في حينها، لكن ما من شيء حصل من ذلك. وذات مرة، وبينما أنا على وشك تنفيذ الخطة حقيقة، إذا بي أتهاوى على الأرض في اللحظة النهائية، على بعد خطوتين منه كأكبر تقدير، بعد أن خانتني الشجاعة، ليمرّ هو دون أن يبالي بي. لقد مرّ من فوقي، هادئاً الهدوء كله، في حين أنني شعرتُ وكأني أقذف مثل كرة في اتجاه البعيد. في تلك اللحظة بالذات، عاودتني الحمى، وبتُ ليلتي أهذي، لكن العقدة ما لبثت أن انحلت بشكل مفاجئ بعد ذلك، وعلى الوجه الأفضل. في الليلة السابقة عن تلك النهاية، قررت العدول عن تنفيذ خطتي المشؤومة بشكل نهائي، وترك كل شيء يغرق في العدم؛ اتجهت إذن نحو شارع نيفسكي للمرة الأخيرة، غير عازم على شيء سوى تحقيق غاية واحدة ووحيدة، هي التفكير مليّاً في وضعي، بغية ترك المشروع كله دفعة واحدة. وبينما كنت أمشي، ولا تفصلني عن عدوّي سوى ثلاث خطوات، إذا بي أقرر فجأة، وعلى غير المتوقع، أن أطبق أجفاني، و... اصطدم كتفانا مع بعضهما بعنف! لم أتنحَّ له عن الطريق قيد أصبع واحد، وإنما تقاطعت معه على قدم المساواة التام! لم يندهش هو للأمر حتى، وتظاهر بعدم ملاحظة أي شيء؛ إلا أن ذلك كان شأناً زائفاً، وأنا متأكد ممّا أقول. أنا متأكد إلى حدّ اليوم، مما أقول. بالطبع، أنا من توجّع أكثر جراء الاصطدام، لأنه كان أقوى بنية مني بكثير، إلا أنّ هذا لم يكن هو المهم. ما كان مهماً هو أني حققت هدفي، وأنقذت ماء الوجه، وهو أني لم أتنحَ له عن الطريق بمقدار أصبع واحد، وبأني عاملته أمام الجميع معاملة الندّ للند. وهكذا عدتُ إلى بيتي، وأنا أشعر بأني ثارت لنفسي ثأراً تاماً، ومن كافة ما عانيته

معه. غصتُ في لجة الفرح أسبح. لقد شعرت بأني فزت حقيقة، فصدح فمي بالغناء، وردّدت بعض الألحان الإيطالية. بطبيعة الحال، أنا لن أحكي لكم ما حدث لي بعد ذلك بثلاثة أيام، إذ بمستطاعكم أن تحزروا ذلك، لو قرأتم الفصل الأول من هذا الكتاب، الموسوم بعنوان: «القبو». بعد ذلك، عيّن الضابط في مكان خارج المدينة، فما عدتُ أراه بالكل، منذ أربعة عشر عاماً. تُرى، ماذا يصنع الآن، ذلك الصاحب اللطيف؟ ومن تراه يدوس على جسمه؟

٢

لكن ما أن توشك فترة مجوني القذر الصغير على الانتهاء، حتى أجدني مثبط الهمّة بشكل حادّ. تظل الحسرات تستبدّ بي، فأطردها: لقد كنت أشعر بغثيان مفرط. ومع ذلك، أخذت شيئاً فشيئاً أتعود حتى على ذلك. صرتُ أتعوّد على كل شيء، بمعنى أن ذلك لا يتحول عندي إلى عادة متأصلة حقيقة، وإنما أتحمله بشكل طوعي وحسب، وأصبر عليه. زِدْ على ذلك أنه فضُلَ لي منفذٌ يوفّق بين كل شيء: وهو اللحظة التي ألجأ فيها إلى «الجميل والسامي» عند الحاجة، حتى أستعيد توازني واعتدالي، بمعنى لحظة لجوئي إلى الأحلام بالطبع. لكم كان رائعاً أن أستطيع الاستغراق في الحلم لثلاثة أشهر متتابعة، وأنا منزوٍ إلى ركني الركين! وعليكم أن تصدّقوني إن قلت إني لم أعدْ، خلال تلك اللحظات التي كنت أخلد فيها للحلم، أشبه ذلك السيد بالكل، الذي كان – بقلبه المرتبك الذي يشبه قلب الأفراخ – يثبّت بالإبرة والخيط، فراء الكاستور الألماني على ياقة معطفه. كنت أتحول بشكل مفاجئ إلى بطل، فلو طلب مني صاحبي الضابط فارع الطول في تلك اللحظات بالذات، قبول زيارته لي في عقر

داري، ما استقبلته حتى. ثم إني لم أفلح حتى في تمثّل صورته في ذهني. إنّ ما كانت عليه تلك الأحلام، وكيف سدّت حاجتي، وكيف ظل بمستطاعها إرضائي، هي من الأمور التي يصعُب عليّ اليوم التحدّث عنها؛ لكنها ظلت مع ذلك تكفيني، خلال تلك اللحظات. ثم إنها لا تزال بشكل ما، ترضيني إلى حدّ الآن. كان أعذب الأحلام وأقواها يأتيني بُعيد فترات مجوني القذر الصغير، مصحوباً بنوبات بكاء ولعنات وحماس. أقسم لكم بأني ظللتُ أمرّ بلحظات سُكر حقيقية، إلى حدّ أن تلك السعادة التي شملتني، أفقدتني الرغبة في السخرية بصفة نهائية! لقد عشتُ مشاعر تجمع بين الإيمان والأمل والحب. وكنتُ أؤمن أثناء تلك اللحظات نفسها، وبكيفية عمياء حقيقة، بأن كل شيء سينحل من تلقاء ذاته، وستنفك عقدته بفضل معجزة ما، أو بفعل تدخل ظرفية خارجية ما؛ وبأن أفقاً جديداً سيمتدّ فجأة أمامي، وهو أفق لنشاط آخر نافع، ومُخلص، ورائع، وعلى الخصوص **جاهز بشكل كلي** (أي نشاط هو، بالضبط؟ هذا ما لم أكن أعرفه بالمرة، وإنما آمنت بأنه في الخصوص جاهز بصفة كلية)؛ وحينها، سأخرج من قبوي، وأظهر للعيان في واضحة النهار، حتى وإن لم أمتط صهوة فرس أبيض، ولم يزيّن رأسي إكليل الغار. لم أكن أتصور نفسي ألعب أي دور ثانوي بالمرة، ولعلني لهذا السبب اكتفيت، وأنا هادئ تمام الهدوء، بالنهوض بالأدوار الثانوية والأخيرة في الواقع. لم أكن شيئاً وسطاً بين دور البطل الصنديد في الحلم، وبين القذارة والوحل الخالصين في الحياة؛ وهو ما تسبّب لي في الضياع تحديداً، لأني وأنا أغوص في مستنقع الوحل والقذارة اليوميين، ظللتُ أعزي النفس بالقول إني كنت في لحظات أخرى بطلاً مقداماً، وبأن ذلك

الدور البطولي كفيل بأن يغطي على وحلي وقذارتي. إن الإنسان العادي إجمالاً، يخجل من تعريض نفسه للاتساخ، بينما البطل وهو يطمح إلى تحقيق المراتب العليا، لا يعبأ أبداً بالتعرّض للوسخ والقذارة؛ ومن ثمة أستطيع إذن، أن أتعرض للقليل من الوحل. وأعجب ما في الأمر أنّ هذه الاندفاعات التي تميل باتجاه «الجميل والسامي»، ما كانت تستبد بي إلا في عز لحظات المجون، وفي اللحظات التي أكون فيها تحديداً، قد لامستُ قاع الهاوية. كانت تأتيني هكذا من بعيد، عبر هبّات شعاع صغيرة، إلا أنّ مقدّمها لم يكن يخفّف مع ذلك، من حدّة نزواتي الماجنة، وإنما ظلت تلك الاندفاعات على العكس، تقوّي من حدّة نزوتي، وكأنما يقع ذلك بفعل ما تلحّ عليه بكيفية معكوسة، وما كانت تُظهر إلا ما كان ينبغي لها إظهاره تحديداً، كي يصبح المرق المتبّل للطعام ذا مذاق جيد. وقد ظل ذلك المرق المتبّل لمذاق الطعام يتكون من تناقضات وعذابات، ومن حالات استبطان مؤلمة للنفس؛ وقد أضْفَتْ جميع تلك العذابات الأليمة على مجوني القذر الصغير، بكبيرها وصغيرها، بعض النكهة الحادة، بل وأضفت عليه حتى بعض المعنى؛ أي إنها اضطلعت اختصاراً، بدور المرق المتبّل بالضبط. ولم يخل كل ذلك حتى من عمق معين؛ وإلا لماذا وكيف استطاعت الاكتفاء بمجون صغير قذر، هو مجون بسيط للغاية، وعادي للغاية، ومباشر، من فصيلة مجون كاتب الضبط، وتحملت – وأنا راضٍ – كل تلك القذارة؟! ما الذي كان بمستطاعه إذن، أن يروق لي في ذلك المجون، ويجذبني نحوه بشكل كبير، إلى حدّ أني كنت أهرع للارتماء بين أحضانه، في كبد الليل؟ كلا... لقد كنت في جميع الأحوال، أهيئ لنفسي منفذاً لم يخلُ من بعض النبل، أنفذ منه... لكن ما أعظمه

من حب، يا إلهي، وما أعظم ما ظللتُ أشعر به أحياناً، في لحظات استغراقي في أحلام اليقظة، في لحظات منفذي والبحث عن خلاصي عبر «الجميل والسامي»: بالتأكيد، هو حب وهمي، حبّ لم يلتصق في الواقع بأي شيء إنساني، إنما كانت لدي منه وفرة زاخرة بلغت بي أن لم أشعر بعد ذلك، بأي حاجة ماسة إلى تحقيقه في الواقع: وحتى إن هو تحقق، لن يكون سوى نوع من الترف غير المجدي. أضف إلى ذلك أن كل شيء قد ظل يؤوّل دوماً إلى فن، بنقلة كسلى وثملة: بمعني آنه ينتهي إلى أجمل الأشكال الإبداعية في الوجود، إلى الأشكال الجاهزة تماماً على الدوام، والتي تُستمد من الشعراء والروائيين بقوة، وتُقتبس لألف مطلب ومطلب، ولألف اقتضاء واقتضاء. أحلم مثلاً، بأني انتصرت على الكون بأسره، وأن جميع البشر يجدون أنفسهم بالتأكيد، وقد انسحقوا إلى ذرات غبار، ويضطرون إلى الإقرار بجميع كفاءاتي، فأغفر لهم أنا، أغفر للكل. أو أحلم بأني وقعتُ، أنا شاعر القصر والنبيل الشهير، في شرك الحب؛ وحصلت على ملايين كثيرة، فبادرت على الفور أقدّمها هدية إلى الإنسانية، لأقرّ – وأنا أقف أمام الشعب – بكل عيوبي، التي هي ليست بالطبع عيوباً عادية، إلا أنها تتضمن كمّاً هائلاً من «الجميل والسامي» المسكونين بالجنون، على شاكلة مانفريد[٢٣] (Manfred). فيبكي جميع من كان ينصت إليّ، ويهب إلى تقبيلي (وإن لم يفعل هؤلاء ذلك، فإنهم لن يكونوا غير أغبياء!)، بينما أمضى أنا حافي القدمين وجائعاً، للتبشير بالأفكار الجديدة ونشرها بين الناس، ومحاربة الرجعيين في أوسترليتز (Austerlitz). بعدها، يتم عزف النشيد الوطني

---

[٢٣] إشارة إلى شخصية مانفريد التي ابتدعها بايرون، وهي الشخصية الفخورة بنفسها والتي تعيش العزلة والوحدة، والمستقلة استقلا لا تاما عن الآخرين، والتي تحيا دون كبير اكتراث بأي خطر مهما كان.

الحماسي، ويُعلن عن عفو عام، ويقبل البابا مغادرة روما، للتوجّه نحو البرازيل؛ ثم تقام بعد ذلك حفلة راقصة لفائدة إيطاليا بأسرها، في فيلا بورغيز (Borghese) التي تقع على ضفة بحيرة كوم (Come)، ما دام أن هذه قد نُقِلتْ إلى روما لهذه المناسبة الخاصة؛ بعدها، يجري المشهد في الأدغال، إلخ... إلخ. وكأنكم لا تعرفون ذلك! ستقولون بأن هذا من البذاءة، وبأنّ من المنحط بعثُ كل ذلك الآن، بعد كل تلك الحماسة المشبعة بالثمالة، وبعد كل تلك الدموع التي اعترفتُ بها أنا بالذات. أذلك بذيء ومنحطّ؟ ولماذا إذن، أيها السادة؟ أتظنون أني حقاً أخجل من كل ذلك، وبأن ما حلمت به أغبى من كل ما وقع لكم أنتم في الحياة؟ ثم إن لأرجوكم أن تصدّقوا بأن ثمة أموراً صغيرة، كنت قد تمثّلتها بكيفية جيدة... على كل، لم تحدث الأمور في محيط بحيرة كوم وحدها... إنما الحق معكم: صحيح أن ذلك بذيء ومنحطّ. والأشدّ بذاءة وانحطاطاً هو أني شرعت في تبرير حياتي أمامكم. والأشد بذاءة وانحطاطاً كذلك، هو أني أشرتُ إلى هذه الملاحظة الآن. إنما هذا يكفي! قد لا نخلص من هذا الهراء، وإلا سنظل نسقط في أشدّ البذاءات انحداراً وضحالة.

لم يكن بمستطاعي على الإطلاق، أن أسترسل في الحلم لثلاثة أشهر متتابعة، دون أن أشرع بعدها في الإحساس بحاجة لا تقاوم إلى الاندماج في محيطي المجتمعي. وكان الاندماج في المحيط المجتمعي يعني بالنسبة إلي، زيارة أنطون أنطونيفيتش سيتوتشكين، رئيسي في المكتب. لقد كان الشخص الوحيد الذي تربطني به في حياتي كلها علاقة، وهو الوحيد الذي لا يزال إلى حدّ الآن، يدهشني أنا بالذات، لكنه حتى ولو كان الوحيد الذي أعرفه، فإني لم أكن أزوره

إلا حين تواتيني الفرصة، حين تبعدني الأحلام كثيراً عن الواقع، وأستشعر في نفسي الحاجة الملحّة والفورية لمعانقة الناس، وضمّ الإنسانية جمعاء بين ذراعي. ولأجل هذه الغاية، كان يلزمني أن ألتقي بشخص واحد في الأقل، يكون من لحم ودم. هذا فضلاً عن أنه كان ينبغي عليّ أن أتقدّم لزيارة أنطون أنطونيفيتش يوم الثلاثاء (الذي هو يوم استقباله للزيارات)، ومن ثمة لزمني التوفيق الدائم بين حاجتي إلى احتضان الإنسانية جمعاء، وبين ذلك اليوم بالذات من أيام الأسبوع. وكان أنطون أنطونيفيتش هذا يقطن في حي «الأركان الخمسة»، في شقة تقع في الطابق الثالث، وتتكوّن من أربع غرف صغيرة، وواطئة السقف، وشديدة الصفرة، وتوحي بطابع السكن الفقير. وكانت له بنتان مع عمّتهما، التي تقدّم الشاي للضيوف. وكان للبنتين معاً – التي تبلغ الأولى سنّ الرابعة عشرة، والثانية الثالثة عشرة من عمرها – أنف أشم وطويل، وكانتا تُخجلانني بشكل فظيع، لأنهما تقضيان الوقت كله في التهامس بينهما، وإطلاق ضحكات الاستهزاء. وكنت أنا عادة ما أجد رب البيت جالساً على كنبة جلدية أمام المائدة، برفقة بعض الضيوف المحترمين، الذين يشغلون وظيفة من الوظائف في مكتبنا، أو في مكتب آخر. ولم أكن أجد هناك أبداً، أكثر من ضيفين أو ثلاثة دفعة واحدة، لا يتغيرون بالمرة. أما الحديث الذي يدور بين هؤلاء في هذه الزيارات، فهو إما حديث عن الضرائب غير المباشرة، أو عن حصص المناقصة التجارية في غرفة المستشارين، أو الرواتب، أو الترقيات، أو عن جلالته المعظّم، أو عن كيفية إثارة الإعجاب لدى الناس، وهلم جراً، وهلم جرّاً. وكنت أنا أجد في نفسي القدرة على الصبر، كي أبقى بالقرب من هؤلاء، مثل أي غبي

حقيقي، وأنا أصغي إلى حديثهم، دون أن أتجرأ ولا حتى أن أعرف ما الذي سأتكلم فيه معهم. لقد كنت أتحوّل إلى غبي، فيتصبّب العرق من جسدي، ويجمّدني الشلل الذي يصيبني، إلا أنّ ذلك كان أمراً حسناً ومُجدياً. وحين أعود إلى ركني الركين، أرجئ إلى حين آخر، رغبتي في ضمّ الإنسانية جمعاء بين ذراعي.

وبهذه المناسبة، كان لي أو يبدو أنه كان لي كذلك، واحد من المعارف: اسمه سيمونوف، وهو رفيق قديم لي في أيام الدراسة. إنّ لي دون شك، الكثير من رفاق الدراسة، هنا في بيترسبورغ، إلا أني لا أحتك بهم، بل إني لا أحييهم حتى، حين أتقاطع معهم في الشارع. وإني لأذهب حدّ الاعتقاد بأني ما غيرت الوظيفة، إلا لأتجنّب الوجود معهم في المكان نفسه الذي أعمل فيه، ولأضع قطيعة نهائية مع طفولتي الكريهة. ألا سحقاً لتلك المدرسة التي جمعتني بهؤلاء، وسحقا لتلك السنوات الفظيعة التي قضيتها في المدرسة، وكأني نزيل سجن حقيقي! لقد انفصلت باختصار عن رفاقي، بمجرد ما أن تحرّرت من الدراسة. ومع ذلك، بقي من هؤلاء رفيقان أو ثلاثة، أحييهم حين يحدث لي أن أتقاطع معهم في الشارع. ويعتبر سيمونوف، الذي كان فتي لا يتميز عني في الفصل الدراسي بأي سمة تُذكر، ويتصف بطبع هادى ومتوازن، غير أني لاحظت أنه يتسم بمزاج حرّ، بل وحتى ببعض الاستقامة؛ أحدّ هؤلاء الرفاق القدامى، بل إني أذهب إلى حدّ الظن، بأنه لم يكن بالمرة، شخصاً شديد الغباء. لقد عشتُ معه في السابق، بعض اللحظات الجميلة والصافية، إلا أنها لم تكن قد عمّرت طويلاً، إذ سرعان ما تكدّرت سماءها الصافية، وتخللتها بعض الغيوم. وإني لأعتقد بأن ذكرياته ولا شك، تثقل

عليه، وتزعجه بشكل كبير، وأنه يخشى باستمرار أن أذكره بالزمن القديم. كما لا أشك في أنه ظل يشعر اتجاهي ببعض النفور الشديد، لكني لست متأكداً من ذلك كل التأكّد؛ الشيء الذي حذا بي إلى مواصلة زيارته بين الحين والآخر.

وهكذا حدث ذات خميس، إذ في الوقت الذي لم أعُد فيه أطيق وحدتي، وأعلم أنّ باب شقة أنطون أنطونيفيتش سيبقى موصداً في وجه الزوار، خلال أيام الخميس؛ تذكرت سيمونوف. وبينما كنت أصعد السلالم المتجهة نحو الطابق الرابع، حيث يقطن سيمونوف، إذا بي أفكر في أنّ وجودي سيثقل ولا شك على هذا الرجل، وبأني قد أخطأت أصلاً، لمّا قررتُ الذهاب إلى زيارته. لكن، وبما أن هذا عادة ما ينتهي إلى النتيجة نفسها، التي هي أن ذلك النوع من الاعتبارات لا يزيد سوى في حضّي على حشر نفسي في وضعيات ومواقف ملتبسة – وكأنما ذلك عن عمد – إذا بي أتقدّم نحوه لزيارته في شقته، بعد أن انقطعت عنه مدة عام تقريباً.

٣

وجدت سيمونوف مع رفيقين آخرين من رفاق الدراسة، في الشقة. بدا أنّ الكل يخوض في مناقشة مسألة بالغة الأهمية؛ وبذلك لم يظهر على أنّ هؤلاء قد اكترثوا لمجيئي، وهو الأمر الذي كان يدعو حقاً للاستغراب، خاصة أننا لم نلتق منذ سنوات. كانوا يعدّونني ولا شك مجرد شيء تافه، شيء أشبه ما يكون بذبابة سخيفة؛ إذ رغم تعرضي لكراهية الكل في المدرسة، فإن هؤلاء لم يسبق لهم أن تعاملوا معي بتلك الكيفية، التي عاملوني بها هناك. بالطبع،

أدركتُ بأنهم إن احتقروني في تلك اللحظة، فإنما بسبب إخفاقي في مسار مهنتي، وبسبب كوني أفرطتُ كثيراً في إهمال هيئتي وهندامي، وهو الأمر الذي ظل يشكل بالنسبة إليهم، الدليل القاطع على عجزي وانعدام أهميتي. لكن، ومهما يكن، فإني لم أكن أنتظر من هؤلاء أن يعاملوني بكل ذلك الاحتقار. وقد بلغ الأمر بسيمونوف حدّ الاندهاش لمجيئي. لقد كان من قبل كذلك، دائم الاندهاش لزياراتي. كل هذا أدهشني كثيراً منهم، فجلستُ بينهم وأنا أشعر بالحرج والانزعاج، وأصغي إلى ما كانوا يتداولون فيه.

كانوا منهمكين في نقاش جدّي، لا يخلو من بعض الحرارة والانفعال، حول العشاء الذي سينظمونه في اليوم الموالي، بمناسبة توديع رفيقهم الضابط زفيركوف، الذي سيسافر إلى إقليم بعيد. هذا المدعو بالسيد زفيركوف ظل رفيقي على الدوام، أنا أيضاً. لقد شرعتُ في كرهه بخاصة، خلال الأقسام الدراسية العليا. أما في الصفوف الدنيا، فلم يكن بالمرة سوى صبي لطيف وحركي، يُكنّ له الجميع المحبة والتقدير. وينبغي أن أقول بأني كنتُ أكرهه منذ الأقسام الأولى، لا لسبب آخر سوى لكونه صبياً لطيفاً ومهذباً وحيوياً. كانت دراسته متعثرة، وكنّا كلما كبرنا، إلا وازدادت درجة تعثُّره، إلا أنه أنهى دراسته بنجاح، لأنه ظل يجد مَن يحميه. وكان خلال سنته الأخيرة في المدرسة، قد ورثَ أرضاً تضم مائتي روح[٢٤]؛ وبما أننا كنا فقراء، جميعنا تقريباً فقراء، فإنه أخذ يتفاخر بثروته حتى في حضورنا، وتباهى بما ورث.

[٢٤] هل نحتاج إلى التذكير بأن هذه هي الطريقة، التي يُحدّد بها عدد القِنة أو الأقنان (ج: قِنّ)، والتي يتمّ بناء عليها تحديد أهمية المالك؟! في ما سيأتي من الصفحات، سوف تردُ الإشارة إلى الأمير كوليا، الذي يملك ثلاث آلاف روح.

لقد كان إنساناً مبتذلاً إلى أقصى حدّ، وظل رغماً عنه طيباً، حتى وإن كان يتفاخر أمامنا، ويتباهى بإرثه. ورغم أنّ المظاهر الخارجية، سواء منها الوهمية أو الخطابية، التي تتخذها عندنا مسألة الشرف ومسألة الكرامة الشخصية، فإن الجميع – إلا القلة القليلة – ظل يتقرّب من هذا المدعو بزفيركوف، ويتودّد له، فكان ذلك يدفعه إلى المزيد من التباهي والتفاخر. ولم يكن هؤلاء يتقربون منه تزلفاً، ولا يتودّدون إليه طمعاً في منفعة خاصة، وإنما فقط هكذا، لأنه يبدو في نظرهم إنساناً محظوظاً، «حبَتْه الطبيعة ببعض المواهب الخاصة». أضِف إلى ذلك، أننا كنا نعترف بالإجماع تقريباً، بأن زفيركوف يمثل بالنسبة إلينا، اختصاصياً في النباهة وحسن التصرف. وظلت هذه النقطة الأخيرة تستثير غيظي وحنقي بشكل خاص. فقد كنت أكره نبرة صوته، الحادة والمفعمة بالوثوقية، كما كنت أكره افتتانه ببعض عباراته الخاصة، التي كانت جميعها سخيفة بشكل رهيب، حتى وإن ظل هو لا يجد أي حرج يذكر، حين يسترسل في الكلام؛ وكنت أكره وجهه كذلك، وهو وجه جميل إلا أنه ظل يوحي لي بالبلادة والغباء (لكني وددتُ لو أني قايضته بوجهي المشع بلمحة الذكاء، في سرور)، وأكره كل المزاح الصادر عنه، وهو مزاح يحمل طابع الأربعينيات. وكنت أكره إلى جانب ذلك، حديثه عن فتوحاته المستقبلية إزاء النساء (اللواتي لم يكن يتجرأ بعد على معاشرتهن، لأنه لم يفُز بحظوة وضع شارة الضابط، التي ستزين كتفيه، وهي الشارة التي ينتظرها بفارغ الصبر)، وحديثه عن المبارزات غير المعدودة التي ينوي خوضها. وما زلت أذكر أني كنت ذات يوم – أنا الذي ألزم الصمت دائماً، ولا أنبس ببنت شفة على الإطلاق – قد قاطعته فجأة، وبادرتُ إلى

مشاكسته، حين طفق يتحدّث إلى رفاقه عن مغامراته المستقبلية، خلال وقت الاستراحة الفاصلة بين حصص الدرس، مصرّحاً فجأة لما بلغ به الحماس مبلغاً عظيماً، ليصير مثل جرو يمرح تحت أشعة الشمس، بأنه لن يترك أي فتاة من فتيات القرية تفلت بنفسها منه، لأن وطأهن حق من حقوق السيد على الأقنان، وأن هؤلاء إذا ما تجرؤوا، واستنكروا ما سيقوم به مع فتياتهم، سيجلدهم هو بنفسه، من أولهم إلى آخرهم، وسيضاعف من قيمة الضريبة التي سيطالبهم بها. وبينما كان صعاليكنا الصغار يصفقون لكلامه، انبريت أنا إلى الهجوم عليه، لا إشفاقاً ورحمة مني لتلك الصبايا العذراوات أبداً، وإنما لكون تلك الذبابة الصغيرة قد نالت فقط، الكثير من التصفيق والإكبار من قبل صعاليكنا الصغار. وبذلك نلت منه، وانتصرت عليه. لكن زفيركوف رغم كونه غبياً، فإنه بقي مرحاً ولاذعاً بوقاحته، إذ استطاع الانفلات من ورطته بمزحة، بحيث لم يكتمل انتصاري عليه بالمرة، وانقلب عليّ الضاحكون، وعززوا صفّه. وفي ما بعد، أعاد انتصاره عليّ لعدّة مرات متتالية، ولكن دون نزعة شرّ مكينة، وإنما هكذا بعفوية منه وهو يمزح، ودون أي نية مسبقة، بينما الابتسامة لا تفارق شفتيه. وكنتُ – وأنا أتميز من الغيظ والحنق، وأشعر بالاحتقار لنفسي – لا أردّ عليه بالكل، وإنما ألزم الصمت. وفي نهاية المسار الدراسي، تقدّم نحوي بخطوة متودّدة، فلم أعترض على ذلك أبداً، وإنما جعلني ذلك السلوك أحسّ ببعض الغرور؛ لكننا ما لبثنا أن افترقنا بسرعة، وما عاد أي منا يرى الآخر. بعد ذلك التاريخ، بلغ إلى علمي ما حققه من نجاح، إذ صار ضابطاً شاباً برتبة ملازم أول، وما صار يعيشه من **حياة المجون**. ثم بلغتني

عنه أخبار أخرى، تحكي عن تقدُّمه في سلّم الترقية العسكري. وحين كنا نتقاطع معاً في الشارع العام، لم يكن يحييني أبداً، ممّا دعاني إلى الشك في أنه بذلك السلوك، إنما ظل يخشى أن يُعرّض سمعته للسوء، إن هو حيّى شخصاً وضيعاً وحقيراً مثلي. وذات مرة أخرى، رأيته في المسرح جالسا في شرفة من شرفات الدور الثالث، وقد ازدان صدره ببعض الأوسمة والنياشين. كان يلفّ ويدور بأناقة مفتعلة، حول بنات جنرال عجوز. تغيّر مظهره العام في ظرف ثلاث سنوات، إذ صار متدهوراً رغم احتفاظه على وسامة الوجه، وأناقة المظهر، ورشاقة الحركة؛ لكنه مع ذلك، انتفخ قليلاً، وأخذ يسمن، وهو ما يعطي الانطباع بأنه حين سيقفل سنّ الثلاثين، سيترهّل بشكلي كلي، وسيتراخى معظم جسمه. وإذن، كان رفاقي يريدون إقامة حفل عشاء على شرف زفيركوف، الذي سيرحل أخيراً عن المدينة. ولم يكفّ هؤلاء، خلال تلك السنوات الثلاث الأخيرة، عن التردّد عليه وزيارته، رغم أنهم كانوا يشعرون في قرار نفسهم، بأنهم ليسوا أنداداً له، وهو الأمر الذي كنت أنا واثقاً منه.

كان الضيف الأول لسيمونوف هو فيرفيتشكين، وهو روسي من أصل ألماني، ذو قامة قصيرة ووجه شبيه بوجه القرد، وكان غبياً يسخر منه الكل، وهو أحد ألدّ أعدائي منذ الصفوف الأولى الدراسية، إذ ظل مدّعياً يتشدق في كل وقت وحين، ووقحاً، ويتظاهر بكونه شديد الغضب بخصوص مسألة الكرامة، في حين أنه يعرف في أعماق نفسه أنه ليس سوى مجرد جبان. كما ظل يعدّ نفسه من المعجبين بزفيركوف، ولا يكفّ عن تملّقه، والتزلف إليه بنيّة مبيتة، ويقترض منه بعض المال. أمّا ترودوليوبوف الضيف الثاني لسيمونوف، فكان

شخصية كابية وشديدة الرتابة، لا تكاد تلفت إليها الأنظار أبداً؛ إذ كان عسكرياً فارع الطول، وذا بنية قوية، ويبدو أنه بالأحرى شريف، لكنه لا يفلح في تحقيق سُبُل النجاح بكافة أشكاله، ويبدو أنه لا يجيد سوى الحديث عن الترقيات المهنية. وقد ربطته بزفيركوف آصرة قرابة بعيدة، وهو ما ظل يُسبغ عليه بيننا – وهذا أمر سخيف – شيئاً من الحظوة والمهابة. وقد ظلّ يعتبرني دائماً، شخصاً تافهاً لا قيمة له، ويتحدث إليّ مع ذلك بطريقة ليست غير محترمة بالكل، وإنما مقبولة.

– إن دفع كل منا سبعة روبلات، فإن المجموع إذن، ما دمنا ثلاثة، سيكون واحداً وعشرين روبلاً. قال ترودوليوبوف. وبهذا لمبلغ، نستطيع توفير عشاء محترم. بالتأكيد، زفيركوف لن يدفع شيئًا.

– لأنه بالطبع ضيفنا، قال سيمونوف بلهجة مؤكدة.

– أتعتقدون بحق أن زفيركوف سيتركنا ندفع ثمن العشاء لوحدنا؟ إنه سيقبل دعوتنا له من باب اللياقة، إلا أنه ما يلبث أن يتكرم علينا بعدة زجاجات من الشمبانيا. قال فيرفيتشكين بلهجة الوقح التابع المندفعة، الذي يتباهى بنياشين وأوسمة سيده الجنرال.

– وماذا سنفعل نحن الأربعة، بعدّة زجاجات؟ إن ذلك لكثير علينا. أشار ترودوليوبوف الذي لم يشدّ انتباهه في الحوار سوى الكمية الكبيرة من الزجاجات وحسب.

– حسناً، نحن ثلاثة، وزفيركوف هو رابعنا. إذن، المبلغ هو واحد وعشرون روبلاً؛ أما الموعد فالخامسة مساء بفندق باريس. ختم سيمونوف ملخصاً حصيلة النقاش، بعدما اختير ليكون منظم الحفلة.

– ولماذا تتحدثون عن مبلغ واحد وعشرين روبلاً؟ قلت أنا، وقد سيطر عليّ بعض الانفعال، بل وشعرتُ حتى ببعض الإهانة.. بإضافة حصتي إلى حصتكم، سيكون المبلغ هو ثمانية وعشرون روبلاً، وليس واحداً وعشرين.

بدا لي أن أفضل طريقة للتأثير عليهم وهزمهم، هي الاعتراض على كلامهم بذلك النحو المباغت، وبهذا سيُقهَرون جميعاً، وسأظفر أنا منهم بحقي في التقدير والاحترام.

– ماذا؟! أتريد أنت أيضاً، أن تحضر؟!... سألني سيمونوف باستياء وانزعاج، وقد تحاشى النظر إليّ مباشرة، لأنه كان يعرف من أكون حقاً.

أغاظني منه كثيراً أن يكون على معرفة بمن أكون حقاً، فأجبته:

– ولم لا؟ أنا أيضاً رفيقه. واسمحوا لي بأن أعترف لكم بأني مستاء منكم كثيراً، لأنكم تحاشيتموني، ولم تشركوني في المشورة.

– وأين تريدنا أن نعثر عليك؟ ردّ فيرفيتشكين بلهجة فظة.

– لقد كنتَ دائماً في شنآن مع زفيركوف، أضاف ترودوليوبوف بلهجة محتقنة.

إلا أني كنت مندفعًا، ولا أنوي التراجع، لذلك، أجبتهم بصوت مرتعش، وكأنما حدث لي ما لا يعلم به إلا الله.

– يبدو لي بأنه ليس من حق أي كان أن يحاسبني... ثم إني أريد ربما الآن الحضور معكم إلى حفل العشاء، بسبب ذلك الخلاف القديم بالضبط...

– على كل حال! يصعب على المرء كثيراً أن يفهمك... وأن يفهم هذه المشاعر العالية التي تحركك اليوم!... ردّ ترودوليوبوف ساخرا.

– سنسجّل اسمك، قال سيمونوف حاسماً هذا النقاش، وهو يلتفت نحوي... غداً، على الساعة الخامسة، بفندق باريس ... لا تخطئ الموعد.

– والمال؟!... كان يودّ فيرفيتشكين أن يضيف بصوت خافت، مشيراً نحوي برأسه، كي أضيف حصتي إلى سيمونوف، لكنه توقف عن الكلام، لأن سيمونوف نفسه قد انزعج.

– هذا يكفي! قال ترودوليوبوف، وهو ينتصب واقفاً. إن كان يرغب حقاً في الحضور معنا، فليحضر.

– لكن هذه حلقتنا نحن، وهي حلقة أصدقاء. قال فيرفيتشكين وقد استشاط غضباً، فقام يمسك بقبعته... من قال إنّا نريدك بيننا؟!... هذا ليس اجتماعا رسميا.

ثم خرج الرجلان؛ وأثناء خروج فيرفيتشكين لم يتوجّه إليّ حتى بالتحية، بينما انحنى ترودوليوبوف برأسه انحناءة خفيفة، دون أن ينظر إلى ناحيتي. بدا على سيمونوف الذي

بقيت معه وحيدا، بعض الاندهاش والانزعاج، فأخذ ينظر نحوي نظرة استغراب. لم يجلس، ولم يدعني إلى الجلوس.

– هَمْمْ... أجل... إذن، هل ستمنحني المال الآن، لأتأكد من أنك... قال بصوت خافت ومنزعج.

احمرّ وجهي من شدّة الخجل، لكني تذكرت في الآن نفسه، بأني كنت مديناً له من قبل، ومنذ زمن بعيد للغاية، بخمسة عشر روبلاً، وهو ما لم أنسَه قط، وأنا لا أنسى أبداً، إلا أني لم أدفع شيئا من ذلك بالكل.

– ينبغي أن تقدّر يا سيمونوف، بأني وأنا أدخل عليك هنا، لم أكن أعلم بأنكم... ويؤسفني كثيراً أن أكون نسيت..

– حسناً، حسناً.. ليس لهذا أهمية. غداً، ستدفع في المطعم. أنا ما أكّدت على ذلك، إلا لأني أريد أن أعلم فقط، بأنك... أرجوك...

توقف عن الكلام، دون أن يُتِم الجملة، وشرع يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، في انزعاج بدا كبيراً كذلك. وقد ظل وهو يقطع الغرفة، يضرب الأرض بكعبي حذائه ضرباً قوياً.

– أأحول دون خروجك؟! سألته بعد أن مضت علينا دقيقتا صمت.

– لا، أبداً!... بدا وكأنه يستفيق فجأة، من غفوة... أعني بكل صراحة، نعم... أنت ترى بأن عليّ المضي إلى مكان ليس بالبعيد من هنا... أضاف قائلاً بصوت شبيه بصوت من يعتذر.

– يا إلهي! لكن، لمَ لمْ تقل لي ذلك من قبل؟! قلت وأنا أصيح، ماسكاً قبعتي بحركة غريبة، لم أكن أعرف كيف ندّتْ عني.

– ليس المكان ببعيد... انه علي مسافة خطوتين وحسب.. كرّر سيمونوف على مسمعي، وهو يرافقني نحو الباب بهيئة محتدة للغاية، لم تناسبه بالكل... إذن، نلتقي غداً، على الساعة الخامسة تماماً! صاح بي على السّلم. لقد كان هو في غاية من الفرح لكوني انصرفت، وكنتُ أنا في غاية من الغضب والحنق.

«لكن، ما الذي دفع بي إلى التورط في هذه الحكاية؟! رددتّ في نفسي، وأنا أعض على أسناني، وأجتاز الشارع بخطوات واسعة... ما الذي دفع بي إلى التورط، وبالضبط مع هذا النذل، هذا الخنزير الثخين المدعو زفيركوف؟! بالتأكيد، لا ينبغي عليّ أن أذهب! إني بالتأكيد، لأبصق على ذلك الموعد، الذي قد يجمعني به! ثم ما الذي سيضطرّني إلى أن أحضر؟ ابتداء من صباح الغد، سأخبر سيمونوف برسالة بريدية».

لكن إن كنت قد اغتظت، واشتدت حدّة حنقي، فلأني أعرف مسبقاً بأني سأحضر بشكل مؤكد في الموعد المحدّد، وسأذهب عمداً إلى الفندق؛ إذ بقدر ما كان في ذلك السلوك قلة عقل وحصافة، بقدر ما كان بذيئاً وغير لائق من جانبي، وبقدر ما أسرعت في الاستجابة إليه.

وإن عائقاً إيجابياً آخر كان في صالحي، من شأنه أن يحوْل بيني وبين حضور حفل العشاء، وهو أني لا أملك من المال ما يكفي، إذ كل ما فضُل بحوزتي منه هو تسعة روبلات وحسب، لزمني دفع سبعة منها غداً، إلى خادمي أبولون على سبيل أجره الشهري، لأنه يقيم معي، وينفق على حسابه.

لقد كان من قبيل المستحيل أن لا أعطي أبولون أجرته، بالنظر إلى مزاجه الخاص؛ لكني لن أحدّثكم الآن عنه، وإنما سأترك الحديث عن هذا الوغد، عن هذا البلاء الذي ابتليت به، إلى وقت آخر ربما.

وإلى جانب ذلك، كنتُ أعرف جيداً بأني لن أدفع لأبولون ما في ذمّتي من روبلات، وبأني سأحضر بالتأكيد حفل العشاء.

في تلك الليلة، رأيتُ مجموعة من الكوابيس الفظيعة جداً. وليس في هذا أي غرابة، إذ ضغطت عليّ طيلة المساء، ذكرياتُ تلك السنوات التي قضيتها في السجن المسمّى «مدرسة»، فلم أستطع الانفكاك منه. أودعني هناك بعض الأقرباء، الذين ربطتني بهم صلات بعيدة، وظللتُ رهينة بين أيديهم، إلا أني لم أعُد أعرف عنهم الآن أي شيء. أودعوني هناك، وأنا طفل يتيم، بعد أن سحقتني اتهاماتهم، وصرت أخوض في التأمل الصامت، وألقي على كل شيء من حولي نظرة متوحشة. وبلا رأفة أو شفقة، استقبلني رفاق المدرسة بالسخرية المريرة، لأني لم أكن أشبه أي واحد منهم. لكني لم أتحمل سخريتهم، كما لم أستطع التلاؤم معهم باليسر نفسه، الذي يتلاءمون به بعضهم مع بعض. لذلك شرعتُ منذ البدء في كرههم، وانطويت

بكبرياء جريحة على نفسي، بعيداً عنهم جميعا. لقد كانت فظاظتهم تغيظني؛ إذ يضحكون بسخرية صلفة من وجهي، ومن منظري غير اللائق. لكن، ما أشدّ الغباء الذي ظل يظهر على وجوههم، هم بالذات! لقد كانت مدرستنا تبلد تعبير الوجوه، وتخسف بريقها بكيفية خاصة. فما أكثر الأطفال الصبوحين الذين التحقوا بتلك المدرسة، لكن لا تمضي عليهم إلا سنوات قليلة، حتى تصبح وجوههم منفّرة ومقزّزة! لم يكن عمري حينها يتجاوز السادسة عشرة، ومع ذلك كنت أنظر إليهم بدهشة مفعمة بالكآبة؛ فقد كانت سخافة أفكارهم، واهتماماتهم الحمقى، وضحالة لعبهم وحديثهم، تثير دهشتي وحفيظتي منذ ذلك الوقت. ثمة أمور شديدة الأهمية لا يدركونها، وموضوعات شديدة الإلحاحية والتأثير لا يكترثون لها؛ إلى أن أخذت شيئاً فشيئاً أتعود على اعتبارهم أقل شأناً مني ومكانة. ليست الكرامة الجريحة هي التي دفعتني إلى الإيمان بهذه القناعة – وأناشدكم الله كي تجتنبوا مثل هذه الأفكار، وهي الأفكار القائلة «إني لم أكن أملك سوى الحلم، بينما كان هؤلاء يعرفون حقيقة الحياة». كلا، إنهم لا يعرفون شيئا يذكر، لا عن حقيقة الحياة، ولا عن أي شيء؛ وأقسم لكم بأغلظ الأيمان، بأنّ هذا هو ما بات يغيظني فيهم بالضبط، الغيظ الكبير، بل كانوا على العكس تماماً، يتلقون الواقع الأشدّ بداهة، الواقع الأكثر وضوحاً للعيان، بكيفية من أغبى الكيفيات الواهمة؛ وقد تعوّدوا منذ تلك المرحلة من حياتهم، على أن لا ينحنوا احتراماً وإجلالاً، إلا للنجاح السريع. إنهم كانوا يسخرون بشكل مخجل، من كل ما هو حق تعرّض للانتقاص والإذلال والانسحاق. إن الذكاء بالنسبة إليهم، هو الطاعة والامتثال للسّلم التراتبي

الإداري؛ إذ ظلوا منذ السادسة عشرة من عمرهم لا يحلمون سوى بالفوز بمنصب رفيع. بالتأكيد، ذلك ناشئ في جزء كبير منه عن الغباء والقدوة السيئة، اللتين ظلتا تحيطان بهم أثناء مرحلة الطفولة، ثم مرحلة المراهقة بعد ذلك. لقد كانت أخلاقهم منحلة بشكل شنيع. بالطبع، كان صدورهم عن ذلك من باب التظاهر بمظهر الصفاقة؛ بالطبع، كان الشباب وبعض نضارته يتراعيان عليهم، حتى وإن كان ذلك من وراء أخلاقهم المنحطّة؛ إلا أنّ تلك النضارة بالذات ظلت تبدو منفّرة، ولا شيء فيها يخلب الأنظار، ويجتذبها اجتذاباً، لأنها تعبّر عن نفسها بنوع من الغلظة والبذاءة. لقد كنت أكنّ لهم كراهية بالغة، رغم أني كنت دون شك، أشدّهم سوءاً وقبحاً. كانوا يبادلونني الإساءة والقبح، ولا يخفون الاشمئزاز الذي يشعرون به نحوي، لكني لم أعُد ألتمس منهم محبة ولا صداقة، وإنما كنتُ على العكس من ذلك، لا أتمنى على الدوام سوى أن يتعرضوا للإهانة والذل. ولكي أتخلص من سخريتهم مني، أردتُ أن أصير بشكل مقصود أنجب تلميذ ممكن، فتمكنت من أن أغدو من بين الأوائل. وقد تسبب ذلك في إدهاشهم، وفرض عليهم هيبتي. وإلى جانب هذا، شرعوا شيئاً فشيئاً في استيعاب أني أقرأ الكتب، التي لا يستطيعون قراءتها، وأني صرت أدرك بعض الأمور (التي لا تندرج ضمن مقررنا التعليمي)، وهي الأمور التي لم يكونوا قد سمعوا عنها حتى من قبل، أبداً. لقد ظلوا ينظرون إلى هذا بعين مندهشة وساخرة، لكنهم خضعوا له، وانتكسوا أخلاقياً؛ كما لفت إليّ هذا نفسه أنظار المدرسين بالذات. وبذلك، توقفت السخرية مني، لكن الكراهية بقيت ثابتة، إلى جانب أن علاقات باردة ومتوترة قد قامت بيننا. وهكذا

انتهيت أنا الآخر إلى الإخفاق، إذ كبرت الحاجة عندي مع مرور السنين وتقدم العمر، إلى رؤية الناس وزيارة الأصدقاء. وبذلك، وددتُ لو أني حاولت التقرّب من بعضهم، إلا أن تلك المحاولات التي بذلتها، سرعان ما بدت لي بأنها دائماً مصطنعة، فانتهت إلى التوقف من تلقاء نفسها. وقد أفضى بي الأمر ذات مرة، إلى أن أظفر بصداقة أحدهم، لكنني صرتُ قبل ذلك الحين، مستبداً وغليظ القلب، بحيث إني رغبت في السيطرة على روحه بشكل غير محدود؛ وأردت أن آمره باحتقار كل من يحيط به، فألزمته بمقاطعة بيئته مقاطعة متعالية ونهائية. وقد أرعبته صداقتي الجامحة، ودفعت به حدّ البكاء والتشنج؛ فقد كان فتى ساذجاً ومهيئاً سلفاً لأن يجود بنفسه؛ لكنه حين قدّم إليّ نفسه بشكل كلي ونهائي، كرهته بسرعة، ثم نبذته، وكأن كل ما احتجتُ إليه، هو مجرد الانتصار عليه وإخضاعه، فحسب، لكنني لم أستطع إخضاع الجميع؛ كما أنّ صديقي هو الآخر لم يكن يشبه أي أحد من هؤلاء، إذ كان الاستثناء الأشدّ ندرة. وهكذا، ما أن انتهيت من الدراسة، حتى صار همي الأول والأخير هو التخلي عن المسار المهني، الذي هُيّئت له، حتى أقطع كافة الصلات التي من شأنها أن تربطني بالماضي، وحتى ألعن ذلك الماضي، وأسبل عليه تراب النسيان. إذن، بالله عليكم، أي حشرة لسعتني، فجعلتني أندفع بسرعة، بعد كل هذا، صوب شقة سيمونوف؟! ...

في صباح اليوم الموالي، استيقظت من نومي في ساعة مبكرة جداً وأنا فزع، لأنهض من السرير وقد ارتبكت أشدّ ما يكون عليه الارتباك، وكأن مواعد العشاء قد حل على الفور. ومع ذلك، كنت مقتنعاً بأن ثمة أشياء في حياتي تتبدل، وبأنها حتماً ستتبدل اليوم. ربما النقص في الاعتياد

على الالتزام مع الآخرين، كان هو السبب في ذلك، لكني كنت طوال حياتي، وعند حدوث أي حادث خارجي مهما كان تافهاً ولا شأن له، عادة ما أتوقع بأنه سيغير سير حياتي تغييراً جذرياً. وبالإضافة إلى ذلك، كنت قد ذهبت كالمعتاد إلى المكتب، غير أني غادرته إلى البيت قبل ساعتين عن موعد الانصراف الرسمي، بغية تهيئة نفسي للموعد. «أهم شيء – رددتُ في نفسي – هو أنه ينبغي أن لا أكون أول المدعوين، الذي يصل قبل بقية الآخرين، وإلا سيظنّ الآخرون بأني في غاية السرور لذلك اللقاء». لكن مثل هذه الأمور المهمة حدثت لي آلاف المرات، وحيّرتني جميعها، وشغلت بالي حدّ الاستنفاد. أعدتُ تلميع حذائي بنفسي، لأن أبولون لن يقبل بتلميعه للمرة الثانية في اليوم نفسه، إذ إنه يعدّ ذلك من قبيل الفوضى. وهكذا شرعت في اختلاس ماسحة الأحذية من مدخل البيت، حتى لا ينتبه هو إلى ذلك، وإلا سيزدريني حين يراني ألمع الحذاء بنفسي. بعد ذلك، تفحّصت ثيابي بعناية فائقة، فتبيّن لي أنها بالية ورَثّة وقذرة. لقد أفرطت حقاً في إهمال نفسي. لقد كان بإمكان بذلتي الرسمية أن تقوم مقام تلك الثياب البالية، ما دامت أنها لا تزال لائقة، إلا أن الناس لا تذهب إلى حفلات العشاء بمثل تلك البذلة الرسمية؛ ثم زِدْ على ذلك أنّ سروالها يحمل لطخة صفراء كبيرة، على مستوى الركبة. وقد حدستُ بأن تلك اللطخة لوحدها، ستذهب بتسعة أعشار هيبتي، إن أنا حضرت بتلك البذلة. كما كنت أعلم كذلك العلم اليقين، بأن هذه الفكرة هي في غاية الانحطاط والابتذال. «لكن الوقت ليس للتفكير، وإنما لمواجهة الواقع وجهاً لوجه»، رددتُ في نفسي وأنا أفقد الشجاعة. أدركتُ منذ البداية، بأني أبالغ بشكل رهيب؛ لكن ما العمل؟

لم أكن أقوى على السيطرة على نفسي، وأنا أرتعش من شدة الحمى. بيأس وإحباط، تمثلت في ذهني كيف سيستقبلني ذلك الوغد المسمى زفيركوف؛ وبأي نظرة مفعمة بالاحتقار والبرودة سيرمقني ذلك الحيوان المدعو ترودوليوبوف؛ وأي ضحك وقح ومتعجرف ستخصّني به تلك الذبابة المسماة فيرفيتشكين، حتى يخطب ودّ زفيركوف أكثر؛ وكيف سيدرك سيمونوف كل ذلك من حوله، وهو لا ينبس مع ذلك ببنت شفة، وإنما سيزدريني بسبب ضحالة كبريائي وجبني؛ ولأن هذا سيكون بشكل رئيس شأناً بائساً ومبتذلاً، وليس بالأمر الأدبي بالكل! ومن ثمة، خلصتُ إلى أنه من الأفضل لي، بالتأكيد، أن لا أذهب أبداً إلى الموعد، لكن ذلك كان مستحيلاً بالنسبة إلي، لأنّي كلما انجذبت نحو شيء ما، إلا واندفعت في اتجاهه بشكلٍ كلي، فأصير أسخرُ من نفسي طيلة الحياة، قائلاً: «لكَم ملَك عليك الخوف كل كيانك، إنه الخوف من مواجهة الواقع!». لذلك أردتُ على العكس، أن أبرهن لذلك الوغد بأني لست جباناً، مثلما تصورتُ نفسي، بل ورأيتني أفعل أكثر من ذلك، وأنا في أوج حلمي المحموم بالخوف، إذ غلبتهم جميعاً، وانتصرت عليهم، وفرضت عليهم أن يحبوني – في الأقل «لسمو أفكاري ونبلها، ولروحي المرحة المؤكدة» – وأن يتخلوا عن زفيركوف، الذي سيبقى وحيداً في ركنه، صامتاً وخجلاً من نفسه، بينما أنا أسحقه. بعدها، سأتصالح معه، وسأرفع الكلفة بيننا في الحديث، وسنشرب نخب ذلك؛ إلا أن الأمر الفظيع والمحبط في كل هذا، هو أني كنت في اللحظة نفسها أعلم العلم اليقين، بأنّ ما من حاجة لدي من كل هذا، وبأني في العمق ما كنت أريد سحقهم، ولا إخضاعهم، ولا الانتصار عليهم، وبأني لن

أرضى بالكل، أنا الأول، أن أدفع قرشاً واحداً في سبيل تحقيق هذه النتيجة بالفعل. ولشدّ ما توسلت إلى الله، كي ينتهي ذلك اليوم على وجه السرعة! وهكذا اتجهت صوب النافذة، وأنا في غمرة القلق غير القابل للوصف، ففتحت الكوة، وانبريت أتفحص في حجاب الثلج الذائب الكثيف، الذي كان يتساقط ندفًا ضخمة...

وأخيراً، دقت ساعتي السافلة، معلنَة عن الخامسة. تناولت قبعتي، وتسللت إلى الخارج، مجتنباً النظر إلى أبولون، الذي ظلّ ينتظر منذ الصباح، أن أعطيه راتبه، إلا أنه كان يرفض بكبرياء، أن يبادر إلى الحديث عنه. ثم وصلت إلى فندق باريس، وكأني نبيل حقيقي، بعد أن ركبتُ عربة تزلج فخمة، أديتُ ثمنها خمسين كويكاً، هي كل ما كان معي.

٤

كنت أعرف منذ ليلة البارحة، بأني سأكون أول الحاضرين. لكن، ما عاد من المهم بعد كل هذا، أن يكون المرء أول الحاضرين أو آخرهم.

ليس المشكل هو أني لم أجد أحداً هناك وحسب، وإنما المشكل أني صادفت كل الصّعاب التي يُحتمل مواجهتها، في سبيل العثور على حجرتنا المحجوزة. لم تكن المائدة قد أعدّت بعد، عن آخرها. تُرى ما الذي يعنيه كل هذا؟ بعد أسئلة واستفسارات كثيرة، فهمت من مستخدمي المطعم بأن العشاء قد تمّ حجزه على الساعة السادسة، وليس الخامسة. وقد أكّد لي على ذلك بالقرب من البوفيه. وكنت قبلها قد خجلت من كثرة الأسئلة، التي لاحقتُ بها المستخدمين.

لم تكن الساعة تزيد عن الخامسة وخمس وعشرين دقيقة. لو أنهم غيروا الموعد، لتعيّن عليهم إخباري – إذ ما وُجِدت مصلحة البريد في الأصل، إلا لمثل هذه الأمور! – ومن ثمة، كفوني ما تعرّضت له من مذلة وخزي، سواء مع نفسي أو مع عاملي المطعم. جلستُ إلى المائدة، واستمر أحد النّادلين في إعدادها أمامي، فزاد ذلك من حدّة غضبي وحنقي. وفي السادسة، جيء بشموع أضيفت إلى المصابيح، التي تضيء الحجرة. لم يكن قد خطر للنادل أن يجيء بالشموع، حين وصلت مباشرة. في الحجرة المجاورة لنا، كان هناك زبونان يجلسان إلى مائدتين مستقلتين، انخرط كل منهما في تناول طعام العشاء، بصمت وعبوس ووجه مكفهرّ. وفي حجرة بعيدة جداً، كان يُسمَع صخب كبير وضوضاء، ويُسمَع حتى بعض الصراخ والضحك، وبضعة عبارات ركيكة بالفرنسية، فاستنتجت أنه عشاء برفقة بعض السيدات. وقد تسبّب لي ذلك باختصار، في الشعور بالتقزّز والغثيان. إذ قلما تعرّضت في حياتي كاملة، لمثل ما تعرضت له في هذه اللحظات المقيتة، إلى حدّ أني حين رأيتهم أربعتهم قادمين في الساعة السادسة تماماً، وقد كوّنوا جميعهم مجموعة، شعرتُ للوهلة الأولى بفرح غامر، وكأنما كانوا بمثابة مخَلّصين، فكدتُ أنسى أنه يتعين عليّ التظاهر أمامهم بالاستياء!

كان زفيركوف أولَ من دخل منهم، وقد بدا شبيهاً برئيس جوقة أو جماعة. كان يضحك، ومعه كان الآخرون يضحكون؛ لكنه ما أن رآني حتى استعاد سِمّت الجدّ والاستقامة، وأقبل نحوي دون تعجّل، وقد أحنى جذعه كمن يتظاهر بالغنج، ومدّيده نحوي باحترام غير زائد عن اللزوم، وبلطف مفعم بالحذر أقرب ما يكون من لطف جنرال، وكأنما هو حين مدّ يده

نحوي بالتحية، أراد أن يحمي نفسه من شيء ما. وكنت أنا أتخيل أن يقع منه العكس، أي أن ينفجر فمه بالقهقهة المعهودة فيه حين يراني، وهي قهقهة ضحك حادّ يتخللها ما يشبه الصراخ؛ وأن ينطق فمه حين ينطق، بمزحة من مزاحه الساقط. لمثل هذا هيأتُ نفسي منذ ليلة الأمس، ولم أهيئها بالكل لمثل هذه النبرة الباردة والمتكلفة، ولهذا اللطف المتكبر والمصطنع. أيحسب نفسه إذن، أنه أعلى قدراً ومرتبة مني، وعلى كافة المستويات؟ قلت في نفسي: لو أنه أراد أن يذلّني بمظهر الهيبة، الذي هو مظهر جنرال، لهان الأمر عليّ؛ إذ كنت سأعرف جيداً في هذه الحالة، كيف ينبغي أن أردّ عليه. لكن ماذا سيحدث حقاً، لو أن هذا الغبي تصرف معي بعفوية، ودونما رغبة مبيّتة في إذلالي، وأن كل ما حصل منه ما كان سوى مجرد سلوك تلقائي، صدر عن غبي يتوهم نفسه بشكل غير محدود، أرفع مني منزلة ومقاماً، وأنه لن ينظر إليّ منذ ذلك الحين، بأي طريقة أخرى ما عدا هذه الطريقة، التي تنم عن عطف صاحب المقام العالي، وحمايته لكل من هم أدنى منه مكانة، وأقل رتبة؟! وقد أوشك هذا الافتراض وحده على خنقي.

– علمتُ بدهشة، أنك ترغب في أن تكون بيننا، خلال هذا العشاء. هكذا بدأ يحدّثني بشكل مهموس، وقد اصطبغ صوته بنبرة منغمة، لم أعهدها فيه بالكل... كنتَ تحترز منا، وتتجنبنا... لقد أخطأت... نحن لسنا بالفظاعة التي تتصورها... على كل حال، أنا سعيد بوصلك لما أن-ق-ط-ع...

ثم تحوّل عني بكيفية لا مبالية، ليضع قبعته على مقبض النافذة.

– هل انتظرت طويلاً؟ سأل ترودوليوبوف مستعلماً.

– وصلتُ على الساعة الخامسة تماماً، مثلما اتفقتم معي بالأمس. أجبته بصوت قويّ ومحتدّ، ينذر بانفجار وشيك.

– ألم تشعره إذن، بأننا قد غيرنا الموعد؟ قال ترودوليوبوف، وهو يلتفت صوب سيمونوف.

– لا، لقد نسيت. أجاب سيمونوف، دون أي نبرة آسفة في صوته، ولا حتى أدنى اعتذار. ثم خرج يطلب من مستخدمي المطعم أن يُحضروا أطباق المُقبلات.

– إذن، أنت هنا منذ ساعة، يا مسكين! صاح زفيركوف بصوت ساخر، لأن ذلك من شأنه أن يكون، بالنظر إلى طبيعة ذهنيته الخاصة، مثيراً لضحك كبير.

بعد هذا التعليق، تناهى إلى سمعي ضحك ذلك الوغد المسمى فيرفيتشكين، وهو ضحك بئيس مجلجل وذو احتداد، أشبه ما يكون بنباح جرو. لقد بدا له وضعي محرجاً للغاية، ومثيراً للضحك.

– ليس في هذا ما يستدعي الضحك بالمرة. صرختُ في وجهه، وقد أخذ غيظي يحتدّ. هذا ليس من خطأي أنا، وإنما من خطأ الغير. لقد وقع الإغفال عن إخباري. ثم إن... إن هذا... إن هذا، لمن قبيل العبث!

– ليس من قبيل العبث وحسب، وإنما هو شيء أكبر من ذلك... دمدَم ترودوليوبوف، متصدّياً للدفاع عني بسذاجة. أنت حقاً مفرط في الرقّة واللطف. إن الأمر من غير ما زيادة

ولا نقصان، من قلة الأدب. قلة أدب غير مقصودة، بالطبع. ترى، كيف حصل لسيمونوف أن...؟

عندها، قال فيرفيتشكين:

– أنا إن حصل لي ما حصل، كنتُ...

– كنتَ ستأمر بشرب شيء ما، أو ستشرع في تناول طعام العشاء، دون انتظار أحد. قال زفيركوف مقاطعاً.

– كان بمقدوري أن أفعل ذلك، دون استئذانكم... قلت له مقاطعاً كذلك... لكني إنْ كنت قد انتظرت، فلأن...

– إلى المائدة، يا سادة. قال سيمونوف، وهو يدخل علينا. كل شيء جاهز. أؤكد لكم بأن الشامبانيا مثلجة، مثلما ينبغي لها أن تكون... الحق أني لم أكن أعرف عنوانك، لذا أين كان بإمكاني أن أعثر عليك، كي أشعرك بما حصل للموعد؟!

قال لي ذلك، وقد التفت نحوي بشكل مفاجئ، دون أن ينظر إليّ مباشرة. يبدو أنه كان يحقد علي. من الواضح إذن، أنه بات يفكر في أمري، منذ ليلة الأمس.

جلس الجميع، وجلست أنا كذلك. كانت المائدة مستديرة. جلس ترودوليوبوف على يساري، وسيمونوف على يميني. وجلس زفيركوف في مواجهتي، بينما جلس فيرفيتشكين بالقرب منه، بينه وبين ترودوليوبوف.

– أخبرني أيها العزيز... أتعمل في... الإدارة؟

سأل زفيركوف، وقد واصل الاهتمام بي. لقد قرّر بشكل جاد، لمّا رأى اضطرابي، أن يخفِّف عني وطأة الحرج، بل وأن يشجعني، وينشطني حتى... «ماذا يريد مني هذا الغبي؟ أن أقذف رأسه بزجاجة؟!»، تساءلت، وقد اجتاحني الغيظ والحنق. لعل قلة تعودي على مثل هذه المجالس، هي التي تسبَّبت لي في كل ذلك الاهتياج والاحتداد السريعين.

– نعم... أنا أعمل بإحدى القنصليات. أجبته بصوت جافّ، بينما كنت أحدّق في صحني.

– وهل تجد في ذلك فوائد ومزايا؟ قل لي: ما الذي دعاك إلى هجر منصبك القديم؟

– الرغبة في التخلي عنه هي التي دفعتني إلى ذلك. أجبته، وأنا أمطط النطق بالكلمات، دون السيطرة تقريباً على نفسي. انفجر فيرفيتشكين ضاحكاً؛ وتوقف ترودوليوبوف عن تناول الطعام، فشرع يتفرس فيّ في نوع من الفضول.

اغتاظ زفيركوف قليلاً، لكنه لم يرغب في الكشف عمّا في دخيلة نفسه.

– طيب، طيب... وكيف هي وضعيتك؟

– أي وضعية؟

– أريد أن أقول راتبك.

– أأخضع هنا لاختبار؟!

إلا أني سرعان ما صرّحت بالمبلغ، وقد احمرّ وجهي من فرط الخجل.

– ليس ذلك براتب حقيقي. إنه مبلغ ضئيل. علق زفيركوف قائلاً، بلهجة مشبعة بالوقار.

– أجل. هو مبلغ لا يخوّل لصاحبه حتى تناول العشاء في المطاعم! أضاف فيرفيتشكين بوقاحة.

– من جهتي، أرى أنه الفقر عينه. أضاف ترودوليوبوف بشكل جاد.

– ولشدّ ما نحلت!... ولشدّ ما تغيرت ملامحك!... منذ أن انقطعنا عن رؤية بعضنا... أضاف زفيركوف، لكن دون أي خبث هذه المرة، وإنما من باب الإشفاق من حالي، بينما ظل يتفرّس في ملامحي، ويفحص ثيابي.

– بالله عليكم كفوا عن إرباكه وإخجاله. صاح فيهم فيرفيتشكين ضاحكا في سخرية.

– سيدي الكريم! اعلم أني لا أرتبك أبداً، ولا أخجل أتسمعني؟! أنا هنا أتعشى، في هذا المطعم، على نفقتي الخاصة... أنا من ينفق على نفسه، ولا أحد يتصدّق عليّ. أفهمت هذا... يا سيد... فيرفيتشكين؟!

– ماذا؟! ومن ذا الذي يتعشى منا، على نفقة غيره؟ ربما أنت تريد أن... أجاب فيرفيتشكين، وهو يماحكني، وينظر إليّ بعينين حانقتين، وقد احمرّ وجهه، حتى صار في لون سرطان البحر.

– حسناً! أجبتُ، وقد شعرت في دخيلة نفسي، بأني بالغت في الردّ عليه، بشكل فيه إفراط. أظنّ أن من الأفضل أن نتحدث في أمور تدخل نوعاً ما، في نطاق العقل والذكاء.

– أتريد أن تستعرض أمامنا قدراتك العقلية، وتبيّن لنا بأنك ذكي؟

– اطمئنوا، لا فائدة من ذلك هنا.

– لكن ما الذي دهاك يا عزيزي، حتى صرت توقوق كالديكة؟ أتراك خرفت، وفقدت عقلك بشكل تام في الإدارة، التي تعمل بها؟!

– كفى، يا سادة! كفى! صاح زفيركوف بصوت مشوب بعلامات السلطة.

– يا لغباء كل هذا! دمدم سيمونوف قائلاً.

– بالتأكيد، هذا من قبيل الغباء. فنحن ما اجتمعنا هنا اجتماع الأصدقاء، إلا لكي نودّع واحداً منا، ونتمنى له سفراً سعيداً؛ فإذا أنتم تتشاحنون. قال لودوليوبوف بكيفية فظّة، وهو لا يركز نظراته على أحد آخر سواي. ثم أضاف: أنت من التَمَس بالأمس، الحضور معنا. إذن، في الأقل، لا تفسد علينا صفاءنا وانسجامنا...

– كفى، كفى! صاح زفيركوف. توقفوا عن هذا يا سادة، فإنه لا يجوز. سأحكي لكم بالأحرى، كيف كدت أقع في شرك الزواج، منذ يومين فقط ...

وهنا، أخذ صاحبنا في سرد ما لست أدريه من حكاية سخيفة ومضحكة، عن الكيفية التي كاد بها أن يتزوج، قبل يومين. لم تكن القصة قصة زواج أو شيء من هذا القبيل، وإنما كل الحكاية وما فيها تدور حول كوكبة من الجنرالات، والكولونيلات، واحتي بعض كبار البرلمانيين، الذين يحتل زفيركوف بينهم واسطة العِقد، حتى لا نكاد نقول بأنه كان يتصدّر كافة الأدوار. فشرع الحاضرون في القهقهة، استحساناً منهم وموافقة على ما يقوله زفيركوف، إلى أن بلغ الحال فيرفيتشكين مبلغاً عظيماً، فاندفع ينبح.

تحوّل عني الجميع، وهُجِرْتُ، فبقيت هناك أشعر بالانسحاق والمذلّة.

«رباه! أهذه هي الجماعة التي يمكن أن تناسبني، وتوافقني؟! تساءلت. وأي نموذج من الغباء، قدّمت به نفسي أمامهم؟! ومع ذلك، فقد أفرطت في التسامح مع فيرفيتشكين. إن هؤلاء ليظنون صادقين، بأنهم شرّفوني، فسمحوا لي بالجلوس بينهم إلى المائدة، بينما لا يدركون أني أنا الذي شرّفتهم، وليس هم من فعل ذلك! «لكم نحلت!»، «وبدلتك؟!»... يا لهذا السروال اللعين! تبًّأ! لقد لاحظ زفيركوف منذ حين، تلك اللطخة الصفراء التي تقع عند موقع الركبة... ولكن، ماذا في ذلك؟!... لم يبق لي سوى أن أنهض من مكاني بسرعة، وفي هذه اللحظة بالذات، لأتناول قبعتي، ثم أنصرف هكذا ببساطة، دون التلفظ بكلمة واحدة... احتقاراً لهم!... وليقع في الغد ما من شأنه أن يقع، حتى ولو كان دعوة للمبارزة. يا للأوغاد! على كلّ، أنا غير آسف على روبلاتي السبعة التي ضاعت. أنا غير آسف على روبلاتي السبعة! لسوف آمضي في الحال ! .. »

وبقيت بالطبع، جامداً في مكاني.

ولكي أغرق شعوري بالحزن والألم، أخذتُ أعبّ كأساً تلو أخرى، من شراب اللافيت والكسيريس. لم أتعود من قبل على ذلك أبداً، لذا لعب الشراب بعقلي بسرعة، فتصاعد مبلغ الهمّ والنكد في دخيلة نفسي. وفجأة، خطرت لي فكرة أن لا أبرح المكان، إلا بعد أن أذيق هؤلاء الأربعة، أشد أشكال الخزي والمذلة الممكنة؛ وأن أغتنم الفرصة لأكشف لهم عمّن أكون، وأجعلهم يقولون: أجل، إنه لمثير للضحك، إلا أنه مع ذلك ذكي... و... و... وباختصار، ليذهب جميعهم إلى الجحيم!

وبوقاحة ما بعدها وقاحة، شرعت أتفرّس في وجوههم، بنظرة فيها ازدراء. إلا أنه بدا عليهم أنهم سهوا عني، ونسوني تماماً. كانت الأجواء بينهم صاخبة، وصارخة، ومرحة. واصل زفيركوف سرد قصته، فأخذت ألتقط ما يحكيه. كان يقص شيئاً ما عن سيدة مترفة، اضطرها هو إلى الاعتراف بحبها له (وكان بالطبع يكذب كذباً بيّناً)، مضيفاً أنه تلقى لأجل ذلك، مساعدة خاصة من صديق حميم له، هو أمير شاب يلقب بالفارس الخيّال كوليا، الذي يملك ثلاثة آلاف نفس بشرية.

– ومع ذلك، لم يحضر بيننا اليوم، هذا الشاب المدعو كوليا، صاحب ثلاثة آلاف نفس، كي يودعك!

ألقيتُ بهذه الجملة، وأنا حريص على اقتحام الحديث الدائر بينهم، فخيم على الكل صمت عميق ومريب، امتدّ لبعض الثواني.

– لقد سكرتَ قبل الأوان سكراً بيّناً. تكرّم عليّ ترودوليوبوف أخيراً بالقول، وهو يرمقني بنظرة فيها ازدراء.

كان زفيركوف ينظر إليّ كمن يتفرّس في حشرة، دون أن ينبس بكلمة واحدة. نكَّست بصري، فأسرع سيمونوف في صبّ الشمبانيا في الأقداح. رفع ترودوليوبوف قدحه، فرفع الجميع أقداحهم بعده، سواي.

– على صحتك، ومع أمنياتنا لك برحلة سعيدة! صاح ترودوليوبوف يخاطب زفيركوف. ولنتشرب احتفاء بالسنوات المنصرمة، أيها السادة! وتيمناً بالمستقبل كذلك! هورّا (Hourra)!

أفرغوا أقداحهم دفعة واحدة، وأقبلوا يعانقون زفيركوف، ويقبِّلونه. أما أنا فلم أتحرّك، وظلّ القدح ممتلئاً بالشراب أمامي.

– ألا تريد الشرب، إذن؟ صاح بي ترودوليوبوف بلهجة متوعّدة، وقد بدا أنه فقد الصبر.

– أريد أن ألقي كلمة، على طريقتي الخاصة... وبعدها، سأشرب يا سيد ترودوليوبوف.

– يا لهذا الأقرع القذر! دمدم سيمونوف قائلاً.

انتصبت واقفاً، ورفعت القدح بيد محمومة، وأنا أستعدّ لحدوث أمرٍ غير عادي، دون أن أكون أنا نفسي، قد تمثلت ما سأقوله.

– صمتاً! صاح فيرفيتشكين. سنشنِّف أسماعنا الآن، بعرض موسّع يُطرّزه الذكاء!

كان زفيركوف ينتظر بشكل جادّ ما سأفوه به، وقد توقع ما قد يحصل.

– السيد الملازم الأول زفيركوف، شرعتُ أقول. أعلم بأني أكره الجمل الرنانة، والخطباء المتفاصحين، والكائنات المتملقة... وهذه نقطة أولى، وستليها الثانية.

حدث بين الجميع اضطراب ملحوظ.

– أما النقطة الثانية، فهي: أني لا أكره الهرولة فقط، وإنما المهرولين كذلك، وخاصة أولئك الذين يهرولون مع كل هرولة أو مهرول!

بينما النقطة الثالثة، فهي أني أحب الحقيقة، والصدق، والشرف. تابعت مسترسلاً بكيفية آلية تقريباً، لأني بدأت أشعر بذعر يجمّدني أنا بالذات، دون أن أستوعب جيداً ما كنت أتفوه به.. أحبُّ الفكر يا سيد زفيركوف، أحب الرفقة الحقيقية القائمة على الندِّية والمساواة... وليس... هَمْمْ... أحبُّ... ولكن... أنا أيضاً سأشرب على صحتك، يا سيد زفيركوف. ألا فلتفتن الشركسيات الجميلات إذن، ولتفتك بأعداء الوطن، و... و.. على صحتك، يا سيد زفيركوف!

قام زفيركوف من مكانه، وحيّاني، ثم قال:

– أشكرك الشكر الجزيل.

شعر كثيراً بأنه أهين، حتى إنّ لونه قد شحب.

– تباً له! جأر ترودوليوبوف، ضارباً المائدة بلكمة من يده.

– لا، لا، مثل هذه الأمور يستحق عليها صاحبها لكمة تكسّر فكّه. صرخ فيرفيتشكين عاوياً.

– فلنقذف به إلى الخارج! قال سيمونوف مدمدماً.

– لا كلمة ولا حركة، يا سادة! قال زفيركوف بنبرة تطبعها الأبهة والفخامة، واضعاً بذلك حداً للتذمر العام، الذي شعر به الجميع. أشكركم جميعاً، لكنني سأعرف أنا شخصياً، كيف ينبغي لي تثمين كلامه، وتقديره.

– السيد فيرفيتشكين، سأطالبك منذ الغد، بالتعويض عن الكلام الذي تلفّظت به! قلتُ له بنبرة قوية، وأنا ألتفت نحوه برصانة وحزم.

– أهي دعوة إلى المبارزة؟! إذن، بكل سرور. أجابني فيرفيتشكين، لكن يبدو أن التحذير الذي ألقيت به إليه، كان مثيراً للسخرية والضحك، ويقع على النقيض تماماً من هيئتي، إلى حدّ أن الآخرين – بمن فيهم فيرفيتشكين نفسه – قد انكفأوا على أنفسهم من فرط الضحك.

– لكن اتركوه... فقد بلغ به السكر مبلغاً كبيراً! قال ترودوليوبوف باشمئزاز.

– لن أغفر لنفسي أبداً، كوني أشركته معنا! قال سيمونوف وهو يدمدم من جديد.

«لقد آن الأوان الآن، لكي أقذف وجوههم – لأربعتهم – بقنينة». قلت في نفسي، وأنا أمسك بإحدى القنينات... ثم ملأتُ كأسي منها، إلى أن طفح السائل.

«... لا، الأفضل لي أن أمكث إلى النهاية! استمررتُ أفكر في دخيلتي. ستفرحون أيها السادة، إن أنا انصرفت، وأخليت لكم المكان! لكن، لن يتحقق لكم هذا بالمرة، ومهما حصل! سأبقى هنا عن سبق إصرار، وسأشرب، لأني في حان، ولأني دفعتُ حصتي. سأبقى هنا، وسأشرب، لأني أعتبركم جميعاً مثل بيادق في رقعة شطرنج، مجرد بيادق عديمة الوجود. نعم، سأبقى هنا، وسأشرب... وسأغني إن شاء لي الهوى أن أغني؛ أليس كذلك؟! سأغني، لأن ذلك من حقي... من حقي أن أغني... هَمْمْ!».

لكني لم أغنِّ. حاولت جاهداً وحسب، أن لا أنظر إليهم؛ وأنا أتخذ أشدّ الأوضاع عفوية، وأقصاها لامبالاة بالأعراف المنضبطة، وانتظرت بفارغ الصبر أن يكونوا أول المبادرين بالكلام. لكن، واأسفاه! لم يفعلوا ما انتظرت منهم. ولشدّ ما تمنيت لو أني تصالحت معهم، في تلك الأثناء! لشدّ ما تمنيت أن يقع ذلك! ودقت الساعة الثامنة، ثم تلتها أخيراً التاسعة. بعدها، انتقلوا من المائدة إلى الكنبة. استلقى زفيركوف في وضع المضطجع على ظهره فوق الكنبة، واضعا قدميه على منضدة صغيرة، وضعوا فوقها الشراب الذي نقلوه كذلك معهم؛ وقد أمر لهم زفيركوف حقاً، بثلاث قنينات من الشمبانيا. بالطبع، لم يدْعُني أي أحد منهم للالتحاق بهم، وإنما تحلق الثلاثة الآخرون حول الكنبة التي استلقى فوقها زفيركوف. كانوا يصغون إلى ما يقوله، بشيء أقرب إلى الخشوع. يبدو واضحاً بأنهم يحبونه. «لكن لماذا؟

لماذا؟»، تساءلت في دخيلتي. وكانوا في بعض الأحيان، يقبلون بعضهم بعضاً، وقد عصفت بهم رياح الشكر. كانوا يتحدثون عن القوقاز، وعن حقيقة العشق والتولّه، وعن لعبة الورق المسماة غالبيك، وعن المناصب الأفيد للترقي في الرّتب، وعن إيرادات بودخارجيفسكي (Podkharjevski) الفارس الخيّال، الذي لا يعرفه أي أحد منهم بشكل شخصي، ومع ذلك فقد أسعدهم أن تكون إيراداته ضخمة؛ ويتحدثون عن جمال الأميرة دال وأناقتها الخارقة، وهي الأميرة التي لا يعرفها أي أحد منهم كذلك، ولم يسبق لأي منهم أن رآها في حياته؛ ثم انتهوا بعدها إلى الخلاصة بأن شكسبير خالد دائماً.

ابتسمت في احتقار، وأنا أذرع الحجرة من زاوية إلى أخرى، أمام الكنبة تحديداً، وقد كنت أمشي على امتداد الحائط، من المائدة إلى المدفأة، ثم من المدفأة إلى المائدة. كنتُ أريد بكل قوة أن أبرهن لهم، بأني أستطيع الاستغناء عنهم أيضاً، فظللتُ أمشي عنوة فوق أرضية الحجرة، محدثاً قرقعة مسموعة بكعب الحذاء. ولكن هذا لم يُجْدِ شيئاً. فقد ظلوا غير عابئين به. وجدت في نفسي الصبر الكافي على الذهاب والإياب، أمام أعينهم بالتحديد، من الثامنة إلى الساعة الحادية عشرة، وأنا أتحرك في المكان نفسه، من المائدة إلى المدفأة، ومن المدفأة إلى المائدة من جديد. «ها أنذا أمشي مثلما يروق لي، وليس لدى أيّ أحد منكم، الحق في أن يمنع ذلك عني».
وكان النادل الذي يدخل الحجرة ويخرج منها، وهو يسهر على تقديم خدماته، قد توقف في مكانه يتفحصني، لعدة مرات. أصابني بفعل كثرة الدوران بين المائدة والمدفأة، دوار شديد في الرأس؛ وخيل إليّ للحظات أني أعيش وسط دوامة من الهذيان. وخلال تلك الساعات

الثلاث الطويلة، وجدت نفسي لثلاث مرات، أتفصّد بالعرق، ثم يجفّ عني العرق بالكامل. وكنت في بعض الأحيان، أشعر نتيجة تسلط إحدى الأفكار على ذهني، بما يشبه طعنة خنجر تخترق القلب، وتستقر في غوره، وتذيقني أقصى درجات العذاب والآلام؛ وهي الفكرة التي أتصورني من خلالها أذكر، بعد عشر سنوات، وعشرين، وأربعين، وحتى خلال أربعين سنة؛ أذكر بتقزّز ومذلة، هذه الدقائق الأشد قذارة وسخافة وفظاعة في مجموع حياتي. لقد كان من المستحيل عليّ من قبل، أن أعرّض نفسي للإهانة بشكل طوعي، شديد الانحدار والإسفاف؛ هذا أمر أدركه جيداً، أي نعم جيداً، ومع ذلك واصلت السير بين المائدة والمدفأة دون انقطاع. «آه! لو أنهم يدركون فقط، ما الذي أقدر عليه من عواطف، وما الذي أستطيعه من أفكار، وما الذي أحمله من ذكاء وثقافة!»، كنت أردّد أحياناً في دخيلة نفسي، وأنا أخاطب في صمت تلك الكنبة، حيث يجتمع أعدائي، لكن هؤلاء الأعداء ظلوا يتصرفون، وكأني غير موجود في الصالون. ولم يلتفتوا نحوي إلا لمرة واحدة فقط، حين أخذ زفيركوف يتحدث لهم عن شكسبير، فأطلقت أنا لحظتها، ضحكة احتقار مباغتة. لقد قهقهتُ بكيفية مصطنعة جداً، ومقزّزة جداً، وقذرة جداً، ممّا دعاهم جميعاً إلى التوقف عن الكلام في اللحظة نفسها، وأخذوا ينظرون إليّ في صامت، زهاء دقيقة آو دقيقتين، بسِمْت جاد ومن غير ما ضحك، متتبعين كيف كنت أمشي على امتداد الحائط، من المائدة إلى المدفأة، ومن المدفأة إلى المائدة، وكيف كنت أنا لا أوليهم أي اهتمام. إلا أن ذلك لم يجعلني أظفر بشيء، فمُنيتُ بهزيمة أخرى، إذ

إنهم لم يوجّهوا لي أي كلمة، ثم سرعان ما نسوني بعد دقيقة أو دقيقتين، وانقطعوا عني من جديد. ثم دقت الساعة الحادية عشرة.

– والآن، لنذهب جميعاً إلى هناك، يا سادة! صاح بهم زفيركوف، وهو ينهض من فوق الكنبة.

– بالتأكيد، بالتأكيد! أجاب الآخرون.

التفتُّ فجأة صوب زفيركوف. لقد بلغ بي الإنهاك والانكسار مبلغاً عظيماً، إلى حدّ أني كنتُ مستعداً حتى لذبح نفسي، شريطة أن ينتهي هذا العذاب! كنتُ محموماً، فالتصقت خصلات شعري المبتلة بالعرقي، بجبيني وصدغي.

– إنني أقدّم لك اعتذاري، يا زفيركوف، قلت بصوت حازم وعازم. ولك أنت كذلك يا فيرفيتشكين. ولكم أنتم كذلك، للجميع أقدم اعتذاري. فقد أهنتكم جميعاً.

– أها! المبارزة لا تدخل في اختصاصنا، أم ماذا؟! قال فيرفيتشكين، وهو يهمس بصوت مشبع بالضغينة.

شعرتُ بما يُشبه طعنة خنجر تخترق القلب.

– لا، يا فيرفيتشكين. ليست المبارزة هي ما يخيفني! أنا مستعدّ لها انطلاقاً من الغد، لكن بعد أن نكون قد تصالحنا، بل، إني لأصر على ذلك، وليس بمقدوركم أن ترفضوا. أريد أن أبرهن لكم على أني لست أخاف المبارزة. ستطلق عليّ طلقتك أنت أولاً، ثم سأطلق أنا في الهواء.

– إنه ليسلي نفسه. قال سيمونوف.

– إنه خرّف وحسب، وصار مجنوناً بشكل كلي! ردّ عليه ترودوليوبوف.

– بربك، اتركنا، وتنحّ عن الطريق، فإنك تسدّها علينا! ثم ما الذي تريده منا؟!... أجابني زفيركوف باحتقار.

لقد كانت وجوههم مشبعة بالحُمرَة، وعيونهم تبرق في المعان، فتيقنت من أنهم شربوا كمية كبيرة. قلت:

– إني ألتمس صداقتك، يا زفيركوف. لقد أهنتكَ، وأسأت إليك، لكن..

– أهنتني؟! وأسأت إلي؟! أنت؟! عليك أن تعلم أيها السيد، بأنك لن تستطيع أبداً، ومهما كانت الظروف والأحوال، أن **تهينني**!

– هيا، كفّ عنّا، وتنحّ عن الطريق، ودعنا نمضي! هيا بنا! قال ترودوليوبوف في ازدراء.

– **أولمبيا** لي أنا، يا سادة. اتفقنا! صاح فيهم زفيركوف.

– طيب! طيب! أجاب الآخرون ضاحكين.

وبقيتُ هناك يلطخ كياني الذلّ والهوان، كمن أُشيع تُفالاً وبصاقًا. خرجت المجموعة من الحجرة بصخب وضوضاء، وكان ترودوليوبوف يوقّع لحن أغنية سخيفة. تأخر سيمونوف

لبعض الثواني، كي يقدّم لعاملي المطعم بعض البقشيش. تقدمت نحوه على حين غرة، وقلت له بصوت مشبع بالمفاجأة واليأس:

- سيمونوف! أعطني ستة روبلات!

حدجني وهو في قمة الذهول، بنظرة سخيفة نوعاً ما. كان هو الآخر سكران.

- تريد أن تذهب معنا إلى هناك أيضاً؟!

- أجل!

- ليس معي مال! قال بنبرة قاطعة، ثم اتجه صوب الباب، وهو يضحك في استخفاف.

أمسكته من ذيل المعطف، وقلت:

- سيمونوف! لقد رأيت بأنّ معك مالاً. فلماذا ترفض إذن، أن تمنحني منه؟ هل أنا وغد؟ احذر من منعك المال عليّ: فلو علمت، والله، لو علمتَ لماذا أطلب منك تلك الروبلات الستة! إذ إن كل شيء، كل مستقبلي، كل خططي موقوفة عليها..

أخرج من جيبه المال، ورمى به نحوي، كأنه يقذفني به.

- امسك، ما دام ليست لك ولو ذرّة واحدة من الحياء! همس لي دون إشفاق، ثم انخرط يعدو بسرعة، كي يلتحق بالآخرين.

وبقيت وحيداً للحظة. كانت الفوضى متناثرة حولي: ثمة فضلات الطعام، وشظايا كأس مكسورة فوق الأرضية، وفائض الخمر فوق المائدة، وأعقاب السجائر، والسُّكر، والهذيان في الرأس، والخوف غير المحتمل في القلب، وأخيراً هذا الخادم الذي رأى كل شيء، وسمع كل شيء، وظل ينظر مباشرة في عيني بفضول.

– هناك! صحتُ. إما أن يركعوا لي جميعاً، ويقبِّلوا قدمي، ملتمسين صداقتي، وإما... أني سأصفع زفيركوف!

٥

«ها هي ذي إذن، ها هي ذي إذن، هذه المواجهة مع الواقع». دمدمتُ بالقول، وأنا أنزل السلم. «هذا شيء آخر، غير مغادرة البابا لروما في اتجاه البرازيل، أليس كذلك؟ وغير الحفل الراقص على شاطئ بحيرة كومو، أليس كذلك؟».

ثم اندفعتُ فكرةٌ كالسهم، تنفذ مارقة إلى ذهني: «اذهب أيها الوغد الحقير، إن كنت تقوى على الضحك من جراء ذلك، في هذه اللحظة بالذات».

– نِعْم الأمر هو، إذن! صرختُ مجيباً نفسي. كل شيء الآن ضاع، فلم الاكتراث؟!

كان ثمة أمام درج المدخل، حوذي وحيد يداوم ليلاً، وقد ارتدى عباءةَ سائسٍ ضخمة، ابيَضّ لونُها من فرط تراكم ذلك الثلج الذائب وشبه الدافئ فوقها، الذي استمرّ في التساقط طيلة النهار. كان الجو رطباً وخانقاً، وكان حصان العربة الهزيل والصغير وأشعث الرأس،

قد غطاه الثلج هو كذلك، وأتذكر جيداً أنه كان يسعل. أسرعتُ نحو العربة الخرافية، لكني ما أن دلفت داخلها أنوي الجلوس، حتى تراءت لي صورة سيمونوف، وهو يقذفني بالروبلات الستة، فانتابني انسحاق كلي، لأتهالك على المقعد مثل كيس ثقيل.

– لا... ينبغي أن أبذل الكثير، كي أفتدي كل ذلك، هتفت قائلاً. ولكن، إما أني سأفتديه، أو أموت في الحين، هناك، في هذه الليلة بالذات. هيا، تحرك أيها الحوذي!

انطلقت بنا العربة تسير. وفى رأسي اندلعت زوبعة حقيقية من الأفكار الهوجاء.

«أن يركعوا أمامي ملتمسين صداقتي، أمر لا ينبغي المراهنة عليه. انه سراب، سراب عميم وكريه ورومانسي ووهمي، ودائماً على طراز الحفل الراقص على شاطئ كومو! لهذه الغاية إذن، ينبغي أن أصفع زفيركوف! أنا مكره على صفعه. حسناً! لقد حُسِم الأمر! إني لأتّجه إلى هناك، لأصفعه».

– هيا يا حوذي، اجلد ظهر الحصان!

شدّ الحوذي على عنان الحصان.

«ما أن أدخل عليه، حتى أكرّمه. لكن، أينبغي في البداية أن أفاتحه ببعض الكلام، على سبيل التمهيد؟ لا. سأدخل عليه، وسأكرّمه مباشرة، ودون كلام. سيكون الجميع في الصالون، وسيتمدد هو فوق الأريكة رفقة أولمبيا. يا لتلك اللعينة، أولمبيا! لقد سخرتْ من وجهي ذات يوم، ورفضتني. لسوف أجرّها من شعرها، وسأشد زفيركوف كذلك من أذنيه، وأجره! لا،

سأشده بالأحرى من أذن واحدة، وأطوف به الحجرة كلها. وربما سيوجه لي الآخرون بعض الضربات، وسيقذفون بي إلى الخارج. لكن، ذلك غير مهم! سأكون أنا أول من يرسل الصفعة في البداية، وستكون المبادرة قد تحقّقت معي، وهذا وحده كافي ضمن المقاييس المنظمة لأعراف الدفاع عن الشرف. لسوف يحتسبُ ذلك لصالحي. وعليه، فإن ضرباتهم مهما تكن مؤذية، فإنها لن تمحو الخزي والعار، اللذين سألحقهما به، ولن يتبق له سوى المبارزة. سيتعين عليه أن يدعوني للمبارزة. أما أن يشبعني هؤلاء ضرباً ولطماً وركلاً، فغير مهم! يا لهؤلاء العاقين! إن ترودوليوبوف بخاصة هو من سينزل عليّ بالضرب الشديد، إذ إنه قوي البنية جيداً؛ أما فيرفيتشكين فأنا متأكد من أنه سيمسك بي من الجانب، ويشد على شعري. لكن، كل ذلك ليس مهماً، كل ذلك ليس مهماً! أنا مستعدّ لكل ذلك. فقط، على عقولهم الشبيهة بعقول الحمير، أن تضطر لاستيعاب الجانب التراجيدي في كل هذا! حين سيجرونني نحو الباب، كي يقذفوا بي إلى الخارج، سأصرخ في وجوههم وأنا أقول بأنهم في العمق، لا يساوون حتى أصغر أصبع من أصابعي!».

– هيا، يا حوذي. اجلد ظهر الحصان حتى يسرع أكثر! صرخت.

انتفض الحوذي عندما سمع صراخي، فحرّك السوط. لقد كان صراخي مشحوناً بحمولة لا يُستهان بها من التوحش.

«ستكون المبارزة مع طلوع الفجر. هذا أمرٌ محسوم. لقد انتهى عهد الإدارة، إذن. قبل لحظات، قال فيرفيتشكين «إرارة»، عوض أن يقول «إدارة»! لكن، أين لي أن أعثر على

المسدسين؟ يا للخطأ! لسوف أطلب مقدماً على راتبي، وأشتريهما. والبارود؟! والرصاص؟! تلك أمور ثانوية سيتكلف بها من سيكون شاهداً علينا. لكن، كيف سيكون بمقدوري أن أوفر كل ذلك، قبل طلوع الفجر؟ ومن أين سأعثر على شاهد؟ أنا لا أحتك بأحد، ولا أصادق أحداً»...

«كل ذلك مجرد أمور بسيطة!» أجبت نفسي، وقد احتدم حماسي أكثر فأكثر. «سأطلب من أول عابر سبيل ألتقي به في الشارع، أن يكون شاهداً، وبذلك سيضطر إلى القبول بذلك، إذ المسألة كلها أشبه ما تكون بمن يضطر للغوص في الماء دون تفكير مسابق، كي ينتشل غريقاً رآه بالصدفة يجاهد من أجل النجاة بنفسه. في مثل هذه الحالة، ينبغي القبول بأشد الأمور شذوذاً على الإطلاق. ثم إن حدث لي مثلاً أن التمست من مديري في العمل شخصياً، أن يكون شاهدي لهذه المبارزة، فإنه سيجد نفسه مجبراً على القبول بالتماسي، من منطلق حسّ الفروسية الذي يحرّكه، ومن ثمة سيضطر إلى التكتم على الأمر، بعد ذلك. هذا ما سيفعله أنطون أنطونيفيتش... ».

لكن المشكلة أني سرعان ما أدركت في اللحظة نفسها، وبكيفية أوضح ممّا قد يتضح لأي كان في العالم، بأن كل ما لُكْتُه في قرار نفسي من افتراضات، ليس سوي إسفاف عابث، وانحطاط فظّ وتافه، ومع ذلك...

– هيا، أيها الحوذي القذر. اجلد، اجلدْ!

– آه، سيدي! همس ذلك المزارع قائلاً.

وفجأة سيطر عليّ البرد القارس.

«أليس من الأفضل... أليس من الأفضل لي... أن أقفل راجعاً إلى البيت، مباشرة؟ آه، يا إلهي! لماذا؟ لكن، لماذا دُعِيتُ إلى ذلك العشاء؟ إنما لا، مستحيل! وذلك الطواف الذي استغرق ثلاث ساعات، ذهاباً وإياباً من المائدة إلى المدفأة... من سيؤدي ثمنه؟ لا، إنهم هم تحديداً، وليس أي أحد غيرهم، من ينبغي عليه أن يؤد ثمن ذلك الطواف! إنهم هم من ينبغي أن يغسل ذلك العار!»

– هيا، اجلدْ، اجلد!

«وماذا لو أسلموني إلى الشرطة؟! لن يجرؤوا. سيخشون الفضيحة. وماذا لو أن زفيركوف رفض مبارزتي، بدافع الاحتقار؟! أنا متأكد من أن ذلك هو ما سيقع... لكني حينها، سأبرهن لهم... سأركض إلى أن أبلغ المحطة، في الوقت الذي سيعقد فيه العزم غداً على السفر، وسأمسكه من قدمه، وأنزع المعطف العسكري عنه، حين سيصعد إلى العربة. وسأمسك يده بين يدي، وأعضها بأسناني.

«لاحظوا جميعاً الحدّ الذي يستطيع الإنسان اليائس أن يبلغه! ليس من المهم أن ينهال على رأسي بالضرب، ولا أن يتصدى لي الآخرون باللكمات من جهة الظهر والقفا. سأصرخ في

وجه الجمهور كله قائلا: انظروا كيف بلل بصاقي وجه هذا الجرو، الذي ينوي السفر لإغواء فاتنات الشركس!»

«بالطبع، سيكون كل شيء بعد هذا قد انتهى. إدارتي ستزول من على سطح الأرض. وسيتم القبض عليّ، وأخضع للتحقيق والمحاكمة، وسأطرد من الوظيفة، وسأوضع في السجن، وأرسل إلى سيبيريا منفياً. إلا أن ذلك كله غير مهم! وحين سيطلق سراحي، بعد خمس عشرة سنة من الاعتقال، سأمضي بين الأزقة والشوارع بأثواب رثة، متسولاً الصدقات، وباحثاً عن زفيركوف في جميع أنحاء البلاد. ولسوف أعثر عليه، في إحدى الضواحي. سيكون قد تزوج، وسعد في حياته، وأنجب ابنة كبرى... حينها، سأقول له: «انظر أيها الوحش، انظر إلى خدّي الشاحبين، وإلى أثوابي الرثة! لقد خسرتُ كل شيء، خسرتُ السعادة والفنون **والعلوم والمرأة التي كنت أحبها**، وهذا كله بسبب غلطتك. ها هما المسدسان. لقد جئت لأفرغ مسدسي، و... أغفر لك كل شيء». وعندها، سأطلق الرصاص في الهواء، وأختفي من أمامه، دون أن أترك أثراً ورائي... ».

كنت قد شارفتُ على البكاء، إلا أني في اللحظة نفسها كنتُ أعلم بأن كل ذلك، لم أستمدّه سوى من شخصية بوشكين القصصية المسماة «**سيلفيو**»، ومن مسرحية «**الحفل التنكري**» التي كتبها لرمينتوف[٢٥]. ثم إذا بموجة من الخجل تغزوني على حين غرة، وكان خجلاً رهيباً

[٢٥] «سيلفيو» شخصية قصصية وقعت الإشارة إليها في إحدى قصص بوشكين الصادرة في مجموعة **قصص بييلكين**، وبالضبط في القصة التي تحمل عنوان: **طلقة رصاص**. أما **الحفل التنكري** فهي مسرحية درامية مشهورة للكاتب الروسي ليرمونتوف.

وقوياً إلى حدّ أنه دفع بي إلى إيقاف الحصان، لأخرج من العربة، وأمكث جامداً في الثلج، وسط الشارع. اندهش الحوذي لمنظري، فزفر زفرات عميقة دون أن يحيد عني بنظراته.

«ماذا عليّ أن أفعل؟ أن أذهب إلى هناك؟ هذا مستحيل... ستكون حماقة من الحماقات. وهل عليّ أن أبقى هنا؟ هذا مستحيل كذلك، إذ لا ينبغي لي أن أتخلى عن ذلك عند هذا الحد، وإلا فإن الأمر سيكون... رباه! كيف يمكن لي التخلي عن هذا، بعد جميع تلك الإهانات؟!».

– لا، صحتُ قائلاً، وأنا أندفع من جديد نحو العربة، وأستلقي على المقعد: إن ذلك قدري، ومصيري المحتوم! هيا يا حوذي، اجلد، اجلدْ.

وفي ذروة نفاد صبري، وجُهتُ لكمة إلى قفا الحوذي.

– ما الذي حدث لعقلك يا هذا، حتى تمدّ يدك إليّ بالضرب؟! صرخ ذلك البدوي في وجهي، لكنه أخذ مع ذلك في ضرب الحصان بضربات قوية من سوطه، ليرفع هذا من سرعته.

كان الثلج الذائب يتساقط على شكل ندف ضخمة؛ ومع ذلك فتحت أزرار معطفي، من غير أدنى اكتراث للثلج! لقد نسيت كل شيء، لأني قررت بشكل كلي ونهائي أن أصفعه، مستشعراً في ذعر بأن ذلك **سيحدث لا محالة فوراً، وبأن ما من قوة ثمة في الوجود، بمستطاعها أن تحول دون وقوعه بالمرة.** كانت المصابيح وحدها، في الأزقة والشوارع الخالية، توزِّع ضوءها الكابي على الظلمة المثقلة بالثلج، حتى إنها كانت تشبه مشاعل موكب جنائزي.

ظلّ الثلج يتراكم تحت معطفي وتحت ردينغوتي «redingote»، ويذوب تحت ربطة عنقي؛ ومع ذلك، لم أعقد أزرار المعطف، ولم أتدثر به، إذ كان كل شيء بالنسبة إليّ، قد ضاع!

أخيراً وصلنا. قفزاتُ من العربة، وأنا في حالة أشبه بمن فقدّ الوعي. صعدتُ درجات السلم، وأخذت أقرع دفة الباب، بيدي وقدمي. شعرت بإنهاك شديد على مستوى الساقين، وتحديداً عند الركبتين. وبسرعة، فُتِح الباب بكيفية غريبة، كأن هناك من توقع مجيئي في ذلك الوقت. (كان سيمونوف بالفعل، قد أبلغ أهل المحل بأن أحدهم سيحلّ بين لحظة وأخرى، لأن السماح بدخول المحل، يحتاج إلى سابق إشعار. ومن ثمة، فإنه حتى يتحقق، يحتاج عموما إلى اتخاذ بعض الاحتياطات. وكان المحل وقتها من «محلات الموضة»، التي أغلقتها الشرطة منذ زمن طويل. يتخذ في النهار شكل متجر حقيقي، أما في الليل فإنه يتحول في الخصوص، بعد أن تتم التوصية من جهة معينة، إلى مكان للزيارات الليلية المريبة). اجتزت المحل الغارق في الظلمة بخطوات سريعة، كي أصل إلى صالون غير مضاءٍ ولو بشمعة، كنت أحفظ من قبل طريقه. ثم إذا بي أتوقف وأنا مبهوت: لم يكن هناك أي أحد.

– أين هم، إذن؟ سألت أحدهم.

لكنهم بالطبع وجدوا الوقت الكافي، ليختفوا...

كانت صاحبة المحل بنفسها تقف أمامي، وهي امرأة تعرف قليلاً من أكون، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة بلهاء. بعد ذلك بدقيقة واحدة، انفتح الباب، ودخل شخص آخر.

ودون أن أنتبه إلى أي شيء، ذرعتُ الحجرة جيئة وذهاباً، وأنا أعتقد بأني كنت أحدِّث نفسي. لقد تراءى لي بأني نجوت من الموت، وهو الأمر الذي سعد له كل كياني: إذ إني بالتأكيد لو وجدته هناك، لكنت أكرمته بصفعة!... نظرت من حولي. لم أفلح في استعادة وعيي بما حدث. رفعت بكيفية آلية عيني، وركزتهما على تلك الفتاة الشابة التي دخلت علينا، منذ قليل. وفي لمحة بصر، رأيت أمامي وجهاً نضراً فيه شباب وبعض الشحوب، وجهاً بحاجبين مستقيمين وداكنين، ونظرة جادة هي نظرة من أصيب نوعاً ما، بدهشة. وبسرعة، راق لي كل ذلك، إذ إنها لو ابتسمت في وجهي، لكرهتها. ركزت عليها نظراتي المتفحصة، التي امتلأت بالمزيد من الاهتمام وبنوع من الجهد، وكنت لا أزال لم أستعد أفكاري بعد. كان ثمة شيء من البساطة والطيبوبة في ذلك الوجه، إلا أنه شيء جاد جداً إلى حدّ الغرابة. أنا متأكد من أن هذا لم يكن ينفعها في شيء هنا، وبأن ما من أبله أو غبي، كان سيلاحظ ذلك. أما الباقي، فلا يمكن لأي أحد أن يدّعي بأنها جميلة، حتى ولو أنها كانت فارعة الطول، وذات بنية قوية، وما من عيب بها. كانت ترتدي بكيفية بسيطة للغاية، وقد شعرت بشيء رديء يعضني، فمشيت أقصدها مباشرة...

ورأيت صورتي بالصدفة، وقد انعكست على صفحة المرآة. كان وجهي المضطرب قد بدا لي مقززاً إلى أبعد حدّ: شاحباً كان، وشريراً، ومنفراً، ومشعثاً كان شعري. «هذا أفضل، وأنا مسرور لذلك، ولسوف أستثير تقززها، وذلك يسعدني...».

٦

في مكان ما من الجهة الأخرى للحاجز، كانت إحدى ساعات الحائط تحشرج، وكأنّ أحدهم نزل بكامل ثقله عليها، أو كأنّ هناك من شدّ بقوة على خناقها. هذه الحشرجة التي طالت مدة كبيرة، أعقبتها رنة بوق حادّة ومزعجة وسريعة بشكل غريب، حتى ليظنّ من سمعها بأنّ شخصاً ما قد دُفع به منها على حين غرة. ما فتئت الساعة الثانية بعد منتصف الليل أن دقّت. عدتُ إلى وعيي، إلا أني لم أكن أنام بالمرة، وإنما كنت أتمدّد على الفراش وحسب، في ما يشبه حالة سهو.

في غرفة ضيقة وواطئة السقف، تزدحم بها خزانة ملابس كبيرة، وبعض العلب الكرتونية، وبعض الخرق، وبعض الصناديق التي وضعتُ بها الثياب، كانت العتمة شبه مطلقة. أوشك ما تبقى من الشمعة المشتعلة، التي وُضِعت على الخوان في الركن الآخر من الغرفة، على الانطفاء بشكل تام، حتى لم يعُد يصدر عنها سوى شعاع باهت، لا يكاد يتوهج بين لحظة وأخرى، حتى يخفت، ويكاد يخبو. لا شك أن عتمة حالكة ستحل، بعد بضعة دقائق.

تطلّبت مني العودة إلى وعيي بعض الوقت، فتذكرت بدفعة واحدة كل شيء، وبلا أدنى جهد يذكر، وكأنّ ذلك ظل يكمن لي، ويترصّد صحوي، بل إني حتى في اللحظة الشبيهة بالسهو، التي انتابتني قبل استعادة الوعي، بت أحتفظ وبلا انقطاع في ذاكرتي، بما يشبه نقطة لم يكن بوسعي نسيانها بالمرة، فظلت جميع أفكاري الحالمة تدور حولها بكيفية مزعجة، لكن كل ما

حدث لي يومها، وهذا شيء غريب، كان قد بدا لي أثناء تلك اللحظة التي استعدت فيها صحوي، وكأنما هو شيء مضى، وانقضى منذ عهد سالف، وكأنما أنا انقطعت عنه منذ عهود طويلة.

كان رأسي يلتهب من فرط الكحول. وبدا لي أن شيئاً ما يحلق فوقي، شيئاً ما يرتطم بي، ويصدمني، ويملأني بالحيرة وانشغال البال. عاد القلق والغضب يغليان في دخيلة نفسي، ويبحثان لهما عن منفذٍ، كي يتسربا منه. فجأة، رأيت بالقرب مني عينين مفتوحتين على سعتهما، تحدّقان فيّ بنوع من الفضول. كانت نظراتهما باردة، ولا مبالية، وكئيبة، وغريبة بشكل مطلق. كانت نظرات تُحدث في النفس، شعوراً بالضيق والانزعاج.

وفي الحال، انتابت ذهني فكرة غامضة، ما لبثت أن ولدتُ في كامل جسمي شعوراً بالنفور، أشبه ما يكون بذلك الشعور الذي ينتاب المرء، حين يدخل إلى قعر قبو مشبع بالرطوبة والاختناق، لكن ما لم يبدُ لي طبيعياً، هو أن تينك العينين لم تفكرا في التحديق فيّ، إلا في تلك اللحظة بالضبط. وأذكر كذلك أني لم أتبادل مع تلك الكائنة، التي باتت تتفحصني، ولمدة ساعتين كاملتين، ولو كلمة واحدة؛ إذ لم أرَ أن الحديث حينها كان شيئاً مفيداً؛ بل إني ألفيت لحظتها في الصمت شيئاً رائقاً، دون أن أعرف لذلك سبباً يذكر. وفي تلك الأثناء، استحوذت عليّ بشكل فجائي وسريع، فكرة عبثية كريهة وأشبه بعنكبوت، تشير إلى أن المجون الخالي من مشاعر الحب، والفاحش، والسفيه، يبدأ مباشرة بما ينبغي أن يُتوّج تجربة الحب الحقيقية.

واصلنا النظر بعضنا إلى بعض لفترة طويلة، لكنها لم تغض من بصرها، ولم يتغير شيء من نظراتها، إلى أن شعرتُ في النهاية، بخوف غير متوقع ينتابني.

– ما اسمك؟ سألتها بصوت فظ ومباغت، وقد نفد صبري.

– ليزا. أجابت هامسة تقريباً، لكن من غير لطف في نبرة صوتها، ثم أشاحت عني بنظراتها.

مكثت صامتاً لفترة، ثم همستُ لها، وكأني أهمس في يأس وانزعاج تقريباً لنفسي، وقد شبكتُ ذراعي وراء قفاي، وأخذت أحذق في السقف:

– يا له من طقس هذا اليوم!... ثم إن هذا الثلج... لشيء مقزز!

لم تُجِب بأي شيء. كان كل ذلك رهيباً وفاضحاً.

– هل أنتِ من هنا؟ سألتها بعد مرور دقيقة على ذلك، وقلبي يغلي بالسعار تقريباً، وأنا ألتفت برأسي وحده ناحيتها.

– لا.

– من أين؟

– من ريغا. أجابت مكرهة.

– أأنت ألمانية؟

– روسية.

– أتقيمين هنا منذ مدة؟

– ماذا تقصل بـ (هنا)؟

– في هذا المحل.

كانت تجيب دائماً بصوت فظ ومباغت ومتقطع. وفي تلك اللحظة، انتهت الشمعة بالذوبان، فعمّت الظلمة، ولم أعُد أستطيع تمييز ملامح وجهها.

– هل لا يزال والدك ووالدتك على قيد الحياة؟...

– نعم... لا... بلى.

– وأين هما؟

– هناك... في ريغا.

– ومن يكونا؟

– مثل جميع الناس...

– كيف هذا: مثل جميع الناس؟! من أي فئة[٢٦]؟

– تجار.

[٢٦] من المعلوم جداً أن الشعب الروسي كان مقسماً إلى فئات اجتماعية، من قبيل فئة النبلاء، والبورجوازية الصغرى، والتجار، والفلاحين... إلخ.

- وهل كنتِ دائماً تعيشين بينهما؟

- نعم.

- كم سنلث؟

- عشرون سنة.

- ولماذا تخليت عنهما؟

- هكذا...

هذه الـ «**هكذا...** » كانت تعني: حُلّ عني، ودعني في سلام، وهو الأمر الذي جعلني أمرض. بعدها، صامتنا عن الكلام.

الله وحده هو الذي يعلم لماذا لم أغادر. أنا نفسي كنت أشعر كذلك بالمزيد من الخوف والكآبة. فقد ظلت صور ما حدث بالأمس، وكانت تنبثق من الذاكرة بكيفية غير إرادية، تتلاحق أمامي من غير انتظام، وكأنما هي تستجيب في ذلك، لمحض إرادتها بالضبط. فجأة، تذكرت مشهداً كنت قد رأيته في الشارع هذا الصبح، حين كنت مثل جرذٍ مهموم، أعُدّ الخطى باتجاه مقر العمل.

– رأيتُ هذا الصباح أناساً يُخرجون جثماناً من أحد البيوت، وكادوا يتركونه يقع على الأرض. قلت بصوت مرتفع ومتقطع، ودون أي رغبة في بدء الحديث بيننا، أو أن أقصد إلى ذلك قصداً.

– جثمان؟!

– أجل، بساحة لوفوان. كانوا يخرجونه من قبو...

– من قبو؟!

– لا، من مسكن تحت أرضي... من تحت... من تحت بيت رديء... مثل ذلك المسكن الوسخ، تنتشر كل أشكال الزبالة حوله... قشور القمامة، والحراشيف، والأوساخ... فتنبعث من ذلك رائحة عطنة... إنه لأمر مقزز... وشيء رديء..

ثم خيّم علينا صمت.

– فظيع أن تُقام اليوم عملية دفن. استأنفت أقول مرة أخرى، لا لشيء سوى كي لا أبقى صامتاً.

– فظيع من حيث ماذا؟

– من حيث الثلج، ومن الوحل... (ثم تثاءبت).

– ليس في ذلك بأس. قالت فجأة، بعد صمت.

– بلى، الأمر فظيع... (وتثاءبت مرة أخرى). مؤكّد أن يكون حفار القبور قد أرغى وأزبد في البداية، إذ الثلج يبلل كل شيء. ولا شك أن الحفرة قد امتلأت بالماء.

– ولماذا ينبغي أن يكون الماء في الحفرة؟ سألتْ في نوع من الفضول، ولكن بصوت لا تزال نبرته فظة ومتقطعة، مثلما كانت من قبل. وقد أحسستُ أنا فجأة، بشيء ما يدغدغني.

– هكذا هو الأمر. ثمة ماء في العمق، ماء لا يقل ارتفاعه عن ستة أشبار. هنا، في مقبرة فولكوفو[٢٧]، من المستحيل أن يحفر المرء قبراً ويجد به تراباً جافًا.

– ولماذا؟

– لماذا؟! لأن المكان رطب. ثمة في كل مكان جداول وغدران. إن الجثامين لتوضع وسط برك مائية... إني رأيت ذلك بنفسي... وفي مرات كثيرة..

(في حياتي كلها، لم أرَ ذلك أبداً؛ بل إني ما كنت قد رأيتُ بالكل، حتى مقبرة فولكوفو نفسها، وإنما سمعت عنها وحسب).

– ألا يهمك أن تموتي، حقاً؟

– ولماذا يجب أن أموت؟ أجابت، وكأنها تدافع عن نفسها.

[٢٧] فولكوفو مقبرة تقع في جنوب مدينة بيترسبورغ.

– في يوم ما، سيكون عليك أن تموتي... ستموتين بكل تأكيد، مثل فقيدة هذا الصباح... لقد كانت هي كذلك فتاة شابة... لكنها ماتت بداء السل.

– لو أنها بنت لماتت في المستشفى...

(إنها لتعلم مسبقاً بالأمر، قلت في نفسي؛ ثم إنها قالت بنت، ولم تقل فتاة شابة!).

– كانت تدين لصاحبة المحل التي تعمل فيه ببعض المال. (أجبتها قائلاً، وقد تحمّست أكثر لهذا النقاش). ظلت تخدمها إلى آخر نبض في حياتها، رغم داء السل. كان ثمة حوذيون كُثر يتحدثون إلى بضعة جنود. من دون شك، هؤلاء كانوا من أصحابها. ذلك أضحكهم. وقد عزموا الأمر حتى على إقامة حفل عشاء، حداداً على الفقيدة، في أحد المطاعم (في هذا أيضاً، افتريت عليها افتراء، وأنا أحاول جاهداً أن أنمق كلامي).

ساد بيننا صمت. وكان صامتاً ثقيلاً وطويلاً. في حين أنها لم تتحرك حتى.

– وفي المستشفى، هل تظنين أن الموت سيكون أفضل؟

– ذلك سيان عندي... ثم لماذا ينبغي عليّ أن أموت؟ أضافت بصوت منزعج.

– ليس الآن ستموتين، وإنما في ما بعد.

– ولو كان في ما بعد.

– إنك لواهمة! أنت الآن لا تزالين شابة وجميلة ونضرة، ولا يقدرّك الناس إلا لهذا بالضبط. لكن، بعد سنة واحدة على مثل هذه الحياة التي تحيينها هنا، لن تبقي أنت هي أنت أبداً، بل ستتغيرين، وستذبلين.

– بعد سنة؟!

– على كل حال، قيمتك ستبخس بعد سنة. واصلتُ معها الحديث بفرح ماكر. ستتركين هذا المحل، لتحلي بما هو أدنى منه وأحطّ. وفي السنة الموالية، ستعملين بمحل ثالث، سيكون دائما أدنى وأحطّ من سابقه. ثم بعد ذلك بسبعة أعوام، سينتهي بك الطواف إلى ساحة لوفوان، لتقيمي في أفضل الأحوال، بقبو من أقبيتها القاتمة. إلا أن المصيبة كل المصيبة، هي حين ستكتشفين فيك علة من العلل، التي لست أدري ما هي بالضبط، كأن تشعري مثلاً بإنهاك فظيع على مستوى الصدر... أو أن تحل بك نزلة برد، أو ما لست أدريه من علل أخرى. إن العلاج من الداء، في مثل هذه الحياة التي تحيينها، مسألة مكلفة بشكل كبير. إذ ما أن تمرضي، حتى يلازمك المرض، فلا يكون في يدك من وسيلة أخرى للتخلص منه. ومن ثمة، ستموتين.

– إذن، فلأمُتُ!... هذه المرة، خانتها حركة انفعال صغيرة، كشفت عمّا اعتمل بداخلها من حنق وغيظ.

– سيكون ذلك أمراً مأسوفاً عليه!

– وعلى ماذا هو مأسوف؟

– على الحياة!

ثم ساد بيننا صامت جديد.

– هل كان لكِ خطيب؟

– وما شأنك أنت بهذا؟

– أنا لا أجري معك تحقيقاً. إذ فيم سينفعني ذلك؟ ثم لماذا تغضبين؟! بالتأكيد، أنت عانيت من بعض المتاعب الخاصة. لكن، فيم سينفعني ذلك أيضاً؟ أنا فقط أشعر نحوك ببعض الشفقة.

– الشفقة؟! وعلى ماذا؟

– عليك.

– لا داعي لذلك... همست بصوت خافت جداً، وقد خانتها مرة أخرى حركة انفعال صغيرة، كانت مشبعة بالغيظ.

جعلني ذلك أشعر فوراً بالحنق. إذ كيف يُعقَل هذا؟ لقد كنت أنا لطيفاً جداً معها، بينما هي...

– إنما ماذا تعتقدين نفسك؟ أتحسبين أنك تسلكين طريقاً سوياً؟

– أنا لا أعتقد في أي شيء.

– سيئ جداً أن لا تعتقدي في شيء. هيا، افتحي عينيك على ما أنت فيه، ما دام الوقت لا يزال أمامك. وإن الوقت بالفعل، لا يزال أمامك. أنت لا تزالين في ريعان الشباب، وجميلة فوق كل ذلك؛ لهذا، يمكنك أن تعشقي أحداً، وأن تتزوجيه، وأن تكوني سعيدة في حياتك...

– ليست جميع المتزوجات بالسعيدات. أجابت بلهجة قاطعة وفظة ومباغتة.

– لسن كلهن كذلك بالطبع، إنما هذا أفضل بكثير من بقاءك هنا. إن الفرق لبعيدُ بين هذا وذاك... ثم إن بإمكان المرء أن يعيش حياته بالحب وحده، ومن غير سعادة. وحتى في حالة الشقاء، يمكننا العيش بكيفية أفضل، إذ الحياة حلوة مهما كانت. في حين، هل من بديل آخر أفضل في هذا المكان، غير العفونة والنتانة؟! أووف!

ثم أدرتُ بظهري عنها في اشمئزاز، بحيث إني لم أستطع الاسترسال بهدوء واتزان في هذه الخطبة الواعظة، وإنما بدأتُ أشعر بحقيقة الأشياء التي كنت أعبّر عنها، فأخذني الحماس. لقد تحمست لعرض **أفكاري الصغيرة والثمينة**، التي نمّيتها خفية، وأنضجتها في قعر حفرتي. وهكذا أخذ شيء ما في الاشتعال بدخيلاء نفسي، دون أي إنذار مسبق: إن هدفاً ما غير دقيق الملامح أخذ يتبدّى لي.

– لا تكترثي لو جودي هنا، لأني لستُ نموذجاً يقتدي به. ولربما كنت أفظع شأناً منك. ثم إني لمّا جئت هنا، كنت سكران (أضفت، وقد كنت تواقاً إلى تبرئة نفسي، على وجه السرعة). هذا إلى جانب أن الرجل لا ينبغي أن يكون بالكل قدوة، بالنسبة إلى المرأة. إنهما كائنان

مختلفان: أنا أستطيع أن ألطخ نفسي، أن أعرّضها للأوساخ، ولكني لست عبداً لأحد؛ لقد جئتُ، ولسوف أنصرف، وأختفي. ما أن أنفض ثيابي، حتى لا أصير أنا هو أنا. بينما أنت، ولنبدأ بهذا، لست سوى مستعبدة. بدأت مستعبدة، لتصبحي مستعبدة. أجل، مجرد مستعبدة! لقد تخليتِ عن كافة الأشياء التي كنت تملكينها، وبالضبط عن حريتك. وبعدها، ستنتابك الرغبة في الانعتاق من تلك القيود، لكنك ستجدين أن الوقت قد فات، وما من إمكانية لتحطيم القيود! لسوف تطوّقك هذه القيود، وتكبلك أكثر فأكثر، لتضيق عليك يوماً بعد يوم. كذلك هي هذه القيود اللعينة. أنا أعرفها. لن أحدثك عن الأمور الأخرى التي من المحتمل أنك لن تدركيها؛ لكن، أجيبيني: أراهن على أنك مدينة للقوادة التي تعملين عندها ببعض المال، أليس كذلك؟! ها قيدك! (أضفت، رغم أنها لم تردّ على سؤالي؛ وإنما ظلت تصغي إلى كلامي فقط، بكامل كيانها). ها قيدك، إذن! لن تتحرري منه أبداً. ولسوف يرتّبون أمورهم جيداً، كي لا يتمّ لك ذلك. إن وضعك لشبيه بوضع من باع نفسه للشيطان......

ومع ذلك، فإني... ربما أشقى منك، إذ من أدراك؟ وإن كنتُ أغوص في الوحل، فإنما عن عمد أنا أفعل ذلك، ولأنني أتعذب كذلك. إن هنالك من يتعاطى إلى الشرب بدافع المعاناة والألم؛ أما أنا فبدافع الألم والمعاناة جئت إلى هنا... هَمْم؟ فما الشيء المفيد في ذلك؟ أنت وأنا... اقتربنا بعضنا من بعض هنا، والبارحة، بشكل حميمي... لكننا لم نتبادل طول ذلك الوقت كله، الذي اختلينا فيه مع بعضنا، ولو كلمة واحدة... ثم إنك لم تتفرّسي في مثل امرأة

متوحشة، إلا في ما بعد؛ وكذلك أخذت أنا بدوري أتفرّس فيك، في ما بعد. فهل بهذه الكيفية ينشأ الحب؟ هل بهذه الطريقة ينبغي أن يتحد آدميان؟.. إن هذه لفضيحة! هذا كل ما هنالك.

– أجل! أجابت بصوت سريع ومباغت، ولقد شعرت حتى بالدهشة، بفعل سرعتها في النطق بكلمة: أجل. إذن، أكانت تلك الفكرة تدور في رأسها هي الأخرى، حينما أخذت قبل قليل تتفرس فيّ؟... أقادرة هي الأخرى إذن، على أن تكون لها أفكار؟.. اللعنة! إن الأمر لمثير للفضول! بيننا بعض نقاط التقارب، رددتُ في نفسي، وأنا أوشك على فرك راحتي. فكيف لا يمكن للمرء بعد هذا، أن لا يعثر على توافق ما، مع هذه النفس التي تنعم بكامل هذا الشباب؟!..

كانت اللعبة وحدها هي ما ظل يغريني.

قرّبتْ رأسها نحوي، فخيّل إليّ ونحن وسط العتمة، أنها أسندت رأسها براحة اليد. ربما ظلت تنظر نحوي. لكم تحسرتُ لعدم قدرتي على رؤية عينيها! ثم أصخت السمع لتنفسها العميق.

– لماذا جئتِ إلى هنا؟ بدأت أسألها بنبرة مشبعة سلفاً، ببعض الثقة في النفس وحسّ التسلط.

– هكذا...

– ومع ذلك، يحسن بالمرء أن يعيش في بيت والديه! إذ ثمة دفء وحرية... إن ذلك للعش الحقيقي للمرء.

– وإن كانت الحياة مرة وشقية هناك؟!

خطرتْ ببالي فكرة طارئة: «ينبغي أن أعثر لي على النبرة المناسبة، على شيء آخر غير هذه النزعة العاطفية في الكلام، حتى أعثر على نقطة ضعفها»، لكن هذه الفكرة لم تزِد سوى على أن تخطر ببالي وحسب، إذ سرعان ما ولت وزالت. في حين ظلت تلك المرأة، وأقسم يميناً، تشغل بالي بكيفية حقيقية. هذا إلى جانب أني لم أكن في كامل قواي، وإنما كنت متأثراً ومهيئاً أحسن تهيّء، لتقبُّل المزيد من التأثر. هذا فضلاً عن أن المخاتلة الماكرة تناسب العواطف النبيلة تناسباً كبيراً.

– ومن يدّعي العكس؟! أسرعت في الرد عليها. كل شيء قابل للحدوث. أنا على سبيل المثال، متأكد تماماً من أن أحداً ما قد عرّضك للإساءة وأهانك، وبأن الوالدين في نظرك هما اللذين أذنبا بالأحرى في حقك، وليس العكس. لست أعلم أي شيء عنكِ، إنما من المؤكد أن فتاة شابة مثلك، لن تحل في هذا المحل برضاها واختيارها...

– أقلتَ إني فتاة شابة؟! همست بصوت يكاد يُسمع، إلا أني مسمعته.

«اللعنة! ها إنني أطري عليها، وأتملقها! ذلك أمر شنيع. أو لعله بالأحرى سيكون فاتحة خير، ربما... ».

ظلتْ صامتة، لم تنبس بأي شيء.

– أصغي إلي، يا ليزا. سأحدثك عن نفسي. لو كانت لي أسرة تحتضنني منذ الطفولة، لما صرت ما أنا عليه اليوم. وإني لأفكر في هذا كثيراً. من الممكن أن يشعر المرء فعلاً بالانزعاج والضيق في كنف أسرته، إنما والدك ووالدتك ليسا على كل حال، من الأعداء ولا من الأغراب. إنهما لقادران على أن يعبّرا لك عن حبهما، وإنّ لمرة واحدة في السنة في الأقل. معهما تشعرين في الأقل، بأنك في بيتك. أما أنا، فعلى العكس. لقد نشأت وحيداً لا عائلة لي، ولا بيت، ولهذا السبب صرت دون شك، هكذا... عديم الإحساس وغير مبالٍ.

كان عليّ من جديد، أن أنتظر.

«أراهن على أنها لا تفهم حتى ما أقول؛ ردّدت في دخيلة نفسي. ثم إن إسداء النصح والموعظة لشأن مثير للضحك!».

– أعتقد أني لو كنت أباً، وكانت لي ابنة، فإني سأمحضها بحبٍّ أكبر من ذلك الذي سأخص به أبنائي الذكور. قلت، وأنا أحوم حولها، وكأني أذكرها بشي ما: وأعترف أني اصطبغت بحمرة الخجل.

– ولماذا ستفعل ذلك؟ سألت.

كانت إذن، تُنصت إلي.

– هكذا. لست أدري سبباً حقيقياً لذلك، يا ليزا. بالمناسبة، عرفت أباً، وكان رجلاً نكد المزاج ومتجهماً، لكنه يركع أمام ابنته مقبّلاً يديها وقدميها، وأقسم بشرفي أنه لا يكل من التأمل فيها،

بالكل. تذهب هي إلى حفل، وترقص، فيبقي هو جاثما في مكانه لخمس ساعات، لا يفارقها بعينيه. لقد كان حقاً مجنوناً بها، وهو أمر يمكن تفهمه. وفي المساء، حين تتعب هي، وتنام، يستيقظ هو من نومه، ويذهب لتقبيل جبينها، ومباركتها، وهي في عمق النوم! لا يملك هو ما يرتديه سوى معطف قديم وقذر، ويعدّه الجميع شحيحاً ومقتراً، لكنه كان ينفق من أجلها بسخاء كبير، فيقدم لها الهدايا الثمينة، وحين تروق لها هداياه، تغمره فرحة لا تعادلها أي فرحة أخرى! إن الآباء ليحبّون دائماً بناتهم أكثر من الأمهات. إن ثمة فتيات شابات يعشن حقاً، سعيدات في بيوتهن! أنا أعتقد مثلاً، بأني سأرفض تزويج ابنتي.

– ولكن كيف سيتم هذا؟ سألت، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة خجولة.

– أؤكد لك بأني سأكون والداً غيوراً، أجل! إذ كيف يمكنها أن تقبّل أحداً آخر غيري؟ وأن تحب شخصاً آخر أكثر ممّا تحب أباها؟ يشق عليّ أن أتصوّر ذلك، وأحرى أن أعيشه. ما هذه بالتأكيد سوى حماقات؛ والجميع ما يلبث بالتأكيد أن يعود إلى رشده، لكني أنا لن أمرض قبل تزويجها، سوى نتيجة همٍّ وحيد: رفض جميع الخطاب. ومع ذلك، سأنتهي بتزويجها ممّن تحب. لأن ذلك الخطيب الذي تحبه البنت أكثر، هو في الحقيقة من لا يروق للأب، أبداً. وهذا شيء لا مفرّ منه. ثمة عائلات عديدة يُحدث فيها هذا الكثير من الأحزان.

– وهناك من لا يسعى لغير بيع ابنته، وليس إلى تزويجها بالشكل المُشرّف. همست قائلة، فجأة.

آه! يكمن الأمر إذن، هنا!

– هذا يحدث يا ليزا، لدى العائلات اللعينات التي لا يعرف أعضاؤها الله، ولا الحب. استأنفت قائلاً بنوع من الحماسة. وحيثما يغيب الحب، يغيب معه الحسن القويم والسليم، ويغيب العقل! مثل هذه العائلات موجود، أي نعم، لكن ليس عن هذا أتحدث أنا. لا بد أنك وأنت تتحدثين بمثل هذه الطريقة، لم تسعدي أبداً في كنف أسرتك. لا بد أنك كنت حقاً شقية وتعيسة... هَمْم... إن البؤس على العموم هو الذي يدفع إلى مثل هذه الأمور.

– وهل تظنّ أنّ من الأفضل أحياناً، أن يعيش المرء لدى الأسياد، لا في بيت الوالدين؟ إن الأشراف ليعرفون، حتى في حالة البؤس، كيف يتصرفون بكيفية سليمة.

– هَمْم... نعم. ربما. إنما انتبهي، يا ليزا: الناس لا تحصي غير مآسيها وأحزانها، أما السعادة التي تكون قد عاشتها، فإنها لا تحصيها. وإذا ما قامت الناس بالإحصاء مثلما ينبغي، فإنها سترى بأن لكل واحد حقه في ذلك الرصيد العام. لكن، إذا كان كل شيء في عائلة ما على ما يرام، وإذا ما باركها الرب، وكان الزوج رجلاً من أخيار الناس، وأحبّك، ووقع عليك اختياره وحبه، فإنه لن يفارقك قيد أنملة أبداً؛ ولشدّ ما يشعر المرء في أحضان مثل هذه العائلة، بالسعادة التامة! وحتى مع القليل من التعاسة والشقاء – ما دام أن ما من مكان على وجه الأرض، لا يوجد فيه ولو القليل من التعاسة والشقاء، أبداً! – فإن المرء يشعر في بعض الأحيان، بأن الأمور أفضل حالاً، وأنها على ما يرام. **لسوف تخْبَرين الأمر بنفسك أنت بالذات**، إنْ تزوّجتِ في يوم ما. لكنّا إذا ما اقتصرنا في المقابل، على الفترات الأولى من الزواج

من الحبيب المبتغى فقط، فأي سعادة، نعم، أي سعادة ستعيشينها فجأة! لسوف تحسِّين بذلك، في كل خطوة ستقطعينها في مشوار الزواج. وحتى الخصومة مع الزوج، في بداية الحياة الزوجية، عادة ما تنتهي نهاية سعيدة. وهناك بعض النسوة اللواتي بقدر محبتهن الزائدة لأزواجهن، بقدر خصامهن معهم. وأقسم لك! لقد عرفت واحدة بهذه الصفة. يبدو أن لسان حالها ظل يقول: «أحبك – مثلما ترى – كثيراً، وباسم هذا الحب بالذات، أعنفك – مثلما ينبغي أن تعلم – كثيراً». أتدرين بأنه من الممكن أن يتعرض الناس باسم الحب، لعذاب مقصود؟! النساء خاصة هنّ من يفعل ذلك. في تلك الأثناء، يرددن في قرار أنفسهن: «بعد هذا، سأحبه حباً شديداً، وسأكون لطيفة جداً معه. لذلك، لا جُناح عليّ إن أنا عذبته قليلاً، الآن». وبعدها، ستعيشين الفرح في البيت كله، وسينجم عن ذلك الهناء والشرف... وثمة من تتصف من بين النساء كذلك، بالغيرة. ما أن يخرج الزوج – وقد تعرّفت على واحدة بهذه الصفة – حتى لا تتحمل هي منه ذلك، فتُسرع إلى الخروج وراءه في عزّ الليل، كي ترى إن كان هناك مع فلانة. إن هذا ليس بالأمر اللائق، وهي تعرف ذلك، تعرف أن هذا ليس بالأمر اللائق، وتشعر بأن قلبها ينقبض، ويسومها العذاب، لكن ما العمل؟ فهي تحبه: وكل ما تفعله، إنما بدافع الحب تفعله! ولكَمْ يشعر المرء براحة تامة، بعد وقوع الصلح الذي يلي المشاحنة، التي إما أنها تنتهي بإقرار بالذنب، أو بالصفح على الآخر! حينها، يشعر الزوجان، وفي اللحظة ذاتها، بسعادة كبرى. وكأنهما التقيا مرة أخرى لأول وهلة، وكأنهما لم يتزوجا سوى في تلك اللحظة بالذات، وكأن حبهما ما بدأ ينشأ، إلا في تلك الأثناء. وما من أحد،

أجل، ما من أحد ينبغي أن يعلم بما يجري بين المرأة وزوجها، حين يختليان، ويتحابان. ثم مهما تكن مشاحناتهما، فإنه لا ينبغي كذلك أن يحتكم أي منهما إلى أي إنسان آخر، حتى ولو كان أم أي منهما، وسبق لهما أن قصّا عليها بعض الوقائع والأحداث، سواء عن هذا أو ذاك منهما. إن عليهما أن يكونا حَكم نفسيهما بالذات. ثم إن الحب لسرٌّ رباني، ينبغي أن يظل في مأمن من كافة العيون الغريبة، مهما يحدث له. ذلك أدعى للتقديس، وهو أفضل وأجمل. وبذلك، نحترم بعضَنا أكثر؛ وهناك أشياء كثيرة لا تقوم إلا على أساس الاحترام. وإذا ما كان الحب منذ البداية قائماً، ولم يتزوج الزوجان إلا بناء عليه، فلماذا سيتعرض للنقصان، إذن؟ لماذا قد تتعذر سُبل إنقاذه؟ إن تعذّرَ إمكانيةِ إنقاذه لَمِن الأمور النادرة جداً. فإذا حالفنا الحظ، وعثرنا على زوج شريف وطيب، كيف يمكن للحب عندئذٍ، أن يتعرض للنقصان؟ أجل، جذوة الحب الأول، حب ليلة العرس، هي التي يمكنها أن تنتقص، إلا أن حباً آخر أفضل سيعقبها. بعد ذلك، سينشأ تآلف الروحين واتصالهما، حيث ستغدو كل الأشياء بينهما مشتركة، فلا يتبقى ثمة أي سرّ من الأسرار خافياً، لا على هذا ولا على تلك. ثم حين يجيء الأطفال بعد ذلك، ستكون جميع اللحظات عندها، حتى الأشد عسراً وصعوبة، مجرد لحظات سعادة كبرى؛ إذ لا يكون عليهما حينذاك، سوى أن يعيشا الحب، وأن يمتلكا الشجاعة. في هذه الحالة، يجد المرء حتى في أداء العمل بعض الفرح؛ ويقيم أحياناً حتى على حرمان نفسه من قطعة الخبز الصغيرة التي يملكها، في سبيل أن يهبها لأطفاله؛ لكن حتى هذا بالذات، لمن الأمور التي تمضي كذلك، في جوّ من الفرح والحبور. لأن هؤلاء الأبناء

سيكنون لك في ما بعد، كل الحب والتقدير لأنك وهبتهم أعز ما كنت تملكينه؛ ومن ثمة، فأنتِ لا تعملين إذن، إلا على الادّخار لمستقبلك بالذات. وهكذا سيكبر الأطفال، وستشعرين بأنك نموذجهم وقدوتهم في الحياة، وأنك سندهم ودعامتهم؛ وإذا ما مت، فإنهم سيواصلون حمل أفكارك ومشاعرك في قرار أنفسهم، لأنهم أخذوا منك كل ذلك، ولأنهم سيكونون في جميع الأمور، نسخة طبق الأصل منك. وهذا هو ما يملي عليك إذن، واجباً ثقيلاً. فكيف لا يقرّب كل هذا، الفجوة بين الزوج وزوجته؟ يُقال إن تربية الأبناء من أصعب الأمور وأعسرها، على الإطلاق. لكن، من ذا الذي قال هذا؟! إن الأبناء لنعمة ربانية! فهل تحبين الأطفال الصغار، يا ليزا؟ أنا أعشقهم عشقاً رهيباً. تصوري يا ليزا، صبياً مشرباً كله باللون الوردي، يرضع من ثديك. فأي زوج في هذه الدنيا لن يرق قلبه لزوجته، حين يراها وقد احتضنت طفله الصغير بين ذراعيها، وانهمكت في إرضاعه؟! أي زوج في هذه الدنيا لن يرق قلبه لمنظر صبي مشرَّب كله باللون الوردي؟ صبي بضٌّ بالكامل، يمطِّط ذراعيه وفخذيه في دلال، صبي بقدمين صغيرتين، ويدين سمينتين، وأظافر نظيفة للغاية، ومتناهية في الدقة والصغر، إلى درجة أنها قد تبعث على الضحك، وبعينين صغيرتين تعطيان الانطباع بأنهما قادرتين على فهم كل شيء. وحين يرضع نهدك، يجره جراً بيده الصغيرة، ويعبث به. وحين يقترب الأب، يترك الصبي نهد أمه للحظة، فيتكوم على نفسه من الرأس والفخذين، وينظر إليه، ثم يأخذ في الضحك – وإن هذا لمضحك حقاً! – ليستأنف الرضاعة في ما بعد. وحين يحلو له أحياناً، بعد أن تنبت له أسنان، أن يعض على حلمة والدته، ينظر

إليها بجانب عينه، وكأن لسان حاله يقول لها: «أرأيتِ؟ ها قد نزلت عليك بعضة!». أليس هذا كله من قبيل السعادة، بالنسبة إلى أولئك الثلاثة: الزوج والزوجة والصبي؟ وحتى تتحقق مثل هذه اللحظات، يمكن لنا أن نصفح كثيراً. لا، يا ليزا. من دون شك، ينبغي أن يتعلم المرء من تلقاء ذاته أولاً، كيف يعيش، قبل أن يتهم الآخرين، ويلقنهم الدروس!

«بمثل هذه الصور الجميلة، ينبغي التأثير فيك!»، قلت في نفسي، ومع ذلك فإني أقسم لكم بأني تحدثت لها بحرارة، حتى لأني اصطبغت فجأة، بحمرة الخجل. «وماذا لو أنها انفجرت تضحك مني؟! أين سأختبئ، إذن؟».

جعلتني هذه الفكرة أشعر ببعض الحنق. لقد كنت في نهاية الحديث إليها، قد شعرت حقاً بالاهتياج، وظل كبريائي ينزف من فرط الجراح التي أصابته.

طال أمد الصمت بيننا. وذهب بي التفكير حتى الرغبة في دفعها بمرفقي.

– إنما أنتَ، إذن... قالت فجأة، ثم سكتت على الفور.

لكني فهمت كل شيء. ثمة نبرة ترتجف في صوتها، وشيء ما في كلامها ليس لا من قبيل الخشونة ولا الفظاظة ولا التصلب العنيد، وإنما هو لطف وخجل؛ شيء خجول بشكل كبير، إلى حدّ أني شعرت أنا نفسي بالخجل، وأحسست إزاءها بالارتباك.

– ماذا؟ سألتها بفضول مشبع بالرقة والحنان.

– إنما أنت..

– ماذا؟

– إنما أنتَ تتحدث... مثل كتاب. قالت، فعثرت من جديد في صوتها، على نبرة سخرية صغيرة.

نخستْ هذه الملاحظة قلبي بشدة. لم يكن هذا هو ما انتظرته منها.

لم أدرك حتى إنها كانت تضع قناع السخرية عن عمدٍ، وبأن هذا هو الملاذ الأخير الذي يلتجئ إليه الناس دوماً، خاصة ذوي القلوب الخجولة والصافية، حين يشعرون بأنك تريد بطريقة ملحّة وفظة، أن تنفد إلى أعمق غور في روحهم؛ لأنهم من فئة هؤلاء الذين يمانعون إلى آخر لحظة في حياتهم، من خلال كبريائهم واعتدادهن بالنفس، وهم يخشون التعبير أمامك عمّا يشعرون به، أو يحسّونه. كان عليّ أن ألاحظ ذلك وحسب، من خلال ما ظهر عليها من وجلٍ وتردّد، بعد أن توقفت عن الكلام عدة مرات. لكني لم أحزر أي شيء، فاستبدت بي عاطفة شريرة.

«انتظري قليلاً»، قلت في نفسي.

٧

– بالله عليك، يا ليزا؛ كيف أمكنك القول إني أتحدث «مثل كتاب»، إذ حتى هذا يزعجني أنا بالذات، حين أكون وحيداً؟! وليس فقط حين أكون وحيداً. إنّ كل ما ظل كامناً في جراب القلب، قد استفاق الآن... وأنت؟! أنت حقاً؛ ألا يزعجك الوجود هنا؟ لا، من دون شك،

لفظ العادة يعني شيئاً ما! الله وحده يعلم ما الذي يمكن للعادة أن تفعله في البشر. لكن، أتعتقدين بجدّ أنك لن تهرمي بتاتاً، وأنك ستظلين دائماً جميلة، وبأنهم سيبقون عليك هنا، إلى أبد الآبدين؟ سأتجاوز عن الحديث عن أن مجرّد الوجود في ذاته هنا، أمر مقزّز... إنما أصغِ إلى ما سأقوله، بشأن طبيعة الحياة التي تحيينها في هذا المحل: أنت الآن جميلة هنا، ونضرة، وجريئة، ولك قلب وعواطف رقيقة. طيب، إنما هل تعلمين أني حين صحوتُ قبل قليل، شعرتُ بالانزعاج والضيق الشديدين، لكوني أوجد معك في هذا المكان؟! لا يمكن للمرء أن يوجد هنا من تلقاء ذاته، سوى في حالة السُكْر وحسب. أما لو كنت خارج هذا المكان، وتعيشين حياة شريفة مثل بقية البشر أجمعين، فإني لن أسعَ إلى الرغبة في النوم معك، وإنما سأهيم بك وحسب، وسأكون سعيداً بالظفر بمجرّد نظرة – وليس بكلمة – واحدة منك. حينها، سأنتظرك على البوابة، وسأقضي ساعات طويلة وأنا أركع على ركبتي من أجلك. حينها، سأعدّك مثل خطيبتي، وسأعتبر ذلك أمراً مشرفاً، كذلك. لن يخطر ببالي أبداً، أن أقرنك بشيء من الفاحشة أبداً. أمّا والحال هنا، في هذا المحل، فإني أعلم أنه يكفي أن أصفّر، حتى يكون عليك – سواء شئت ذلك أم أبيت – أن تلحقي بي؛ ولن تكوني أنت من سيملي عليّ مشيئته، وإنما ستكونين رهن إشارتي ومشيئتي فحسب. إن أحطّ فلاح في روسيا، حين يؤجّر نفسه لربّ الأرض، كي يعمل عنده بأجر يومي، لا يبيعه كل نفسه على الإطلاق، بالإضافة إلى أنه يعلم أن ذلك لا يدوم إلى الأبد، وإنما هو رهين فقط لفترة زمنية معلومة. أما أنت، فما هو أجلك؟ إنما فكري قليلاً فقط: ما الذي تمنحينه هنا؟ ما الذي تبيعينه؟ روحك،

أجل، روحك التي لا تنتمي إليك، وتبيعينها في الوقت نفسه مع جسدك! وحبك؟! حبك الذي تتركينه يتعرض للدّنس، مع أول سكير يتقدم إليك! حبك! إنما الحب هو كل شيء، هو جوهرة كل فتاة شابة وكنزها، أتفهمين؟! لأن الحب، وحتى يُستحق، هناك من هم على أتمّ الاستعداد للتضحية بروحهم للظفر به، ومن هم على استعداد للموت. فكم يساوي حبك، الآن؟ إنك بعت نفسك بشكل كلي، من الرأس وحتى أخمص القدمين؛ ففيم سينفع الناس إذن، أن يبحثوا عن حبك، إذا ما صار كل شيء مباحاً لهم، ولا يستحق ذلك أن يزعجوا أنفسهم من أجله؟! ولكن، ألا تفهمين بأن ما ثمة من مذلّة أشدّ وطأة وثقلاً من هذه، على الفتاة الشابة؟ لقد سمعتُ من يقول، بأنه كي تقع التسلية، يُسمَح لكن – معشر البلهاوات المسكينات – باستقبال عشاقكن. لكن هذه ما هي إلا لعبة، وخدعة، وكذبة، واستهزاء من ذقونكن؛ فإذا أنتن تصدّقنها، وتبتلعن الطُّعْم. أتعتقدين أنّ عشيقك يحبك حباً حقيقياً، وأنتِ على هذه الحال؟ أنا لا أعتقد. كيف يمكنه أن يحبك، وهو يعرف أنه يكفي أن أصفّر، لتغادريه على الفور، وتتبعيني؟! إن قَبِل هو بذلك، فلن يكون سوى مجرد فلاح حقير. وهل يُكِنّ لك في قرار نفسه، ولو القدر الضئيل من التقدير والاحترام؟ وما المشترك بينكما؟ إنه ليسخر منك، ليس إلا، ويسرقك؛ هذا هو كل الحب الذي يكنّه لك. وهذا أفضل إن لم يضربك، لكن على كل حال، قد يضربك ربما. إن كان لك عاشق، فاسأليه إذن هل سيتزوّج منك. سينفجر أمامك بالضحك، إن لم يبصق عليك، أو يوسعك ضرباً، رغم أنه لا يساوي أكثر من فلسين وحسب. وباسم ماذا أنفقتِ هنا كل حياتك؟ كي تُقدّم لك القهوة والطعام،

حين تجوعين؟ لكن من أجل أي غاية يتمّ إطعامك؟ أجيبي. إن فتاة أخرى، فتاة شريفة أخرى، ستَجمَد اللقمة في بلعومها، ولن تستطيع ابتلاعها كلية، لأنها تعرف لماذا يتمّ إطعامها: أنت هنا مثقلة بالديون، ولن تستطيعي الانفكاك من ذلك، إلى آخر يوم في حياتك، إلى أن يَعرض عنك الزبائن، ويتوقفوا عن الرغبة فيك. وهذا لعمري سريع الحدوث، لذا لا تعتمدي على شبابك. كل شيء هنا يجري بشكل سريع. حينها، سيتم القذف بك إلى الخارج. ولن يحدث هذا بالبساطة التي تتصورينها: ستشرع سيدة المحل في وقت سابق في مماحكتك، وإنزال اللائمة عليك، ونعتك بأقذع النعوت المهينة، وكأنك لست من ضحّى من أجلها بصحّته وشبابه وروحه، فحصد الريح في الأخير؛ وكأنك أنت من تسبّب لها في الكساد العميم، وتركها دون أي شيء، وسرق منها كل شيء. لا تنتظري من أي أحد أن يعينك: إذ ستهوي رفيقاتك على ظهرك، إرضاء للقوادة وجبراً لخاطرها، لأن جميع الفتيات قد تحوّلن هنا إلى أمات مستعبدات، وفقدن منذ زمن طويل الوعي والإحساس بالرحمة والشفقة، وهوّين إلى الحضيض الأسفل. ولسوف يقذفنك بسُباب لا أقذع منه، ولا أحطّ ولا أخزى على وجه الأرض. وهنا ستتركين كل شيء، ولن تحتفظي لنفسك بشيء: صحتك، وشبابك، وجمالك، وآمالك؛ وسيظهر عليك في سنّ الثانية والعشرين مظهرُ امرأة مسنة في الخامسة والثلاثين، وستكون من الصدف السعيدة التي ينبغي أن تحمدي عليها الله، أنك لم تصابي حتى حدود تلك السنّ بأي مرض؛ ولسوف أراهن على أنك لا تعدّين هذا الذي تقومين به عملاً، وإنما ضرباً من التسلية واللهو! ولكن، ليس هناك في العالم بأسره، ولن يكون هناك

عمل أفظع من هذا الذي تقومين به، إذ هو أقسى من أعمال السجن، وأشقاها على الإطلاق. إنّ فيه ما من شأنه أن يعتصر دمع القلب، إلى درجة الانسحاق! ولن تتجرئي على التفوّه ولو بكلمة، أو حتى بنصف كلمة، حين ستتعرّضين للطرد من هنا، وإنما ستخرجين منكسة الرأس وصامتة، مثل المجرم. وستنتقلين إلى محل آخر، ثم إلى ثالث، ثم إلى مكان آخر بعد ذلك، وستنتهين بالجنوح إلى ساحة لوفوان. وهناك، سيكون الضرب من بين الملاطفات الممكنة، التي تنتظرك. وهذا من حسن تصرف الزبائن هناك، إذ إنهم غير قادرين على ملامستك، قبل النزول عليك بالضرب والصفع. ألا تصدقين بأنهم أشدّ قبحاً وفظاعة هناك؟ اذهبي إذن إلى هناك في يوم ما، كي تقتنعي ربما بأم عينيك. هناك، رأيتُ ذات مرة، فتاة شابة تقف أمام البيت، يوم رأس السنة. طرَدَتها رفيقاتها إلى الخارج مازحات، كي يُنعِشن بذلك ذهنها قليلاً، لأنها ظلّت تزعجهن ببكائها المفرط؛ وبعد ذلك أغلقن الباب بالمفتاح وراءهن، وتركنها في العراء. لم تكن الساعة سوى التاسعة صباحا، وكانت هي من قبل سكرانة بشكلٍ كلي، ومشعثة الشعر، وشبه عارية، وقد ازرق جسمها من آثار الكدمات. كان وجهها شديد البياض من فرط مسحوق البودرة البيضاء، وعيناها مسوّدتين من أثر الضرب، والدم يسيل من أنفها وفمها ولثّتها: لقد كان أحد الحوذيين هو من جعلها تبدو على تلك الهيئة. جلست على درجة من درجات السلم الحجري، وكانت تمسك في يدها بسمكة مملحة، وتبكي بحرقة شديدة، وتتلفظ بما لست أدريه من كلام حول «المصير المكتوب»، وتضرب درجات السلم بسمكتها المملحة. وقد احتشد بعض الحوذيين والجنود السكارى حول

مدخل الدرج، وأخذوا في استثارتها والسخرية منها. ألا تصدقين بأن مصيرك أنت كذلك، سيكون مثل مصيرها؟ أنا أيضاً أودّ لو أني أصدق هذا؛ لكن، من أدراك بأن تلك الفتاة نفسها ذات السمكة المملحة، لم تأت من قريتها، منذ ثماني أو عشر سنوات من قبل، وهي طرية العود ونضرة وبريئة وصافية السريرة، وكانت حين قدومها لا تعرف السوء، وتحمرّ خجلاً لسماع أي كلمة من كلمات الفاحشة؟! لربما كانت مثلك أنت كذلك، شديدة الاعتداد بنفسها، وسريعة التأثر، ومختلفة عن الأخريات، ولها هيئة الأميرات، ومقتنعة أشدّ ما يكون الاقتناع بأنّ السعادة الحقة تنتظر سعيد الحظ، الذي سيحبّها وستحبه. أرأيت كيف صارت عاقبة هذه الفتاة؟ وماذا لو أنها في اللحظة ذاتها التي كانت فيها، وهي سكرانة ومشعّثة الشعر وتضرب درجات السلم بسمكتها المملحة؛ ماذا لو أنها في اللحظة ذاتها، استعادت ماضيها وسنواتها الطاهرة، التي قضتها في بيت أسرتها، تلك السنوات التي ظل يترقبها فيها ابنُ الجيران على الطريق، وهي بعدُ تلميذة في المدرسة، كي يقنعها بوفائه لها، وأنه سيحبها مدى الحياة، وسيوقف حياته عليها؛ وكيف أنهما قررا أن يتحابا إلى الأبد، وأن يتزوجا حين يكبران! لا، يا ليزا! سيكون من قبيل السعادة، نعم، من قبيل السعادة بالنسبة إليك، لو أمكنك الموت في القريب العاجل بداء السلّ، مثل الفقيدة الأخرى، في ركن من الأركان، وبقبوٍ ما. قلتِ: في المستشفى؟! طيب، إنما لو ينقلوك إليه؛ لكن ماذا لو أن صاحبة المحل لا تزال بحاجة إليك؟ داء السل شيء، وحمّى التهاب السحايا شيء آخر. يظل المريض بالسل مشدوداً بخيط الأمل الرهيف إلى آخر نقطة من عمره، ويدّعي أنه يتمتع بصحة جيدة. إن المريض بداء السل

يخدع نفسه بنفسه. والقوادة يلائمها ذلك، بالطبع. لا تنزعجي يا ليزا، فالأمر على ما وصفتُ: إنك بعْت روحَك لصاحبة المحل، وأنت فضلاً عن ذلك لا تزالين مدينة لها بالمال، ومن ثمة إذن، ليس لك الحق في فتح فمك بشيء. وحين يحل أوان احتضارك، سيتخلى عنك الجميع، وسيعرض الكل عنك، إذ ما الذي تبقى لك لتمنحيه لهم، إذن؟! ولسوف تُلامين على كونك تحتلين بشكل مجاني محلاً، وعلى أنك لا تموتين بسرعة. ولن تلقي حتى ما يمكن أن يروي عطشك، إذ إنهم حين يروونك، لن يقدّموا لك سوى بعض القطرات، ولسوف يُشبعونك سباباً وشتائم، قائلين: «متى ستموتين إذن، أيتها القذرة. إنك لتمنعين عنا النوم. أنت لا تملين أبداً من الشكوى والنواح، حتى إن الزبائن ليتقزّزون منك». هذا صحيح، والله. فقد سمعت بأذنيّ هاتين مثل هذا الكلام. ولسوف يُلقى بك، وأنت تُحتضرين، في ركن شديد العفونة من أركان أحد الأقبية، تعمّه الظلمة والرطوبة. فما الذي سيخطر ببالك من أفكار، وأنت ترقدين هناك وحيدة؟! وحين تموتين، ستشيّعك بسرعة أيادٍ غريبة، يدمدم أصحابها وقد نفذ صبرهم، ولن يأت أي أحد كي يباركك في مثواك الأخير، أو ليتنهد عليك، إذ الشيء المهم حينها سيكون هو تمشيط المكان من بقاياك. سيُشترى لأجلك تابوت حقير محفور في جذع شجرة، وستنتقلين فيه مثل تلك التعيسة التي حدّثتك عنها قبل قليل، وسيمضي الرجال بعدها، ليشربوا كأساً في حانة، استحضاراً لذكراك. ستكون حفرتك ملأى بالوحل، والقاذورات، والثلج الذائب – «ما الفائدة من القيام بطقوس الدفن؟»، – «أنزلها يا إيفان، إذن»، – «كل مصير هذه القذرة المكتوب ذهب سدى»، – «إنما شدّ الحبل

عندك، يا وغد»، – «أهكذا أفضل؟»، – «ألا ترى أنها ترقد على جنبها، كيفما كان الحال، فهي بشر!»، – «أوه! هيّا، أهل التراب عليها الآن». لا يودّون حتى أن يتشاجروا طويلاً بسببك. سيغطّون الحفرة بكيفية سريعة بالطين الرطب الأزرق، ثم سيتجهون صوب الحانة... وبذلك، ستمّحي ذكراك من على الأرض. أما الآخرون، الآباء والأزواج، فإن أبناءهم سيأتون للوقوف على قبورهم، بينما أنتِ لن تُسكب من أجلك ولو دمعة واحدة، ولن تخرج من أجلك ولو زفرة واحدة، ولن تظفري ولو بصلاة واحدة؛ وما من أحد، أجل، ما من أحد في الدنيا بأسرها، سيأتي لزيارة قبرك؛ سيزول اسمك على وجه الأرض، وكأنك لم توجدي بالكل، وكأنك لم تولدي أبدا! الوحل والسبخة وحدهما سيشملانك، وسيحوْلان بينك وبين العودة، إذ يمكنك دوماً الدق على غطاء التابوت، حين يستيقظ الموتى في الليل، وتصيحين: «دعوني أعود إلى نور النهار، وأعيش يا أيها الأخيار! لقد عشتُ دون أن أرى شيئاً في حياتي، فمضت حياتي كلها في خرقة رثة، وشُربت بعض الأنخاب عليها في حانة من حانات ساحة لوفوان؛ فدعوني أعود من جديد إلى نور النهار، يا أخيار! ... »

بلغتُ حداً كبيراً من المغالاة والتشدّق، إلى أن شعرتُ بأن حنجرتي تشنجاتُ، و... توقفتُ عن الكلام فجأة، ثم نهضتُ من مكاني في ذعر، وقد ملتُ برأسي في خشية، بينما ظل قلبي يخفق بشدة، وأنا أصيخ السمع لما حولي. ثمة بالفعل، ما يستدعي القلق.

استشعرت بداخلي منذ فترة لا يُستهان بها، أني أثرت على نفسيتها، وحطمت قلبها؛ فكنت كلما اقتنعتُ بذلك، كلما ازدادت في أعماقي حدّة الرغبة في بلوغ الهدف، وتحقيق أكبر تأثير

ممكن عليها. لقد كانت اللعبة، نعم، كانت اللعبة هي التي استهوتني؛ إلا أن الأمر لم يكن يستجيب لغواية اللعب وحدها... علمتُ بأن كلامي كان ثقيلاً، ومتكلفاً، ومأخوذاً حتى من بطون الكتب، إلا أني ظللتُ أعلم كذلك بأني لا أستطيع التحدّث بطريقة أخرى، سوى طريقة «مثل كتاب». إلا أن هذا لم يقلقني بالكل. فقد عرفتُ ذلك، وحدستُ بأنها ستفهمني، وأن بإمكان صيغة الكتب في حديثي، أن تذهب حتى إلى حدّ تعضيد مهمتي. والآن، وبعد أن تحقّق الهدف، أصبتُ فجأة بالذعر. لا، أبداً، لم أشاهد في حياتي أبداً مثل ذلك اليأس والإحباط! كانت ممدّدة فوق الفراش، دافنة وجهها في الوسادة، التي ضغطت عليها بكلتا يديها. كان نحيبها المتواصل يمزّق صدرها، وجسمها الفتي يرتعش برمّته، وكأنه أصيب بنوبة اختلاج طويلة. شهيقها المخنوق الذي يضغط على صدرها، ظل يمزّقها، ويأكلها من الداخل، ثم سرعان ما انفجر فجأة، على شكل صراخ أشبه ما يكون بالصياح. بعد ذلك، ضغطت بمزيد من القوة على الوسادة، التي شدّتها إلى وجهها، وهي لا تريد من أحد هنا أن يعلم ببكائها، فبدت وكأنما هي تعض عليها (وقد عضات من قبل على ذراعها، حتى سال الدم منها، مثلما لاحظت بعد ذلك)، أو أنها بقيت – وهي تمسك شعرها المخَبّل بأصابعها المتشنجة – جامدة بفعل الجهد الذي بذلته، حابسة أنفاسها، وكازّة على أسنانها. أردتُ أن أتحدث إليها، أن أطلب منها تهدئة روعها، لكنني شعرت بكوني لن أجرؤ على ذلك. وفجأة، إذا بي أبحث بشكل عشوائي عن ملابسي للهرب من هناك، بعد أن انتابتني رعشة هزتني من الرأس إلى أخمص القدمين، فانغمستُ بفعلها ضمن دوامة مفاجئة من الرعب.

كان الوقت لا يزال ليلاً مظلماً: ورغم ما بذلته من جهد جهيد في البحث عن ملابسي، لم أتفوق في أن أسرع، إذ أخذ مني ذلك وقتاً لا يُستهان به. وفجأة، عثرت في خضم بحثي على علبة ثقاب، وعلى شمعدان صغير به شمعة لا تزال مُصانة. وما أن أضيئت الغرفة، حتى قفزت ليزا جالسة، فرفعت في اتجاهي عينيها في نوع من التقطيب، وعلى وجهها ارتسمت ابتسامة نصفِ مجنون، وأخذت تنظر إليّ بعينين بلهاوتين، فقدتا تقريباً أي معنى. جلستُ بالقرب منها، وأخذت يديها؛ ثم استعادت وعيها، فارتمت عليّ، تريد أن تضمّني إليها بذراعيها، لكنها لم تجرؤ على ذلك، فنكّست رأسها في هدوء.

– ليزا، يا صديقتي. لقد أخطأت... ألتمس منك أن تصفحي عني. هكذا بدأتُ أحدّثها من جديد، لكنها ضغطت على يدي بين أصابعها ضغطاً بلغ من القوة حداً فهمت معه إشارتها. لقد أدركتُ أني ما تفوهتُ سوى بحماقات، فتوقفت عن الكلام.

– ها هو ذا عنواني، يا ليزا. مرّي علي في زيارة.

– سأمرّ عليك... دمدمت هامسة بصوت اصطبغ بنبرة حاسمة، لكن دون أن ترفع صوتها.

– سأنصرف الآن، الوداع... إلى اللقاء.

قمتُ من مكاني، ونهضَت هي كذلك: بعدها احمرّت فجأة، واختلجت، ثم أمسكت وشاحاً كان موضوعاً فوق كرسي، وألقته فوق كتفيها، وضغطتُ عليه بشدة إلى أن بلغ ذقنها. بعد

ذلك، ارتسمت على وجهها ابتسامة مشبعة بالألم، ثم احمرّت من جديد، وأرسلت نحوي نظرة غريبة. آلمني منها ذلك، فأسرعت في الاختفاء من أمامها، والانطماس في عتمة الليل.

– انتظر، قالت فجأة، لمّا اقتربنا سلفاً من المدخل المجاور للباب، وهي تمسك بمعطفي؛ تنصلتْ بسرعة من الشمعدان، ومضتْ تركض: ربما تذكرت شيئاً، تريد أن تُريه لي. قبل أن تمضي راكضة، احمرّت منها الوجنتان، ولمعت العينان، وارتسمت على شفتيها ابتسامة؛ تُرى ما سرّ كل ذلك؟ وعلى الرغم مني، انتظرتها. عادت بعد لحظة، وفي نظرتها ما يشي بطلب الصفح. على العموم، لم يبقَ وجهها مثلما كان، ولم تبق نظراتها نفسها مثلما كانت: مقطبة، ومرتابة، وعنيدة. صار يُقرَأ فيهما الآن، الضراعة والعذوبة، وكذلك الثقة، والحنان، والخفر. بمثل تلك النظرات يتطلع الأطفال إلى من يحبّونهم أكثر، وهم راغبون في أن يطلبوا منهم شيئاً ما. لقد كان لها عينان بلونٍ بني أشقر، عينان جميلتان للغاية، عينان مفعمتان بالحياة، وتعرفان كيف ينبغي أن تعبّرا في الوقت نفسه، عن الحب والكراهية السوداء.

دون أن تشرح لي شيئاً – وكأني شخص رفيع القدر، ينبغي أن يعرف كل شيء، دونما شرح ولا تفسير – مدّت يدها إليّ بورقة. عندها، أشعّ وجهها بفرح ساذج إلى أبعد حدّ، أقرب ما يكون بفرح الأطفال. بسطتُ الورقة بين يدي. كانت رسالة من طالب يدرس الطب، في ما أعتقد، وكانت إعلان حب مُصاغٍ بلغة مشبعة بالكلمات الطنانة، والصور البلاغية الكثيرة، إلا أنها لغة محترمة إلى أقصى حدّ. لم أعُد أتذكّر بالضبط الكلمات، التي صيغ بها ذلك الإعلان، ولكن ما زلت أذكر أن هناك، وسط ذلك الزخم الهائل من الأساليب الفخمة، عاطفة تشفُّ

عن الصدق والصراحة، هي عاطفة أولئك الذين يستحيل تقليدهم. وما أن انتهيت من القراءة، حتى التقت نظراتي بنظرات ليزا المحتدمة والفضولية والمترعة بنفاد الصبر الصبياني، وقد ظلت تحدّق فيّ. كانت عيناها منشدَّتين إلى وجهي، وتنتظر بحرارة ما سوف أقوله لها. وببضع كلمات سريعة، ولكن مع نوع من الفرح، ونوع من الاعتداد بالنفس، شرحت لي بأنها حضرت ذات يوم، سهرة راقصة لدى أسرة من الأسر: «لدى ناس محترمين، محترمين جداً، ويعيشون في جو أسروي، ولا يعرفون عنها أي شيء بعد، لا يعرفون على الإطلاق أي شيء»، لأنها في العمق حديثة العهد هنا بالمحل. ولم تقرّر بعد إن كانت ستبقى، ولكنها في الأغلب ستتركه، بعد أن تسدّد ما عليها من ديون... إذن، كان ذلك الطالب هناك، وقد رقصا سوية طيلة الأمسية، وتحدثا معاً كذلك، واكتشفا أنهما رأيا بعضهما بعضاً في ريغا، حين كانا طفلين صغيرين، وأنهما لعِبا معاً، لكن كان ذلك في فترة بعيدة؛ وكان هو يعرف كذلك والديها، إنما أمرها هذا الآن، لا يعرف عنه أي شيء، أي شيء، أي شيء على الإطلاق، ولم يكن قد شك فيها بالمرة. وهكذا، وفي اليوم الموالي للحفلة الراقصة (وكان ذلك منذ ثلاثة أيام)، بعث إليها بهذه الرسالة، من طريق الصديقة التي حضرت معها الحفلة... و... هكذا... حصل كل شيء..

وما أن أنهت حكايتها، حتى نكّست بصرها المشعّ، وكأنما هي شعرت ببعض الخفر.

كانت المسكينة الصغيرة تحتفظ برسالة الطالب، وكأنها شيء ثمين، وكأنها الكنز الوحيد الذي مضت تركض باحثة عنه، لأنها لا تريد أن أنصرف، دون أن أعرف أنها موضوع حبّ شريف

وصادق، وبأن هناك من يتحدّث إليها باحترام وتقدير كذلك. لقد قُدّر لتلك الرسالة أن تبقى في صندوقها، دون أي تتمة. لكن، ما أهمية كل ذلك؟! لقد كنت مقتنعاً بأنها سوف تحتفظ بها طيلة حياتها كلها، وكأنما هي كنز، وكأنما هي فخرها وتعلّة وجودها؛ وإن كانت قد تذكّرتها من تلقاء نفسها، في هذه اللحظة، وجاءتني بها، فإنما لكي تُعلي بشكل ساذج من شأنها أمامي، ولكي تُعيد الاعتبار لنفسها علي مرأى من عيني، ولكي أراها أنا بنفسي، وأهنِّئها عليها... لم أقُلْ لها أي شيء، وإنما صافحتها بيدي، وخرجت. كانت تحدوني رغبة عارمة في الانصراف... فقطعتُ الطريق كله مشياً على الأقدام، رغم ذلك الثلج الذائب الذي ظل يتساقط دائماً، بندف ضخمة. لقد كنتُ منهكاً، ومحطماً، وذاهلاً، لكن الحقيقة أمست سلفاً تلمع من وراء ذلك الذهول. وكانت حقيقة دنيئة!

٨

لم أقبل مع ذلك، بالموافقة على هذه الحقيقة فوراً، وإنما بعد أن مضى عليها بعض الوقت. ففي اليوم الموالي، حين استفقتُ بعد ساعات من النوم العميق، ومن النوم الثقيل، استعدتُ تفاصيل اليوم السابق دفعة واحدة، وذهبت حدّ الاندهاش من نزعتي العاطفية اتجاه ليزا، ومن «تلك المخاوف ومشاعر الشفقة التي استبدّت بي ليلة أمس». أينبغي أن تنتابك – هكذا – فورة أعصاب أنثوية؟! تباً لك! ردّدت في نفسي. ولأجل ماذا أعطيتها عنوانك؟ ثم ماذا لو أنها جاءت؟ ألا فلتجئ، إذن! ليس لهذا من أهمية تُذكر. إنما الشيء المهم للغاية والأساسي جداً، لا يكمن للبداهة الشديدة هنا: إن عليّ بالإسراع، وحفظ سمعتي في أعين زفيركوف

وسيمونوف. هذا هو الأساسي. أما ليزا، فقد نسيتها بشكل كلي، وسط انشغالات تلك الصبيحة.

ينبغي قبل كل شيء، أن أدفع لسيمونوف ودون مماطلة، دَين البارحة. لذا، قرّرت الالتجاء إلى وسيلة ميؤوس منها: اقتراض مبلغ خمسة عشر روبلاً بالتمام، من أنطون أنطونيفيتش. وشاءت الصدفة أن يكون هذا رائق المزاج ذلك الصباح، بحيث إني ما أن فتحت فمي بطلب المال، حتى أعطاني المبلغ المطلوب في الحال. وعلى إثر ذلك، غمرني فرح شديد، حتى إني قلت له وأنا أوقع صك استسلام الدين، وبطريقة جريئة وغير متحرّجة، بأني «أقمتُ أمس، حفلة مع بعض الأصدقاء في فندق باريس، وكانت حفلة توديع رفيق دراسة لي، وقد أذهب إلى حدّ القول بأنه صديق الطفولة؛ وهو مثلما تعرف عربيد ما جن من العيار الثقيل، ثم انه – إن شئت – طفل مدلَّل! ينحدر من عائلة كبيرة بالطبع، تملك جاها وثروة ضخمة، وقد انخرط في مسار مهني متألق؛ إنه باختصار رجل فكرٍ وآداب، ومحبوب جداً، وله علاقات عديدة مع النساء؛ أتتابع معي؟ شربنا ستّ قنينات ويزيد، و... »؛ هكذا حصل. كل ذلك قيل بصيغة فيها الكثير من الخفة والاطمئنان، وليس فيها أي شعور بالحرج.

وما أن عدتُ إلى البيت، حتى أسرعتُ في الكتابة إلى سيمونوف.

وما زلت إلى اليوم، أذكر بكثير من المتعة، تلك النبرة الخفية والمتفتحة التي كتبتُ بها تلك الرسالة، وهي نبرة رجل طيب الخلق من فصيلة جنتلمان حقيقي. ألقيتُ فيها بكيفية حاذقة تتميز بطابعها النبيل، وخاصة بشكلها المختزل والخالي من الحشو والإضافة، بالكثير من

اللائمة على نفسي. وقد برّرت ذلك بالقول: «إن كان لي أن أبرّر فقط ذلك الموقف»، فإن عُذري هو أني كنت بحُكم عدم تعودي على المشروبات الروحية القوية، قد وجدت نفسي سكران منذ الكأس الأولى، التي احتسيتها قبل وصولكم، بين الساعة الخامسة والسادسة، حين كنت أنتظركم في فندق باريس. وكانت اعتذاراتي موجّهة على الخصوص لسيمونوف، الذي رجوْته فضلاً عن ذلك، كي ينوب عني في نقل الاعتذار للآخرين، وأن يشرح لهم دواعي وأسباب ما حصل، خاصة زفيركوف الذي أتذكر أني أسأت إليه، وأهنته «مثلما أتذكر وقائع حلم من الأحلام». وأضفتُ بأنه كان بودّي المرور على جميع الأصدقاء، لتقديم اعتذاراتي الخاصة لكل واحد منهم، إلا أن آلاماً رهيبة في رأسي تمنعني من القيام بذلك، إلى جانب أني أخجل منهم. وما ترك لدي اطمئناناً خاصاً، هو ذلك «الطبع الخفيف»، أو لنقُل ذلك الطبع الذي يُستشف منه عدم الاكتراث المنعكس فجأة على أسلوبي في الكتابة (وهو مع ذلك، عدم اكتراث مناسب جداًا!)، الذي سيجعلهم يدركون بكيفية عفوية وتلقائية تتفوق على جميع شروحي وتفسيراتي، بأني أنظر إلى «ما صدر عني البارحة من سلوك شنيع)» نظرة تتميز بنوع من الحياد والتجرّد، وبأني لست بالكل ساقطاً مثلما قد تتصورون بلا شك، أيها السادة، وإنما أنا عكس ذلك تماماً، أنظر إلى الأمور مثلما يليق بجنتلمان يحترم نفسه برصانة واتزان. وبصيغة أخرى: «انتبهوا إلى من أكون في الحقيقة، ولا تكترثوا إلى ما يصدر عني بالكل!».

– وتملك حتى حسّ الدعابة الجدير بمن هو من فئة الماركيزات؟! قلت مسائلاً نفسي، بعد أن أعدتُ قراءة الرسالة مرّة أخرى، وأنا مغتبط وقرير العين، بما دبجته ريشتي. كل هذا لأني إنسان مثقف ومتعلم! لو كان الآخرون في مكاني، لما عرفوا كيف سيتدبرون أمرهم للخروج بأنفسهم من المأزق، في حين أني أنا الآن في وضعية أفضل، وكل هذا لأني «رجل متعلم ومثقف ينتمي إلى عصره». وبعد، فإن كل ما حدث البارحة حقاً، إنما كان بسبب الخمرة. هَمْمْ... لا، لا دخل للخمرة في القضية. أنا لم أحتس ولو قطرة واحدة من الفودكا، ما بين الخامسة والسادسة، حين كنت أنتظرهم. لقد كذبت على سيمونوف دون وجلٍ ولا حشمة؛ ثم إني في هذه اللحظة بالذات، إنما أكذب دون وجل ولا حشمة...

ومع ذلك، فإني لا أكترث في العمق، لذلك! المهم هو إنهاء هذه الحكاية، والانتهاء منها.

دسستُ ستة روبلات في المظروف، وختمته، ونجحت في إقناع أبولون بحمله إلى سيمونوف. وحين علم أبولون بأن الرسالة تحتوي على بعض المال، أظهر بعض علامات الاحترام الشديد، وتكرَّم بتأمين الخدمة. وفي المساء، خرجت للتنزه. كنت لا أزال منذ ليلة البارحة، أشعر ببعض الصداع والدوار في الرأس. لكن، كلما أخذ المساء في الانتشار، إلا وتكاثفت من حولي العتمة، وتغيرت انطباعاتي، ومعها تغيرت أفكاري. ثمة شيء ما بات يرفض أن يموت في أعماق نفسي وروحي ووعيي، ويتجلى لي عبر تخوف لاهب. تسكّعت في الخصوص بين الشوارع التي يؤمها الكثير من الروّاد، وتعرض الكثير من البضاعة، بما فيها شوارع ميشتشانسكي وسادوفاي وحديقة يوسيوف. لقد كنت أحب دائماً التجول بين هذه

الأزقة، في لحظة الغسق، وتحديداً حينما تتكاثف على جنباتها حشود المارة من كل نوع، بما في ذلك رجال التجارة وأصحاب المهن، الذين يؤوبون إلى بيوتهم مارين من هناك، بعد ساعات النهار التي قضوها في العمل، بوجوههم العابسة والمقطبة بفعل الهموم والانشغالات. إن ما ظل يحلو لي على الخصوص، هو هذا التحرك المجاني بين الشوارع، وذلك الابتذال التافه. إلا أنّ التزاحم في الشارع هذه المرة، لم يزد سوى في استثارة أعصابي، بكيفية كبيرة. لم أقوَ على السيطرة على نفسي، وما استطعت التخلص ممّا ظل يقضّ مضجعي. ثمة شيء ما يفور دونما توقف في أعماق صدري، شيء ما يؤلمني، ويأبى أن يهدأ. فقلتُ راجعاً إلى بيتي، وأنا مغتاظ. وكأني كنت مثقل الوعي والمشاعر بجريمة قتل.

لم تتوقف فكرة احتمال قدوم ليزا عن تعذيبي. شيء ما غريب حدث لي: من بين جميع ذكريات ليلة البارحة، ظلت ذكراها تعذبني بشكل خاص، وقد برزت بشكل مستقل عن بقية الذكريات الأخرى. عند حلول المساء، أفلحت في نسيان البقية كلها – إذ وضعتُ فوقها علامة تشطيب – وأفلحتُ حتى في البقاء راضياً جداً على رسالتي إلى سيمونوف. إنما إلى حدود ذلك، ظل شيء ما يعكّر صفو رضاي. وكأن ليزا تحديداً، بقيت هي سبب عذاباتي الوحيد. «وماذا لو أنها جاءت؟ قلت في نفسي. إذن، ماذا في ذلك؟ ما أهميته؟ فلتجي! همم! ما يزعج سلفاً هو أنها سترى كيف أعيش. بالأمس، حسبتني... بطلاً... بينما اليوم... همم... على كل، أخطأت حين اندفعتُ معها بتلك الكيفية. إنّ بيتي ليشيع بالبؤس والعفونة. ومع ذلك، تجرّأت بالأمس، وذهبت إلى حفل العشاء، وأنا أرتدي مثل هذه الملابس الحقيرة!

وأريكتي؟ تلك الأريكة المصنوعة من فرو الخُلد، والتي أخذت تفقد بريق لبدتها! ثم تبّاً لملابس البيت الداخلية الممزقة، التي لم تعُد تستر شيئاً! لقد صارت مجرّد خرقة!... لسوف ترى ليزا كل هذا، وستتعرف على أبولون. ذلك الوحش الذي سوف يتعامل معها دون شك، بقلة أدب واحترام. سيهاجمها، كي يماحكني. وأنا بالطبع، سأخاف كالعادة، وسأصير قزماً أمامها، وأودّ لو أن ثيابي الداخلية تلفّني، لأختفي من أمامها، وسأشرع بعدها في الابتسام، والكذب. آه، يا للفظاعة! وليست هذه مع ذلك بالفظاعة الكبرى الوحيدة! هناك ما هو أشدّ بأساً وقذارة ونذالة من كل ذلك! أجل! سيكون عليّ مرة أخرى، أن أضع ذلك القناع غير الشريف، ذلك القناع الكاذب!...».

شعرتُ بعد أن خلصتُ إلى هذه الخلاصة، بحمرة الخجل تتصاعد إلى جبيني.

«كيف تعدّه غير مشرّف؟! أي خجل في ذلك؟! لقد كان كلامي البارحة صادقاً. هذا أذكره جيداً، وأذكر كذلك بأن مشاعري نفسها كانت هي الأخرى صادقة، بقدر ما كانت عليه مشاعر ليزا نفسها. لقد كنت أريد بالتحديد، أن أوقظ فيها المشاعر النبيلة... أما أن تبكي، فذلك أمر حسن، لأن للبكاء تأثيراً إيجابياً... ». ولكني لم أفلح في تهدئة روعي.

عدتُ إلى البيت. وعلى امتداد الأمسية كاملة: رأيتها من جديد، حتى بعد أن انصرمت الساعة التاسعة مساء، وهو الوقت الذي ينتفي معه كل احتمال بإمكانية قدومها؛ والملفت للانتباه بكيفية كبيرة، هو أني كنت أراها دائماً في الوضع نفسه. ثمة، من بين كافة ما حدث ليلة أمس، لحظة واحدة ظللتُ أستعيدها بنظرة نافذة بشكل خاص، وهي اللحظة التي أشعلت فيها

عود الثقاب، فأبصرت وجهها الممتقع، الذي تغيّرت سحنته، ونظرتها التي تفيض باللوعة والألم. يا لتلك الابتسامة الزائفة، والداعية إلى الشفقة، وغير المجدية بالمرة، التي رسمَتْها على وجهها! حينها، لم أكن أعرف أني سأراها من جديد، بعد خمسة عشر عاماً، وبالابتسامة الزائفة نفسها، والداعية إلى الشفقة، وغير المُجدية بالمرة، التي رسمتها على وجهها!

وفي اليوم الموالي، كنت مستعداً من جديد لاعتبار كل هذا مجرد حماقات، وثمرة فورة أعصاب وحسب، ومستعداً على الخصوص لكي أقول لنفسي إني بالغت في الأمر كثيراً. كنت أعرف عني دائماً هذا الضعف؛ وكان هذا في بعض الأحيان يرعبني، فلا أفتأ أردّد بين الفينة والأخرى بأنه: ينبغي لي دائماً أن أبالغ، وهذا هو عيبي القاتل». لكني كنتُ مع ذلك، أردد في خاتمة تفكيري، بأني: «أعتقد أن ليزا ستأتي مع ذلك»؛ وكنت منشغلاً بهذا الموضوع انشغالاً كبيراً، إلى حدّ أني كنت أنتهي في بعض الأحيان، إلى حالات الغيظ المسعورة. «ستأتي، حتماً ستأتي»، كنت أصيح وأنا أطوف في غرفتي من ركن إلى آخر، مؤكداً على أن مجيئها سيتمّ بين يوم وآخر، وأنها ستعرف حتماً كيف ستجدني! لأن هذه الرومانسية اللعينة والرهينة بالقلوب الصافية، تتمّ بالضبط بهذه الكيفية! أوه، يا لهذه الحقارة والحماقة! أوه، يا لوضاعة هذه الأرواح العاطفية السخيفة! فكيف إذن، لا أستطيع أن أدرك هذا؟! قد يسأل المرء كيف لا يستطيع إدراك ذلك؟!... إنما هنا، كنت أتوقف من تلقاء نفسي، وقد بلغ مني الارتباك مبلغا عظيما.

«ولكَمْ يكفي القليل، إنما القليل من الكلمات، ولكم يكفي القليل، إنما القليل من القصيد (الموجّه، والمأخوذ من الكتب، والملفّق أيضاً)، من أجل إعادة روح إنسانية، مثلما يحلو لي ذلك، في لحظة وجيزة. هذه هي العذرية! هذه هي الأرض البكر!».

أحياناً، تراودني فكرة الذهاب إليها لرؤيتها أنا بالذات، وأن «أحكى لها عن كل شيء»، وأن ألتمس منها أن لا تأتى إلى البيت. ولكن، ما أن تستبدّ بي هذه الفكرة، حتى يجتاحني في الحال غيظ شديد، فيجعلني أنكر – في ما أعتقد – في إمكانية خنقها، خنق تلك اللعينة ليزا، لو توجد بالقرب مني، وفي إمكانية إهانتها، وإمطارها بالبصاق، وطردها، وضربها.

لكن، انقضى يوم، وتبعه يوم آخر، ثم ثالث، ولم تجئ، فشرعت أحسن بالمزيد من السكينة والهدوء. كنت أستعيد على الخصوص شجاعتي، ويعود إليّ مزاجي الرائق بعد الساعة التاسعة مساء؛ وكنت في بعض الأحيان، أسترسل حتى في الحلم، بشكلٍ لا يخلو من العذوبة والمتعة. فقد رأيتني على سبيل المثال، «أخلّصُ ليزا من وضعها، لكونها جاءت تحديداً كي تراني، وتتحدث إليّ... فاعتنيتُ بتثقيف ذهنها، وتهذيب سلوكها. وانتهيت أخيراً إلى ملاحظة أنها تحبني بشغف كبير. ومع ذلك، تظاهرت بعدم إدراك أي شيء (لست أدري لماذا تظاهرت بذلك في الأساس؛ ليكون الموقف من دون شك أجمل!). فترتمي في النهاية، على الأرض بالقرب من قدمي، مرتبكة بشكل كلي، وجميلة جداً، وباكية بحرقة، وهي تقول لي إني مخلّصها، وأنها تحبني أكثر ممّا تحب أي أحد آخر. عندها يغشاني الذهول، لكنني... أقول لها: أتعتقدين حقاً، أني لم ألاحظ حبك، يا ليزا؟ لقد رأيت كل شيء، وحزرت كل شيء،

لكني لم أجرؤ على الاعتراف بذلك أنا الأول، لأنك تحت تأثيري، وأخشى أن تُكرهي فيك شعوراً لا وجود له ربما؛ إني لم أشأ أن أقرّ لك أنا الأول بذلك، لأن ذلك من شأنه أن يكون... أن يكون نوعاً من ممارسة الاستبداد... نوعاً من السلوك الذي تنقصه الحصافة ورفعة الذوق (لقد كنت باختصار، شديد التحير، وواقعاً في شرك عاطفي ومهذب وخفي وأوروبي الأصول، على طريقة جورج صاند...). أما الآن، فنعم. الآن، أنت لي، وأنت صنيعتي، وأنت طاهرة، وأنت جميلة، وأنت زوجتي الرائعة».

ادخلي بيتي، بجرأة وجسارة

ادخليه، فأنت حرة، وسيدة أبدية![28]

«بعد ذلك، تبدأ حياة الهناء والسعادة، فننطلق إلى السفر نحو الخارج، وهكذا دواليك، وهكذا دواليك... ». لقد كنت باختصار، أصل أنا نفسي إلى حدّ التقزّز من أحلام يقظتي، فأنتهي إلى إخراج لساني بمفردي.

«لكنهم لن يتركوها، لن يتركوا تلك «العاهرة» تجيء، كنت أقول في نفسي. أعتقد أنهم لن يسمحوا لها كثيراً بالخروج – ولأسباب قوية – في الليل (لا أدري لماذا أريدها بكلّ قوة، إذا ما شاءت أن تأتي، أن يكون ذلك في الليل، وبشكل خاص على الساعة السابعة؟!). على كل

---

[28] هذان آخر بيتين في قصيدة نيكراسوف (Nekrassov)، التي تقع في مطلع الجزء الثاني من هذه الرواية، وهو الموسوم بعنوان: عن الثلج الذائب.

حال، لقد قالت لي إنها لم تقع بعد تحت طائلتهم، وبأنها لا تزال تتمتع ببعض الامتيازات، وبأنها إذن... هَمْمْ! تبًّا! ستأتي! حتماً ستأتي!».

ومن حسن الحظ كذلك، أن أبولون كان يخفّف عني بسلوكه الوقح. كان يغضبني تماماً! فقد كان جرحي، وكان الداء الذي ابتلتني به السماء. وكنا منذ خمس سنوات خلت، نتراشق بالعبارات اللاذعة والنابية، وكنت أكرهه. رباه، لكم أكرهه! أعتقد أني لم أكره أي إنسان آخر، مثلما كرهته هو بالذات، وخاصة في لحظات معينة. فقد كان رجلاً مسناً، تبدو عليه سمات الرصانة والوقار، ويعمل بالخياطة في فترات بعينها. لكني لا أعرف لماذا ظلّ يزدريني إلى أقصى حدّ، وينظر إليّ نظرة متعالية. إذ يكفي أن ترى رأسه الأشقر ذا الشعر الأملس على الدوام، والذي تعلوه عقصة مذهونة بالزيت، وأن ترى فمه صارم القسمات، الذي يزمّه دائماً على شاكلة مؤخرة الدجاج، حتى تشعر بأنك في حضرة كائن لا يشك بالمرة في نفسه، ولا يرتاب فيها. لقد كان في نهاية المطاف مُدّعياً، بل أكبر مدّع صادفته على الإطلاق؛ ثم أضيفوا إلى ذلك أنه يشعر بتقدير شديد لنفسه، جدير بأن يكون للإسكندر المقدوني شخصياً. وكان مغرماً بجميع أزرار قميصه، وبكل ظفر من أظافره، وإن كلمة «مغرم» لمناسبة للغاية في هذا السياق، لأن هيئته وهو يعتني بتلك الأشياء، تنِمُّ بحق عن علاقة غرام لا تخطئها عين. وهو يتعامل معي تعامل المستبد الظالم حقيقة، إذ لا يوجه إليّ الكلام تقريبا، وإن حدث له ورفع عينيه نحوي، فإنه ينظر إليّ حينها نظرة صارمة، نظرة مهيبة، وواثقة في نفسها، ودائماً ما تكون ساخرة، فتدفع بي إلى حدّ الجنون. ثم إنه يؤدي خدمته عندي، وكأنه يسدي إليّ معروفاً

جليلاً. أضف إلى ذلك أنه بالنسبة إلي، لم يعُد يقوم بأي شيء يُذكر، ولا يحسّ أبداً بأنه مضطر إلى القيام بأي شيء يذكر. فهو يعتبرني بداهة، وكأني آخِرُ حقير، ومن ثمة فإنه إذا «ما ظلّ يحتفظ بي إلى جانبه»، فإنما لهذه الغاية الوحيدة فقط: أنه في نهاية كل شهر، يكون في وسعي أن أمنحه أجرة. لقد قبل المسكين بعدم القيام «بأي شيء» عندي، مقابل سبعة روبلات في الشهر! وكم من ذنب كان سيغفر لي بسبب ذلك! وكنت أنا في بعض الأحيان، أبلغ من الحقد عليه درجة قصوى، إلى حدّ أن صوت خطواته كان يكفيني لاندمج في طقس رعشة وغشية. إلا أنّ ما ظل يقزّزني أكثر، هو أنه كان يلثغ. لقد كان له لسان أطول من المعتاد، أو شيء من هذا القبيل، بحيث إنه كان يلثغ باستمرار، وكان فيما أعتقد فخوراً غاية الفخر بذلك، ويظنّ أنّ من شأن لثغته أن تكفل له موقعاً كريماً بشكل يزيد عن الحدّ. كان يتكلم بهدوء، وبصوت موزون، بينما يداه مشبوكتان وراء ظهره، وعيناه مائلتان صوب الأرض. وكان يستثير حفيظتي بشكل خاص، ويجعلني أغلي وأفور من شدّة الغيظ، حين ينهمك في تلاوة المزامير، وهو يلثغ بلسانه. ولشدّ ما تعاركت معه بسبب تلك التلاوة! إلا أنه كان يحب القيام بها، وخاصة في الليل، وبصوت هادى وموزون ومنغم، وكأنه يتلو بعض الآيات ترحماً على الموتى. وما يثير الفضول عنده أكثر، هو أنه انتهى مقرئاً للكتاب المقدّس في المقابر، إذ صار يعتاش على تلاوة آيات ونصوص قصيرة على قبور الموتى، إلى جانب أنه يعمل على إبادة الجرذان، ويصنع الدهان لتلميع الأحذية. لكني وقتها، لم أستطع طرده، فأبقيت عليه بجانبي، وكأنه ظل مربوطاً إلى كياني الوجودي كله، بكيفية كيميائية عجيبة. وإلى جانب هذا،

فإنه لم يكن هو بالذات ليقبل حينها، بالانفصال عني مهما حدث. أنا لم أكن أستطيع الذهاب للعيش في غرفة مفروشة من قبيل ما يُعَدّ للكراء، إذ ظلت شقتي هي فندقي الخاص، وهي قوقعتي، وهي الغلبة التي أستجير بها فراراً من الإنسانية بأسرها؛ وإني لأتساءل حقاً، لماذا لم أستطع طرده وقتها؟ لكن يبدو أن أبولون ظل جزءاً لا يتجزأ من ذلك الكلّ الذي هو الشقة، ما دمت أني ظللتُ لسبع سنوات، عاجزاً عن طرده منها!

كان يستحيل عليّ مثلاً، أن أؤخر دفع مستحقاته بيومين أو ثلاثة. فإذا لم أدفعها له في الوقت المعلوم لها، يثير فضيحة لا أدري كيف أهرب بنفسي منها، لكني في تلك الأيام بالتحديد، بلغت من شدّة حنقي على الإنسانية جمعاء، مبلغاً عظيماً قررتُ معه أن أعاقب أبولون – إنما لماذا فعلت ذلك؟ ولأي هدف؟! – بتأخير أجرته لمدة أسبوعين كاملين. لقد كنت أريد منذ زمن طويل، أن أقوم بذلك، وأتهيأ للقيام به منذ ما يقارب العامين، كي أبرهن له وحسب، بأني قادر على منعه من التعاظم عليّ بتلك الطريقة، التي ما فتئ يتعاظم بها عليّ، وأبرهن له كذلك على أني كلما أردتُ أفعل ذلك، أستطيع عدم دفع مستحقاته. لذلك، قررتُ أن لا أعطيه ما بذمتي، بل وأصمت عن ذلك عمداً، حتى أكسر من زهوه بنفسه، وأجبره على مطالبتي هو الأول بالمستحقات. حينها، سأخرج روبلاته السبعة كاملة من دُرُجها، وسأبين له بأني أملكها، وأني أضعها بشكل متعمّد جانباً، ولكني لا أريد، فقط لا أريد دفع مستحقاته، نعم، لا أريد لأن هذا هو ما يحلو لي، ولأن «هكذا أجد لذتي»، ثم لأنه كائن ينقصه

الاحترام، ولأنه مجرّد جلف وسخ؛ ولكنه في حالة ما إذا التمس مني ذلك بأدب واحترام، سيضطر إلى الانتظار كذلك مدة أسبوعين إضافيين، أو لثلاثة، أو لشهر كامل...

لكن مهما اشتدّ بي الغيظ، وبلغ مني مبلغاً من القوة عظيماً، فإن أبولون هو الذي ينتصر. لم أكن أقوى على الصمود لأكثر من أربعة أيام. إذ يأخذ في فعل ما ظل دوماً يفعله في مثل هذه الحالة، لأن مثل هذه الحالة، أو لأن مثل هذه المحاولة كذلك، ظلت تحدث دائماً من قبل (ولسوف ألاحظ بأني كنت أعرف كل هذا سلفاً، وبأني أحفظ جميع مناوراته الدنيئة عن ظهر قلب)؛ بمعنى أنه قد يأخذ في رشقي بنظرات قاسية جداً، نظرات تستمرّ مسمّرة عليّ لعدة دقائق، خاصة حين يفتح لي الباب عند الدخول، أو حين يرافقني عند الانصراف. وإن حدث مثلاً، وتظاهرتُ بأني لم ألاحظ شيئاً مما يفعله، فإنه ينتقل إلى مناورة أخرى، كأن يدخل عليّ غرفتي فجأة، ودون سبب ظاهر، بخطوٍ رشيق وصامت، وهو ملتزم بالصمت لفترة طويلة، حين أكون منخرطاً إما في المشي من طرف إلى آخر في الحجرة، أو في القراءة؛ حينها، يتوقف بالقرب من الباب، واضعاً إحدى يديه وراء ظهره، ومتقدماً بخطوة إلى الأمام، ليرميني بنظرة لا تشي بعلامات القسوة وحسب، وإنما تشع بعلامات الازدراء المطلق. وإن سألته عمّا يريده، لا يردّ عليّ بالكل، وإنما يواصل رشقي بنظراته الثاقبة لبضع ثوان أخرى، ثم يتحوّل عني ببطء، بعد أن يزمّ شفتيه بكيفية خاصة توحي بدلالة لا تخطئها عين، فينصرف صوب غرفته بالخطو الرشيق والصامت نفسه. بعد ذلك بساعتين، يخرج من حجرته مرة أخرى، ويدخل عليّ الغرفة، ويقف من جديد أمامي. وفي بعض الأحيان، أغتاظ إلى أقصى حدّ،

فأذهب إلى أن أصمت أنا أيضاً، فلا أسأله بدوري عمّا يريد، وإنما أرفع نحوه رأسي بحركة مفاجئة ومتجبرة، وأبقى أرمقه أنا أيضاً دون أن أنكس عيني. وأحياناً، يحدث أن نمكث هكذا الدقيقتين ونيف، ننظر بعضنا إلى بعض؛ فيتحوّل هو عني في الأخير، ببطء وباحتفالية، فيغادر الغرفة لساعتين أخريين.

وإن لم يُجْدِ هذا شيئاً في استعادة رشدي، واستمررتُ في التعنُّت والعصيان، يشرع فجأة وهو ينظر إليّ، في التنهد بشكل طويل وعميق، وكأنه يقيس مع كل تنهيدة من تنهداته، عمق الدّرَك الذي بلغه انحطاطي الأخلاقي، فينتهي كل ذلك بالطبع، بانتصاره الكامل والشامل، إذ أثور أنا، وأصرخ، إلا أن الأساسي هو أني أجبر في كل الأحوال، على تنفيذ مشيئته ورغبته.

لكن، ما أن كادت مناورته العادية التي يحدجني فيها «بالنظرات القاسية» تنطلق، حتى احتدّ غضبي، وارتميتُ عليه، وأنا أفور من شدة الغضب. لقد كانت أوتار أعصابي مضغوطة بشكل مفرط، حتى قبل ذلك.

– توقف! صرخت في وجهه، في اللحظة التي أخذ هو فيها يتحوّل عني ببطء، ودون أن ينبس بأي كلمة، بينما إحدى يديه وراء ظهره، وهو على استعداد للعودة إلى حجرته. توقف!.. عدْ!.. قلتُ لك: عدْ!...

من دون شك، كنت قد صرخت بكيفية مثيرة جداً للدهشة، حدّ أنه التفت نحوي، وأخذ يتفرّس فيّ بذهول. لكن ما زاد من حنقي كثيراً، هو أنه ظل ينظر نحوي في صمت.

– كيف تجرؤ على الدخول عليّ دون استئذان، والنظر إليّ بهذه الكيفية؟! هيا! أجب!

إلا أنه ظل ينظر إليّ زهاء نصف دقيقة، دون أن يفقد هدوءه، ثم تابع حركة تحوله عني ببطء.

– توقف! صرخت، وأنا أركض نحوه. إياك والحركة! حسناً! أجبني الآن: ما الذي جاء بك إلى هنا لتراه؟

– جئتُ لأرى إن كانت للسيد بعض الأوامر في هذه الساعة، لأنفّذها. أجاب بعد برهة صمت، وهو يلثغ بصوته الموزون والمنغم، وقد قطّب حاجبيه، وأخذ يُميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال بكيفية متمهلة، وهو هادى هدوءاً مثيراً للسخط والغضب.

– ليس هذا هو! ليس هذا هو ما سألتك عنه، يا جلاد! صرختُ في وجهه، وأنا أرتجف من شدّة الغيظ. سأقول لك أنا بالذات ما الذي جئت تبحث عنه هنا، يا جلاد: لقد رأيت بأني لم أعطك مستحقاتك؛ فلم تشأ، لاعتدادك بنفسك، أن تنحطّ إلى دَرَك التماسها مني، ولهذه الغاية تأتي لتعاقبني، وتعذبني بنظراتك البلهاء، دون أن تنتبه يا جلاد! بأنّ ذلك عمل أخرق، أخرق، أخرق!

أوشك مرة أخرى على التحول عني دون أن يقول أي شيء، لكنني تماسكت.

– اسمع، ها هي مستحقاتك! انظر (وكنت قد أخرجتها من درج منضدة صغيرة): إنها سبعة روبلات بالتمام والكمال! لكنك لن تتسلمها، لن تأخذها ما لم تأتني باحترام، وأنت منكس الرأس، وتلتمس مني الصفح والغفران. أفهمت؟!

– أبداً، لن يحدث هذا! أجاب بنوع من التظاهر بالثقة والطمأنينة.

– بلى! أقسم لك بشرفي أنّ ذلك ما ينبغي لك القيام به، لتستلم مستحقاتك! صرخت في وجهه.

– ليس عليّ ما ينبغي أن أطلب صفحك عنه. قال مواصلاً الحديث، وكأنه لم ينتبه لصراخي... إنما أنت من وصفني بـ «الجلاد»، وأستطيع إن أَرَدْتَ دائماً، أن أرفع بك شكوى لدى مفوضية الشرطة.

– هيّا، اذهب! ارفع شكواك! اذهب حالاً، في هذه اللحظة، في هذه الدقيقة حتى، وارفع بي شكواك... ومع ذلك، أنت جلاد! جلاد! جلاد! قلت له، وأنا أصيح.

اكتفى بالنظر إليّ، ثم أدار ظهره، ودون اكتراث لكلامي، عاد إلى الانصراف نحو غرفته بخطوات موزونة وغير مختلة.

«لو لم تكن ليزا هي السبب، لما حدث لي أي شيء من هذا»، قلت في نفسي حاسماً. بعد ذلك، وبعد برهة وجيزة ظللتُ فيها جامداً في مكاني، مشيتُ نحوه حيث غرفته وراء الستار، بخطوات صارمة ومُشبعة بمظهر الأبهة، لكن بقلب يخفق بقوة.

– أبولون! قلت بهدوء، لكن بلهاث. هيا! اذهب الآن، دون انتظار، وابحث عن مفوض الشرطة بنفسك.

كان قد جلس إلى منضدته، ووضع على عينيه النظارة الطبية، وتهيأ سلفاً للخياطة. لكنه ما أن سمع الطلب الذي طلبته منه، حتى انفجر فجأة بالضحك.

– اذهب حالاً، وفي هذه اللحظة بالذات! اذهب، وإلا لن تعرف ما بإمكانه أن يقع!

– لقد فقدت رشدك حقاً... أين رأيتَ في الدنيا بأسرها، من يبحث بنفسه عن الشرطة، لتحتجزه؟! أما إذا أردت أن تخيفني، فاعلم أيها السيد بأنّ ذلك ضرب من العبث، لأن ما من شيء يخيفني... أشار أبولون قائلاً، دون أن يرفع حتى رأسه نحوي، وهو يلثغ دائماً بالهدوء والنغم نفسهما، وقد واصل نظم الخيط في سمّ الإبرة.

– اذهب! صرخت من جديد بصوت حادّ، وأنا أمسك به من كتفه. شعرتُ وكأني على وشك ضربه.

لكني في تلك اللحظة، لم أكن قد سمعتُ بأن باب مدخل الشقة قد فتح فجأة وبهدوء، وبأن شخصاً قد دخل، وتوقف في مكانه ينظر إلينا نحن الاثنين، في ذهول. رفعت عينيّ، وإذا بالخجل يحطمني، فركضتُ نحو غرفتي. وهناك، أسندت رأسي إلى الجدار، ومكثت جامداً، بينما أمسك شعري بكلتا يدي.

بعد ذلك بدقيقتين، سمعتُ وقع خطوات أبولون البطيئة.

– هناك امرأة تطلبك. قال وهو ينظر إليّ بطريقة شديدة القسوة، ثم بعد ذلك تنحي، لتداخل... ليزا.

لم يشأ الانصراف، فمكث جامداً في مكانه يتفرَّس فينا بعين ساخرة.

– هيّا، انصرفْ! انصرفْ! أمرته، وأنا لا أعرف بالمرة ما الذي كان عليّ أن أفعله، ولا كيف وجب عليّ أن أتصرف.

في تلك اللحظة بالضبط، نعقتْ ساعتي الحائطية بمجموع قوتها، معلنة الساعة السابعة.

٩

ادخلي بيتي، بجرأة وجسارة

ادخليه، فأنت حرة، وسيلة أبدية!

مكثتُ أمامها منهاراً ومهشَّماً ومتضايقاً بشكل رهيب. وأظنّ أني كنتُ بحق أبتسمُ، وأحاول جهد الإمكان أن أعدّل من تلابيب كسوتي القطنية الداخلية الوسخة. الحاصل، أني كنتُ أعيش تماماً، التفاصيل الحرجة نفسها كما تصوّرتها في خيالي حديثاً، في لحظة من لحظات يأسي. وحتى حين انصرف أبولون، بعد أنْ بقي لدقيقتين كاملتين ينظر إلينا، فإني لم أشعر بأيّ تحسّن في حالتي. وأسوأ ما في الأمر كله، أنها شعرت هي الأخرى بتضايق رهيب، حين رأتني على تلك الحال، لم أكن قد توقعته منها.

– اجلسي. قلتُ لها بكيفية آلية، وأنا أضع كرسياً أمامها، بالقرب من منضدة، وجلستُ بدوري على الأريكة. أطاعتني في الحال، فجلستُ بهدوء، وأخذتُ تحدّق في؛ ربما كانت تتوقع مني شيئاً ما. أغاظتني كثيراً سذاجة ذلك الانتظار، لكني حافظت على رباطة جأشي.

كان عليّ هنا ألا أجهد نفسي، حتى لا أرى أي شيء، وأتصرف وكأن كل شيء كان طبيعياً، وعلى ما يرام، لكنها... فشعرتُ بكيفية غامضة، بأنها سوف تدفع غالياً، ثمن كل هذا.

– لقد وجدتِني يا ليزا، في وضع غريب. قلتُ لها مبادراً بالكلام، وأنا أتلعثم، وكنتُ أدرك تماماً، بأنه ما ينبغي عليّ بالتحديد، أن أبدأ من هذه النقطة. ثم صحتُ فيها على حين غرة، بعد أن رأيتها قد احمرّت من فرط الخجل: لا، لا ينبغي أن يخطر ببالك، شيء من ذلك القبيل!... أنا لا أخجل من فقري... بالعكس، الفقر عندي مدعاة للفخر. أنا فقير، لكنني شريف... ويمكن للمرء أن يكون فقيراً وشريفاً (تابعتُ مغمغماً). بالمناسبة، هل ترغبين في كأس شاي؟

– لا... قالت في شبه اعتراض.

– انتظري!

ثم قفزتُ، وركضتُ صوب غرفة أبولون. لقد كان عليّ أن أعثر على أي وسيلة، لأحتفي بها في تلك اللحظة.

– أبولون... همستُ قائلاً بسرعة محمومة، وأنا أقذف أمامه بالروبلات السبعة، التي ظللتُ خلال تلك المدة كلها، أحتفظ بها في قبضة يدي... ها هي ذي مستحقاتك. لاحظ أني أدفع لك أجرتك. إنما في المقابل، عليك أن تنقذني: اركض في الحال، وجئني بالشاي وعشر بسكويتات، من النّزْل. وإنّ رفضت الذهاب، جعلتني أبأس الخلق أجمعين! أنت لا تعرف

أي امرأة هي... إنها كل شيء! ربما ذهب ظنُّك إلى شيء ما... إنما أنت لا تعلم فحسب، من تكون تلك المرأة بالذات!

شرع أبولون في البداية، بتحويل بصره نحو الروبلات السبعة، دون أن ينبس بشيء، ودون أن يتوقف عن عمله، بعد أن كان قبل أن أدخل عليه، قد استأنف الخياطة، ووضع النظارة الطبية على عينيه. وبعد أن تفحص الأوراق المالية، واصل محاولة نظم الخيط في سم الإبرة، مهمّشاً حضوري بالقرب منه بشكل تام، ومتجنباً حتى الردّ عليّ كدأبه دائماً. مكثتُ لثلاث دقائق على تلك الحال، أنتظره وأنا واقف، وقد شبكتُ ذراعي على الطريقة النابليونية. تندَّى صدغاي من فرط العرق، وامتقع لوني بالشحوب، فشعرتُ أنا بكل ذلك. لكنه اضطر إلى أن يرأف عليّ، ولله الحمد، لما رآني على تلك الحال. إذ لمّا انتهى من نظم الخيط، قام من مكانه ببطء، ودفع الكرسي عنه إلى الخلف ببطء، ونزع النظارة الطبية عن عينيه ببطء، وتناول الروبلات السبعة ببطء، وغادر الغرفة أخيراً ببطء كذلك، بعد أن سألني وهو ينظر إليّ من علٍ، إن كان ينبغي الإتيان بإبريق كامل من الشاي. وفي الوقت الذي عدتُ فيه مرة أخرى نحو ليزا، خطرت ببالي فكرة: أليس من الأفضل لي أن أفرنقع مثلما أنا، بكسوتي القطنية الداخلية الوسخة، ثم ليقعْ ما ينبغي أن يقع، بعد ذلك!

جلستُ من جديد، في مكاني. وكانت تنظر إليّ في حيرة وانشغال. فمكثنا صامتين لعدة دقائق، دون أن نقول لبعضنا أي شيء.

– سأقتله! صحتُ على حين غرة، وأنا أضرب المنضدة بقبضة بلغت من قوتها أن تطاير المداد من المحبرة.

– رباه! ماذا بكَ؟ صاحتْ، وقد قفزت في مكانها، من شدّة المفاجأة المخيفة.

– سأقتله! سأقتله! واصلتُ الصياح، وأنا أنزل بضربات متتابعة من قبضتي على الطاولة، بنوع من البلادة المطلقة، مدركاً في الآن نفسه، وبكيفية مطلقة، بأن من الغباء الاستمرار في الظهور أمامها، بذلك المظهر البليد.

– أنتِ لا تعرفين يا ليزا، من يكون بالنسبة لي ذلك الجلاد.. إنه جلادي... لقد ذهب يبحث عن بعض البسكويتات؛ و...

انخرطتُ فجأة، في البكاء. لقد انتابتني نوبة أعصاب. وبين كل شهقة وشهقة، كثيراً ما شعرتُ بنوبات ثقيلة من الخجل. لكني لم أستطِعْ التحكّم في نفسي. ثم أصابتها العدوى هي الأخرى، فصارتْ تبكي.

– ما الذي جرى لك؟! لكن، ما الذي جري لك؟! كانت تصيح، وهي تهتز من حولي.

– ائتني ببعض الماء!... إنه هناك!... تمتمتُ بصوت مشوْبٍ بعلامات الضعف، وأنا أدرك تمام الإدراك مع ذلك، بأن بمقدوري الاستغناء عن الماء، وأن لا أتمتم بمثل ذلك الصوت الضعيف، لكني كنتُ أقوم بما يُسمّى التمثيل، كي أستطيع إنقاذ ماء الوجه، حتى وإن كانت أزمتي العصبية حقيقية.

أمدّتني بكأس ماء؛ ونظرتْ إليّ نظرات مفرغة وتائهة. وفي تلك الأثناء، جاءنا أبولون بالشاي. وبدا لي فجأة، بأن ذلك الشاي العادي، قد تحوّل بشكل فظيع وغير لائق، بعد أن حصل ما حصل، إلى شاي حقير؛ فاصطبغتُ بحمرة الخجل.

نظرتْ ليزا صوب أبولون، بنوع من الفزع، لكنه انصرف دون أن يلقي علينا أي نظرة.

– هل تحتقرينني، يا ليزا؟ سألتها، وأنا أحدّق فيها، وأرتجف من فرط نفاد صبري لمعرفة ما ظلت تفكّر فيه.

بدا عليها التضايق، فلم تحرْ جواباً.

– تناولي شايَك. قلتُ بنبرة حانقة.

كنتُ حانقاً على نفسي أنا بالذات، لكنها هي بالضبط من ينبغي أن يدفع الثمن. وإذا بغضب شديد منها، يشرع فجأة في الغليان داخل قرار قلبي، وأعتقد جيداً بأني لو تماديتُ، كنتُ سأقتلها. وحتى أنتقم منها، أقسمت بيني وبين نفسي، أن لا أوجّه إليها ولو كلمة واحدة، طيلة الوقت الذي ستقضيه معي هنا. «إنها السبب في كل هذا»، ردّدتُ في نفسي.

دام الصمت بيننا خمس دقائق أخرى. ظل الشاي موضوعاً فوق المائدة، ولم نلمسه أبداً؛ فقد آليتُ على نفسي أن لا ألمسه، كي أؤزّم وضعها أكثر؛ إذ لو أنها بدأت في لمسه هي الأولى، كانت ولا شك ستشعر بالحرج الشديد. نظرتْ إليّ عدّة مرات، بدهشة مشوبَة بالحزن. تشبثت بصمتي. لقد كنتُ أنا بطبيعة الحال، هو الذي يعاني أكثر، لأني أدركتُ تماماً مدى الإسفاف

الذي بلغته فظاظتي وحماقتي الغضبى، لكني ظللتُ أدرك في الوقت نفسه، بأني عاجز تماماً عن السيطرة على نفسي.

– أريد أن أمشي... بصفة نهائية... من هناك. بادَرَت بالقول، كي تقطع حبل الصمت، لكن ما كان ينبغي لتلك المسكينة، أن تبدأ من تلك النقطة بالتحديد، في مثل هذه اللحظة الخرقاء، وهي تتحدث إلى إنسان حيواني الطبع بما فيه الكفاية، مثلي. قلبي نفسه طعنني إشفاقاً منه على خرَقها، وانعدام مهارتها، واستقامتها غير الملائمة، ولا المجدية، لكن ذلك الإشفاق كذلك، سرعان ما خنقه شيء ما وحشي فيّ؛ فلم أكتفي بخنق مشاعر الشفقة وحسب، وإنما ذهب ذلك الشيء حدّ استثارتي أكثر فأكثر ضدها؛ وليقع بعد ذلك ما يقع!

ثم مضت خمس دقائق أخرى.

– أأزعجتُك؟ بادرتْ مرة أخرى إلى القول، بخجل شديد، وبصوت لا يكاد يُسمع، وقد نوَت القيام من مكانها.

لكن ما أن بدَت لي منها تلك البوادر، التي تنم عن كبرياء جريحة، حتى أخذتُ أرتجف من الغضب، ثم انفجرت عليها للتو:

– أجيبيني: لماذا أنت هنا، من فضلك؟ تلفّظت بذلك بشكل سريع، ودون مراعاة للنظام المنطقي الذي يربط بين الألفاظ. أردتُ أن أقول لها كل شيء، دفعة واحدة، وبشكل فجائي؛ ولا يهم من أين ينبغي أن أبدأ.

– لماذا أنت هنا؟ أجيبي! أجيبي! صحتُ فيها، وأنا في حالة أقرب إلى الغيبوبة... لسوف أجيبك أنا بنفسي، يا صغيرتي. جئت، لأني تحدثتُ إليك يومها، بكلام رقيق ومؤثر. ولذلك، رقّت مشاعرك على الفور، فاحتجت من جديد إلى هذا الكلام الرقيق والمؤثر. إنما عليك أن تعلمي يا صغيرتي، أن تعلمي بأن ما وقع يومها، كان مجرّد مسخرة حقيقية. عليك أن تعلمي بأني سخرتُ منك بحق. واليوم أيضاً، والآن بالضبط أنا أسخر منك. فلماذا ترتجفين؟ أجل، لقد سخرتُ منك، وما زلتُ إلى الآن أسخر منك. فقد تعرضتُ للإهانة في محفل عشاء. أهانني هؤلاء الذين زاروك قبل أن أحل. وجئتُ إلى ذلك المحل، بنية الانتقام من واحدٍ منهم، هو الضابط العسكري تحديداً؛ لكنني لم أوفّق في ذلك، إذ لم يعُد موجوداً هناك؛ وكان عليّ أن أفرغ شحنة الإهانة على أحد ما، وأصل بذلك إلى تحقيق مُرادي، فكنتِ أنتِ من وجدتُ أمامي هناك، فأفرغتُ عليك جام غضبي، وسخرتُ منك. لقد أُهِنتُ، وأردتُ أنا بدوري أن أهين أحداً ما... نُعتْتُ بالإمْعَة وبضعيف الشخصية، فأردتُ بدوري أن أُظْهِر قوتي... هذا هو كل ما في الأمر. فإذا أنتِ تظنين، بأني جئتُ عن قصد، لأخلّصك. أليس كذلك؟! أهذا ما اعتقدته؟! أهذا ما تخيلته؟!

كنتُ أعرف أنها ربما سترتبك في تلك اللحظة، وأنها لن تفهم كل الجزئيات والتفاصيل؛ إلا أني عرفتُ كذلك بأنها ستفهم الأساسي من هذا الحديث، فهماً تاماً. وهذا هو ما حصل، بالفعل. امتقع وجهها، وعلتْه صفرة ظاهرة، حتى صار في مثل لون البطيخ الأصفر، وتلوّتْ شفتاها بفعل الألم، وأرادتْ أن تقول شيئاً، إلا أنها سرعان ما تهالكتْ على الكرسي، كمن

تلقى ضربة بساطور. بعد ذلك، تابعت الاستماع إلى حديثي كله، بفمٍ فاغر، وعينين جاحظتين، وهي ترتجف من جراء خوف رهيب. لقد كانت وقاحتي الصلفة في الكلام، هي التي سحقتها سحقاً، بمثل تلك الكيفية.

– أنْ أنقذك؟! لكن، مِمّاذا أنقذك؟! واصلتُ الحديث معها، وقد نهضتُ واثباً من على الأريكة، وأخذتُ أذرع الغرفة طولاً وعرضاً، وأنا أمشي من غير توقف... ومن أدراك؟! قد أكون ربما أسوأ منك حالاً ومالاً! ثم لماذا لم تصرخي أنتِ في وجهي، حين كنتُ ألقي عليك موعظتي الطويلة، قائلة: «وأنت؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أجئت لتعطينا درساً في الأخلاق، أم ماذا؟!»... لقد كنث حينها، في حاجة إلى بعض السلطة، في حاجة إلى أن أعبث بك، إلى أن أعتصر دمعك، وأخضعك بشكل وضيع، وأن أستثير نوبات بكائك الهستيرية؛ هذا بالضبط، هو ما كنتُ في حاجة إليه، يومها! لكني لم أملك مع ذلك، القدرة اللازمة على الصبر والتحمل، لأني لستُ سوى حطام أوساخ، فإذا بالخوف يستبدّ بي، وإذا بي أعطيك عنواني، دون أن أعرف حتى سبب واحد وجيه لذلك؛ بحيث إني ما إن خرجت بعد ذلك، وحتى قبل العودة إلى البيت، أخذت في شتمك بكل الشتائم الممكنة، بسبب ذلك العنوان بالضبط. لقد كرهتك سلفاً، لأني كذبتُ عليك؛ ولأن ما أفلح فيه أنا هو اللعب بالكلمات، وهو الاستغراق في أحلام اليقظة، ولأن ما أريده بالفعل هو هذا: أن تذهبوا جميعاً إلى الجحيم. هو ذا ما أريد! إنني بحاجة إلى سلام. ولكي يتركوني أعيش في سلام، أنا مستعدّ لبيع الأرض كلها بفلس صغير واحد، وعلى الفور. وإن سألني سائل: «وما الذي تفضل:

أن يختفي العالم، أو أن تحرمَ من فنجان الشاي؟»، أردّ عليه: فليختفي العالم بأسره، شريطة أن يبقى فنجان شايي مضموناً، على الدوام. فهل كنت تعلمين هذا، أم لا؟ أما أنا فأعلم أني إنسان سافل، وقذر، ولئيم، وأناني، وخامل. لقد مكثتُ لثلاثة أيام متواصلة أرتجف، لأني انتظرتُ مجيئك. أتعلمين ما الذي ظل يشغل بالي أكثر، خلال تلك الأيام الثلاثة؟ إن ما شغل بالي في الأساس، هو أني كنت يومها، قد لعبتُ أمامك دور البطل، غير أنك سترينني على حين غرّة، مدثراً بهذه الكسوة الداخلية المتهرئة والبئيسة والمقززة. لقد قلت لك قبل قليل بأني لا أخجل من فقري، لكن عليك الآن أن تعلمي بأني أخجل منه أكثر ممّا أخجل من أي شيء آخر، وأني أخشاه أكثر ممّا أخشى أي شيء آخر، أكثر من التعاطي للسرقة، لأني أعاني من الغرور والزهو المفرطين، كمن سُلِخت جلدته بالكامل، إلى حدّ أن لمسة هواء واحدة تكفي وحدها، لتؤذيني. فهل ما زلتِ إلى حدّ الآن، لم تدركي حقيقة، بأني لن أغفر لك كونك وجدتني بهذه الملابس الداخلية المتهرئة والبئيسة أبداً، في اللحظة التي كنتُ أهجم فيها على أبولون، وكأني كُلَيْب شرس؟! إن مخلصك ومنقذك وبطلك السابق، ليرتمي على خادمه، مثل كُليْب أجرب، بينما الخادم يسخر منه! مثلما لن أغفر لك أنت كذلك، تلك النوبة العصبية التي انتابتني قبل قليل، فأخذتُ أذرف دمعاً مدراراً أمامكِ، دون أن أقدر على التحكم في نفسي، وكأني امرأة ضُبِطَتْ في حالة فضيحة! أجل، إنك أنتِ، وأنتِ وحدك من ينبغي عليه أن يتحمّل وزر كل هذا، لأنك أنت مَن عثرتُ عليه هنا وهناك، لأني سافل، وأشدّ مدعاة للتقزّز، وإثارة للسخرية، وأشد بؤساً وحقارة، وأشد غباء، وحسداً من جميع الديدان التي

يعج بها العالم. إن جميع هؤلاء لا يفضلونني بشيء، ولا يتفوّقون عليّ بأي شيء، لكن أمرهم لا ينكشف للناس أبداً، ولا يشعرون – والله وحده يعلم السبب – بالخجل أبداً؛ بينما يمكن لأي دويدة أن تقرصني أنا طيلة الحياة، وتجعلني أشعر بالألم مدى الحياة؛ هكذا أنا! فما الذي تريدين مني أن أفعل، سواء أفهمت جميع ما قلته، أم لم تفهميه؟! وما الذي تريدين مني أن أفعل بك، وأن أعرف ما إذا كنت آيلة إلى الهلاك؟! وهل تدركين أخيراً، بعدما بحْتُ لك بكل هذا، مدى الكراهية التي سأكرهك بها، لأنك وُجدتِ هنا، وسمعتِ ما سمعته؟! إن المرء لا يستطيع الاستسلام لمثل هذا البوح، وبمثل هذه الكيفية التي تمّ بها هنا والآن، إلا لمرة واحدة في حياته فقط، ومن خلال نوبة أعصاب، فوق ذاك!... فماذا تريدين مني أكثر؟ ثم ما الذي يبقيك جامدة أمامي هكذا، بعد كل هذا الكلام؟! ولماذا تسوميْنَني العذاب؟ ولِمَ لا تنصرفين؟!

وفجأة، حدثت في تلك الأثناء، حادثة غريبة. كنتُ معتاداً جداً على التفكير في كل شيء، وعلى تخيّل كل شيء، وكأن ذلك قد انبثق عن كتاب؛ مثلما كنتُ معتاداً جداً على تمثل العالم في ذهني، وكأني أنا من خلقه من قبل، أثناء أحلام يقظتي، إلى حدّ أني لم أكن قد فهمتُ هذه الواقعة في حينها، وبالسرعة اللازمة. والحال، أن ما حدث هو كالآتي: لقد فهمتُ ليزا، التي أهنتُها، وسحقتها سحقاً، أكثر ممّا تخيلت أنا. فهمتُ في البدء ما تفهمه المرأة، التي تحبّك منذ الوهلة الأولى، وأقصد كونها فهمت بأني أنا بالذات، كائن بئيس وحزين.

على صفحة وجهها، زالتْ سمات الخوف والمذلّة، التي كانت قد ارتسمت عليها في البداية، لتحلّ محلها علامات الدهشة المشبعة بالألم. وحين وصفتُ نفسي بالسافل واللئيم والبئيس، وسالت دموعي مرة أخرى (وقد ألقيتُ كل هذه الخطبة، وعيني تدمع)، كان بعض الاختلاج قد غيّر من ملامح وجهها. أرادتْ النهوض من مكانها، لتوْقِف جلدي للذات؛ وحينما بلغتُ الحدّ الأقصى، لم تبالِ بصيحاتي، التي كنت أصرخ فيها، وأقول: «فماذا تريدين مني أكثر؟ ثم ما الذي يبقيك جامدة أمامي هكذا، بعد كل هذا الكلام؟! ولم لا تنصرفين؟!»؛ وإنما انشغلتْ بمدى المعاناة التي لا بدّ أني كنتُ أكابدها، وأنا أقول ذلك. وبعدها، شعرتْ المسكينة، وهي محطّمة ومسحوقة، بأنها أدنى مني شأناً وأحطّ؛ ومن ثمة، أنّى لها القدرة على أن تغتاظ، أو أن تشعر حيالي بالإحباط؟! وفجأة، قفزت واثبة من مكانها، في نوع من الاندفاع الذي يتعذر على المرء كبحه، فأشرعت ذراعيها، وهي تمدّهما نحوي... فمال قلبي نحوها. عندئذٍ، ارتمتْ بغتة فوق صدري، واحتضنتني من قفاي، ثم أخذت تبكي. أنا نفسي لم أستطع أن أتمالك زمام الأمر، فانفجرتُ ببكاء حارّ، لم أرَ مثله أبداً في حياتي.

– إنهم لا يتركونني في سلام... ولا أستطيع أن أكون... أن أكون طيباً! قلت في مشقة وتلجلج.

بعد ذلك، تقدّمتُ بخطى متثاقلة نحو الأريكة، وتهالكتُ عليها، وأنا أدفع برأسي أولاً، ثم انخرطتُ في دورة بكاء أخرى، امتدت لربع ساعة، وقد سيطرت عليّ حينها نوبة أعصاب

حقيقية. أمّا هي، فقد جثتْ بركبتيها بالقرب مني، وأخذتني بين ذراعيها، ومكثت تعانقني وهي ساكنة لا تتحرك.

لكن، ظلت ثمة مشكلة عويصة، وهي أنه كان ينبغي حقيقة لتلك النوبة من البكاء العصبي، أن تنتهي. وإذن (وأؤكد لكم بأن ما أكتبه هو الحقيقة البشعة)، شرعتُ على الرغم مني، أحسّ شيئاً فشيئاً، وبكيفية لا تقاوم مع ذلك، بينما أنا ممدّدٌ على بطني فوق الأريكة، ورأسي مدفون بين المسند، بأني سوف أتضايق أكثر، إن أنا رفعتُ رأسي، ونظرتُ مباشرة صوب ليزا. من ماذا كنتُ أخجل؟ لستُ أدري. إنما شعرتُ بالخجل. وقد خطرتُ ببالي المشوّش في تلك الأثناء، فكرة أخرى تؤكد لي بأن الأدوار بيننا قد انقلبت نهائياً، وبأنها صارت في تلك اللحظات بطلة، بينما صرتُ أنا مجرد كائن ذليل ومسحوق، مثلما كانت تبدو لي تلك الليلة، قبل أربعة أيام... لقد خطر ببالي كل ذلك، في الوقت الذي ما زلت فيه ممدّداً على الأريكة، ورأسي محشور بين المسند!

رباه! هل من الممكن أن أكون قد حسدتها حقاً، في تلك الأثناء؟!

إني أجهل ذلك إلى حدّ الآن، ولا أستطيع أن أجزم بشأنه؛ مثلما ظللت في تلك الأثناء، عاجزاً بشكل أكبر من هذه اللحظة، عن الحسم بشأن ذلك.

ثم إني لا أستطيع العيش، دون أن أمارس على أي أحد بعض سلطتي واستبدادي... إنما... إنما الاستدلال المنطقي لا يفسّر أي شيء بالكل. وإذن، من غير المُجدي بتاتاً، أن أخوض في الاستدلال.

ومع ذلك، تمكنتُ من السيطرة على زمام أمري، ورفعتُ رأسي؛ إذ كان ينبغي عليّ في كل الأحوال، أن أرفعه سواء في هذا الوقت أو ذاك... وإذن، أنا مقتنع إلى حدود الآن، من أن شعوراً آخر قد انبثق بداخلي فجأة، فألهب القلب، بفعل ذلك الخجل بالضبط الذي انتابني، ومنعني من النظر إليها... إنه الشعور بالهيمنة والامتلاك... وبعينين تشع منهما الرغبة المحتدمة، أمسكتُ بيديها، وضغطتُ عليهما بقوة بين يدي. ولكم كنتُ أكرهها، ولكم ظلت تجذبني مع ذلك، ولكم استمرتْ كل عاطفة من تانك العاطفتين تؤجِّج نار الأخرى! لقد بدا ذلك وكأنه نوع من الانتقام تقريباً!... رأيتُ على وجهها في بداية الأمر، سمات الدهشة تشوبها علامات الخوف تقريباً، إلا أنّ ذلك لم يدم سوى للحظة. فقد ضمّتني إليها بذراعيها، في فرح عنيف ومحتدم.

١٠

بعد ربع ساعة، ركضتُ بين أرجاء الغرفة طولاً وعرضاً، وأنا من شدّة نفاد صبري أرتجف، وأقترب دون توقف من الستارة، ناظراً من خَصاصها إلى ليزا. ظلت جالسة على الأرض، بينما أُسْنِد رأسُها إلى السرير، وأعتقد أنها كانت تبكي. لكنها لم تنصرف، وهذا هو ما أثار

حفيظتي. لقد اطّلعتْ هذه المرة على كل شيء. وكانت الإهانة التي عرّضتُها لها نهائية، لكني... لستُ بحاجة إلى أن أروي لكم ذلك. فقد حزرتْ بأن اندفاعة هواي نحوها، إنْ هي إلا ضربٌ من انتقامي منها، ومهانةٌ جديدة بالنسبة إليها، وبأن كراهيتي القديمة لها، والتي ظلتْ تقريباً كراهية لا تستند إلى أساس واضح، قد أضيفتْ إليها منذ ذلك الحين، كراهية شخصية مشبعة بالحقد، وموجّهة نحوها... وفضلاً عن ذلك، فإني لا أقرُّ بأنها أدركتُ كل ذلك بكيفية واضحة، غير أنها أدركتْ تمام الإدراك بأني كائن مقيتٌ، وكائن عاجز كل العجز عن محبّتها.

أعرف بأنه سيقال لي بأنه من غير المحتمل، أجل، من غير المحتمل كلية أن يكون ثمة في الوجود، من هو في مثل شرّي وغبائي؛ وربما سيُضاف إلى ما سبق، بأنه من غير المحتمل أن لا أحبها، أو في الأقل أن لا أكون قد تفهمت ذلك الحب الذي كانت تُكنّه لي، وأن لا أقدّر قيمته مثلما ينبغي. ولكن، لماذا سيكون ذلك غير محتمل؟ في البداية، أنا لم أقوَ على حبّها، لأن الحب بالنسبة إليّ، وأكرّر هذا الكلام على مسمعكم، يعني ممارسة المرء للاستبداد على الآخر، والهيمنة عليه هيمنة روحية. إنني لم أستطع في حياتي كلها، حتى تمثّل شكلٍ آخر للحب في خيالي، عدا كونه مجرّد ممارسة للاستبداد؛ ومن ثمة، انتهيت اليوم إلى الاقتناع بين الفينة والأخرى، بأن الحب لا يمكنه أن يكون سوى إعطاء المحبوب للمحبّ، الحق في ممارسة الاستبداد عليه، بشكل طوعي. إذ حتى في أحلام يقظتي، التي ظللتُ أجنح إليها في القبو، لم أتمثل الحب قط إلا على شكل صراع، يبدأ دائماً بالكراهية، لينتهي بالعبودية الروحية؛ لكني

لم أكن لأستوعب أبداً، ما الذي يمكنني فعله في ما بعد، بالموضوع المهيمَن عليه، بعد أن يصير خاضعاً. وما الشيء الذي يمكنه فضلاً عن ذلك، أن يكون غير محتمل في هذا الأمر، إن كنتُ قد بلغتُ مثل ذلك المبلغ من الانحلال الأخلاقي، إلى ذلك الحدّ الذي فقدتُ معه التعوّد على «الحياة المعاشة»، وإلى الحدّ الذي خطرت لي فيه النزول باللائمة عليها، وإخجالها بكونها جاءت تسعى وراء «الكلمات الرقيقة»؛ وأني لم أقو على إدراك أنها لم تأت من أجل تحقيق تلك الغاية أبداً، وإنما لتمنحني حبّها، لأن انبعاث المرأة، وخلاصها، وعودتها للحياة من جديد – مهما تكن درجة الهلاك الروحي الذي توجد عليه – إنما تكمن في الحب، ولا تستطيع أن تتجلى أبداً في صورة أخرى غير الحب. إني في العمق، لعاجز عن القول بأني كرهتها كرهاً شديداً، حينما بقيت أركض بين أرجاء الغرفة، وأختلس النظر إليها من وراء الستارة. وإنما شق عليها فقط، أن أعرف بأنها لا تزال موجودة هناك. لقد كان وجودها هو الذي ظل بالنسبة إلي، أمراً غير محتمل بشكل رهيب. لقد كنت أريدها أن تغادر، وأن تختفي. كنت أريد أن أتمتع بـ «السلام» مع نفسي، وأبقى وحيداً في قبوي. ولأني لم أتعوّد عليها، فقد شعرتُ بأن «الحياة المُعاشة» قد سحقتني، إلى حدّ أني وجدت صعوبة كبيرة في التنفس.

مضتْ بضع دقائق أخرى، ولم تنهض من مكانها، حتى بدت وكأنما هي في غيبوبة شاملة. وبذلك، بادرتُ بوقاحة مني، بالدّق دقاً خفيفاً على الستارة، كي أذكرها بأن... فانتفضتْ بغتة، وخرجت من جمودها، ثم قامت تثب من مكانها، وأخذت في البحث عن وشاحها وقبّعتها ومعطفها، وكأنما هي بالضبط، تريد أن تفرّ بنفسها منّي... بعد ذلك بدقيقتين،

خرجتْ من وراء الستارة، ورمتني بنظرة ثاقبة. عندها، ضحكتُ بكيفية شريرة ضحكة ساخرة، أجبرتُ نفسي عليها من غير تلقائية، احتراماً للتقاليد والمواضعات وحسب، ثم أشحتُ عنها بوجهي.

– وداعاً! قالت، وهي تتّجه صوب الباب.

فجأة، هرولتُ نحوها عن غير قصد، وأمسكتُ يدها، وبسطتها، ثم دسسْتُ بين راحتها... وشددْتُ قبضتها من جديد. بعد ذلك بقليل، تحوّلتُ عنها، وأسرعتُ الخطى صوب الزاوية المقابلة لها، كي لا أرى أي شيء، في الأقل...

لقد كدتُ أكذب في هذه الأثناء بالذات، حين كتبتُ أقول خطأ، إني قمتُ بذلك من غير قصد، وفي لحظة من اللاوعي التام، لأني فقدتُ رشدي. إلا أني لا أريد أن أكذب، لذلك سأقول صراحة ومن غير مواربة، باني بسطتُ يدها، ثم دسسْتُ بين راحتها... وشددْتُ قبضتها من جديد، بدافع الشرّ الخالص. لقد خطر ببالي أن أقوم بذلك، حينما كنتُ أذرع الغرفة جيئة وذهاباً، بينما كانت هي جالسة وراء الستارة. لكن ما أستطيع أن أقرّ به لكم، هو أن قسوتي حتى وإن كانت متعمّدة، فإنها لم تكن نابعة من صميم القلب أبداً، وإنما كانت قد صدرت عن عقلي السيء. لقد بلغتْ تلك القسوة من درجة الزيف، ونباهة العقل، والافتعال، والانتساب إلى عالم الكتب، مبلغاً لم أستطع أن أتحمّلها فيه، ولو لدقيقة واحدة: إذ هرولتُ في البداية إلى زاويتي في الغرفة، كي لا أرى أي شيء، وبعد ذلك عشتُ مشاعر الخجل واليأس التامة، فأسرعتُ في ملاحقة ليزا. فتحتُ باب المدخل، وأصختُ السمع.

– ليزا! ليزا! صرختُ في السلم، ولكن في خجل وبصوت خافت...

لم يأتني جواب، وهُيِّئ لي أني سمعتُ وقع خطواتها على الدرجات الأخيرة من السلم.

– ليزا! صرخت هذه المرة، بصوت قوي جداً.

لكن، ما من جواب. وسمعتُ في تلك اللحظة بالضبط، رجع صدى البوابة الزجاجية المفضية إلى الشارع – وكانت عصية جداً، بالنظر إلى ثقلها – تُفتَح، وتُغلق.

لقد انصرفتْ. عدتُ إلى غرفتي، وأنا غارق في التفكير. لشدّ ما كان وضعي حينها رهيباً، بفعل الحزن الشديد الذي امتلكني.

توقفتُ بالقرب من المنضدة، بجوار الكرسي الذي جلستُ عليه، وأخذتُ أنظر أمامي، نظرة فارغة وبلهاء. وربما مضتُ عليّ دقيقة، وأنا على ذلك الوضع، لتباغتني رعشة امتدتْ من قنة رأسي إلى أخمص قدمي: لقد رأيتُ أمامي، مباشرة فوق المنضدة... رأيتُ باختصار، ورقة نقدية من فئة خمسة روبلات، زرقاء ومدعوكة، هي الورقة نفسها التي كنتُ قد بسطتُ يدها، ودسسْتُها بين راحتها، ثم جعلت يدها تنقبض عليها. كانت بالضبط هي تلك الورقة النقدية. لا يمكنها أبداً أن تكون أخرى، إذ ما من ورقة أخرى كانت في البيت. لقد وجدتْ إذن، الوقت الكافي لترمي بالورقة فوق المنضدة، في اللحظة التي كنتُ أحثّ فيها الخطو، متجهاً صوب الطرف الآخر من الغرفة.

وماذا في ذلك؟ لقد كان من الممكن توَقّعُ ذلك منها، حقيقة. وهل كنتُ أنا لأتوقعه؟ لا. فقد بلغتُ من فرط الأنانية، أن ازدريتُ البشر جميعاً، ولم أقدّرهم إلا في النادر، إلى حدّ أني لم أتصوّر أن ليزا بالذات، يمكن أن تفعل ذلك. وعليه، فإنّ ما حصل منها، لم أكن لأقوى على تحمّله. لذلك هرعتُ مثل ممسوس نحو ملابسي، لأرتدي ما طالته يدي منها في تلك اللحظة، ثم انطلقتُ أبحث عنها انطلاقة السَّهم. لم يكن في وسعها من الوقت، ما يكفي لقطع مائتي خطوة فقط، حين وجدتني في الخارج.

كلُّ شيءٍ كان هادئاً. وكان الثلج يتساقط في ندف ضخمة، على شكل خطوط عمودية تقريباً، ويغطي الشارع والأرصفة الخالية من المارة. لم يكن هناك أي إنسان، ولا كانت تُسمَع ثمة أي نأمة. ظلّ ضوء الفوانيس يومضا بشكل حزين، من غير أي جدوى. هرولتُ مسافة مائتي متر، إلى أن بلغتُ ملتقى الطرق، ثم توقفتُ بعد ذلك: «أين تكون قد ذهبت؟ ثم لماذا أنا أهرول وراءها هكذا؟».

لماذا؟ كي أجثم راكعاً على ركبتي أمامها، وأنفجر ببكاء الندم، وأقبّل قدميها، وأتوسل إليها أن تصفح عني؟! هذا بالضبط هو ما كنتُ أريد القيام به؛ فكان صدري يتمزق برمته، ولن أستعيد ذكري هذه اللحظة في ذهني أبداً، ببرود ومن غير انفعال. لكن لماذا؟ تساءلت بغتة. ألن أكرهها انطلاقاً من الغد، ربما، لهذا السبب نفسه الذي كرهتها بسببه اليوم، حين أوشكتُ على تقبيل قدميها؟! وهل سأسعدها؟ ألم أدرك اليوم أيضاً، وللمرة المائة، من أكون أنا حقيقة، وما هي قيمتي؟! ثم ألن أنتهي بقتلها؟!».

بقيتُ هناك وسط الثلج المتساقط، متفحّصاً حجابه الحليبي الكثيف، وأنا أفكر في ذلك بوجوم.

«أليس من الأفضل، نعم، أليس من الأفضل أن تحمل معها تلك الإهانة، وإلى الأبد؟ رددتُ في نفسي، وأنا أستهيم، حين عدتُ إلى البيت، كي أخنق في أعماق نفسي ذلك الألم المتَّقد، الذي ظل ينهش قلبي... أقلتُ: الإهانة؟! بل إنما هي تطهير؛ إنما هي وعي شديد المرارة، وشديد الألم! لقد كنتُ سأعرّض روحها للدّنس، وقلبها للتعب، ابتداء من الغد. أما الإهانة فلن تخبو جذوتها فيها أبداً، ومهما يكن الوحل الذي قد ينتظرها مني، فإن الإهانة على كل حال سترفعها، وستصفّي دواخلها... من خلال الكراهية... هَمْمْ... وربما، من خلال الصفح والغفران كذلك... لكن، هل من شأن كل ذلك، أن يخفّف في العمق مصيرَها؟».

ومع ذلك، فإن هذا صحيح! ها أنذا منهمكٌ في طرح الأسئلة الرهيبة على ذاتي: أيهما أفضل، سعادة زهيدة القيمة، أم آلام رفيعة المقام؟ هلّا أجبتم، رجاء: أي الأمرين أفضل؟!

هذا ما مرّ بخاطري ذلك المساء، لمّا لزمتُ بيتي، وأحكمتُ إغلاق باب الغرفة علي، وأنا شبه ميت من شدّة الآلام والعذابات الروحية، التي ألَّمت بي، ولازمتني. لم أتحمَّل من قبل أبداً، مثل تلك العذابات والمرارات؛ لكن، أَمِنَ الممكن أن يكون ثمة أدنى شك، في أني سأتوقف في منتصف الطريق، وأعود أدراجي من حيث أتيت، لمّا هرولت وراءها خارج البيت؟ لم ألتقِ بليزا مرة أخرى أبداً، ولا سمعتُ عنها أي شيء. وأضيف كذلك إلى ما سبق، بأني بقيت لمدة طويلة جداً، مطمئناً وراضياً عن نفسي، بسبب تلك الجملة التي تحدثتُ فيها عن فوائد

الإهانة والكراهية، رغم أني كدتُ أن أسقط طريح الفراش، أنا نفسي، من جراء الحَصَر النفسي الذي ألمّ بي وقتها.

وإلى غاية الآن، وبعد أن مضت عدّة أعوام على ذلك، لا تزال كل تلك الأمور تتردّد عليّ بمذاقها المنفر، الذي يثبط الهمّة، إنما... ألا ينبغي أن أنتهي من كتابة هذه «المذكرات»، عند هذا الحدّ؟ أعتقد بأني أخطأت، حين شرعتُ في كتابتها. فالخجل في الأقل، لم يفارقني ولو للحظة واحدة، طيلة انهماكي في كتابة محكي هذه القصة: ومن ثمة إذن، فإن كتابتها ليست من قبيل الأدب، وإنما هي من قبيل المحنة والعذاب؛ ذلك أن إنشاء قصة طويلة مثلاً، تدور أطوارها حول الكيفية التي أضعتُ فيها فرصة النجاح في حياتي، وحول لزومي حدود ركني الركين، بفعل الفساد الروحي والأخلاقي الذي أعاني منه، وبفعل الوقاحة الصلفة التي أتصف بها، وبفعل عدم تعودي على الحياة المُعاشة، وبفعل تراكم الحسد والغيظ اللذين نمّيْتُهما في قبوي؛ كل ذلك – أؤكد لكم – غير مفيد بالكل. إن الرواية لَفِي حاجة إلى بطل، والحال أني جمعتُ هنا عن قصد وسابق إصرار، جميع الصّفات التي يتسِم بها نقيض البطل، خاصة وأن ذلك من شأنه أن يُحدث في نفسية القارئ أثراً كريهاً، لأننا قد فقدنا جميعاً عادة الحياة، ولأننا قد صرنا جميعاً عرجى: بعضنا بنسبة أكبر، وبعضنا الآخر بنسبة أقل. وبلغنا من حيث درجة فقدان عادة الحياة، مبلغاً عظيماً حدّ أنّا صرنا نشعر في بعض الأحيان، بنوع من الاشمئزاز والنفور إزاء «الحياة المعاشة» حقيقة؛ وإن هذا هو السبب الذي جعلنا لا نستطيع تحمّل مَن يُذكّرنا بوجودها. فما هو الحدّ الذي بلغناه؟ لقد وصلنا إلى حدّ اعتبار أن «الحياة

المعاشة» هي بالضبط، الحياة التي لا نشعر أنها عمل، وأنها وظيفة تقريباً، فنتفق جميعاً في أعماق أنفسنا، على أنه من الأفضل أن تكون على الهيئة التي تقدّمها الكُتُب. وإذن، ما الذي يدفع بنا أحياناً، إلى الاضطراب والاندفاع نحو الشذوذ والشطط والمطالبة بما لست أدريه؟ لا نعرف بالذات، سبباً لذلك. إذ لو استُجيب لشذوذنا وشططنا المطلوبين، لكنا نحن من سوف يتألم، من جراء ذلك. جرّبوا، لتروا بأنفسكم، مثلاً، جرّبوا أن تمنحونا إذن، المزيد من الاستقلالية، وفُكّوا يدي كلّ واحد منّا، ووسّعوا من دائرة أنشطتنا، وارفعوا عنا وصايتكم؛ لتجدونا... وأقسم لكم: تجدونا متى ما رفعتم وصايتكم علينا، نطالبكم على الفور بإعادتها. إني أعرف بأنكم ستؤاخذونني ربما على ما أقول، وبأنكم ستصرخون في وجهي ربما، وأنتم تضربون الأرض بأقدامكم، وتقولون: «اكتفي بالحديث عن نفسك، وعن مآسيك الخاصة التي عشتها في قبوك، ومن ثمة ممنوع عليك أن تردّد عبارة: نحن جميعاً!». إنما اسمحوا لي أيها السادة، فأنا لا أستعمل هذه الـ «نحن جميعاً»، كي أبرّر أقوالي. إني لم أقم، في ما يتعلق بي شخصياً، سوى بالزيادة في الدفع بما لا تتجرؤون حتى على الدفع به إلى الحدّ الأوسط، متمسكين إلى جانب ذلك بجُبْنكم، على اعتبار أنه رجاحة العقل وحسن التصرف، وهو ما يعرّيكم، ويخدعكم في الآن نفسه؛ بينما أنا لم أَزِدْ في حياتي الخاصة، سوى على الدفع بذلك تحديداً، إلى أقصى حدّ ممكن؛ بحيث إني صرتُ أبدو في نهاية المطاف، أكثر حياة منكم. ومع ذلك، افتحوا أعينكم، وأمعنوا النظر إذن، بنباهة وتيقظ! فنحن ما عدنا نعرف أين يعيش هذا الحي المعاش، ومَن يكون، وماذا يسمّى. فكلما تركتمونا لوحدنا، دون كتب، إلا

وارتبكنا، وتِهْنا: لن نعرف بعد ذلك أبداً، ما الذي ينبغي أن نستند إليه، ولا بماذا ينبغي أن نتمسك، ولا ما الذي ينبغي أن نحب، ونكره، ونحترم، ونزدري. لقد بلغنا حدّ التعب من كوننا كائنات إنسانية، كائنات إنسانية خلقتُ من لحم حقيقي ودم حقيقي، وهما ليسا سوى في ملكيتها لوحدها؛ ومع ذلك ينتابنا من جراء ذلك خجل وأي خجل، ونعتبر كأنه عار، حتى صرنا نهفو إلى الاختلاط بـ «إنسانية» مجرَّدة، متى ما وُجِدَت. إننا كائناتُ وُلدَتْ ميتة؛ أضفْ إلى ذلك أننا صرنا منذ عهد قديم، لا نولد من آباء أحياء، وهو في العمق ما يُرضينا كثيراً كل يوم. وهو ما صرنا نحبّه، ونميل إليه. وعمّا قريب، سنخترع الوسيلة الكفيلة بجعلنا نولد من فكرة. ولكن، يكفي هذا! لم أعُد أرغب بالكل، في الكتابة من داخل قعر «قبوي».

إن «مذكرات» هذا العاشق للمفارقات والنقائض، لا تنتهي حقيقة عند هذا الحدّ. وإنما استمرّ هو يكتبها، بحكم عدم قدرته على مقاومة الإغراء. لكن، يبدو لنا نحن أيضاً، أنّ بالإمكان التوقف هنا.